

د. الحسيني الحسيني معدي

# الأساطير السومرية

أساطير العالم



كنوز

المشروع التوثيق

# أساطير العالم

---

الأساطير السومرية

أساطير العالم  
الأساطير السومرية

---

المؤلف  
د/ الحسيني الحسيني معدي

---

مراجعة لغوية  
حسام الكاشف

---

الإشراف العام  
ياسر رمضان

---

الناشر  
كتوز

للنشر والتوزيع  
37 ش قصر النيل - القاهرة  
تليفون: 0127717795 - 0104010701  
Kenouz55@yahoo.com

---

رقم الإيداع: 2457/2012

الترقيم الدولي: 5-057-709-977 - 978

---

الطبعة الأولى

2012

---

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر ولا يجوز  
نهاديا نشر أو اقتباس أو اختزال أو نقل أى جزء من  
الكتاب دون الحصول على إذن كتابي من الناشر

---

كتوز  
للنشر والتوزيع

# أساطير العالم

## الأساطير السومرية

تأليف

د. الحسيني الحسيني معدي

كتون

للنشر والتوزيع

## مقدمة

تقع بلاد سومر القديمة في النصف الجنوبي من العراق الحديث، بدءاً من بغداد شمالاً حتي خليج البصرة جنوباً، وكانت تضم عدة مدن: إريدو «أبوشهرين الحديثة»، وأور «المقبر الحديثة»، وأورك أو إيريك «وهي المسماة في التوراة إرك والمعروفة الآن باسم الوركاء»، ولارسار «المسماة في التوراة باسم الإيسار والمعروفة الآن باسم سنكرة»، ولكش «سيرلا الحديثة» ونيبور «نفر».

واكتشاف سومر والسومريين أريك الباحثين في تاريخ هذه المنطقة، فقد عرف علماء العبرانيين والإغريق هذه البلاد باسم «بابل» التي كان سكانها ينطقون اللغة السامية «البابليين»، ولكن مع أعمال البحث والتتقيب عرف علماء الآثار أن البابليين لم يكونوا أول من سكنوا هذه البلاد، ولا أكثرهم خلقاً وابتكاراً، وإنما كانت حضارتهم امتداداً لحضارة هؤلاء الذين سبقوهم «السومريون» الذين كانوا يتكلمون لغة «مقطعة»، لا هي بالسامية ولا بالهندو - أوروبية. وإلي هؤلاء السومريين يرجع الفضل في وضع بذرة الحضارة في هذه المنطقة من العالم.

وقد استوطن الإنسان بلاد سومر - والتي أصبحت تعرف بهذا الاسم في الألف الثالث قبل الميلاد - في نحو ٤٥٠٠ ق.م.

غير أن القوم الذين استوطنوها أول مرة لم يكونوا سومريين، بل قوم عرفوا في علم الآثار بـ«العبيديين» الذين يعتبرون أول المزارعين الذين أسسوا عدداً من القرى والمدن في هذه البلاد.

أما السومريون أنفسهم فلعلهم لم يقدموا إلي بلاد سومر إلا في الربع الأخير من الألفية الرابعة قبل الميلاد، وليس في وسعنا رغم ما قام به العلماء

من بحوث أن نعرف إلى أي سلالة من السلالات البشرية ينتمي هؤلاء السومريون، أو أي طريق سلكوه حتي دخلوا بلاد سومر. وأخيراً فإنني قد جمعت النصوص الخاصة بأساطير سومر من المصادر العلمية المتخصصة في ذلك المجال. والخير أردت.. وعلي الله قصد السبيل.

د / الحسيني الحسيني معدي



## المعتقدات الدينية السومرية

أنشأ السومريون في غضون الألف الثالث ق.م أفكاراً دينية ومفاهيم روحية خلفت أثراً لا يُمحى في العالم الحديث، لاسيما من خلال اليهودية والمسيحية والمحمدية، وعلي المستوي الفكري وضع المفكرون والحكماء السومريون، نتيجة تأملاتهم الترجيمية في أصل الكون وطبيعته وطريقة عمله، علماً للكون ولاهوتاً فيهما الكثير مما يحمل علي الاقتناع، إلي حد أنهما أصبحا في أساس شهادة الإيمان والعقيدة المسلم بها للكثير من أديان الشرق الأدنى القديم، وعلي المستوي المملي والوظيفي، أنشأ الكهان والقديسون السومريون مجموعة ذات ألوان متعددة ومختلفة من الطقوس والشعائر والمراسيم التي كانت كافية لتروق للآلهة وتسترضيهم، وكذلك لتوفير مصرف لمحبة الإنسان للمهرجانات والعروض الفخمة، وعلي المستوي الجمالي فقد أبدع شعراء الدّيبه «Edubba» وكتّابه ما هو أكثر أسطوريات الشرق الأدنى القديم ثراءً، وهي الأسطوريات التي أرجعت الآلهة إلي حجمها الإنساني، ولكنها قامت بذلك بتفهم وتوقير، وفوق كل ذلك، بأصالة وتخيل.

ولنبداً بـ«علم الكون» واللاهوت، وبالحديث العلمي فإنه لم يكن تحت تصرف الفلاسفة والمفكرين السومريين إلا الأفكار الابتدائية والسطحية عن طبيعة الكون وطريقة عمله، وفي أنظار المعلمين والحكماء السومريين، كان المكونان الرئيسيان للكون «بالمعني الأضيّق للكلمة» هما السماء والأرض، وبالفعل كان مصطلحهم الدال علي الكون هو «أن كي» an-ki، وهي كلمة مركبة تعني «السماء - الأرض» وكانت الأرض قرصاً منبسطاً يعلوه فضاء هائل خاو، يحجبه سطح صلب علي شكل سقف مقبب ولايزال غير معروف تماماً علي وجه التحقيق ما كانوا يعتقدونه بشأن مادة هذا السقف السماوي، وإذا حكمنا من

المصطلح السومري للقصدير وهو «معدن السماء»، فلعله كان القصدير وكانوا يميزون مادة بين السماء والأرض أطلقوا عليها «ليل» آنذا، وهي كلمة معناها التقريبي هو الريح، الهواء، النفس، الروح، ويبدو أن أهم صفاتها المميزة هما الحركة والتمدد، ولذلك فهي تقابل الجو تقريباً، وكان يظن أن الشمس والقمر والكواكب والنجوم مصنوعة من المادة التي صنع منها الجو، ولكنها بالإضافة إلى ذلك أمدت بخاصية الإضاءة وكان ما يحيط به السماء - الأرض من كل الجوانب، وكذلك من الأعلى والأسفل، هو البحر غير المحدود الذي ظل الكون فيه ثابتاً وراسخاً علي نحو ما.

ومن هذه الحقائق المتعلقة ببنية الكون - الحقائق التي كانت تبدو للمفكرين السومريين واضحة ولا جدال فيها - أنشأوا علماً لنشوء الكون يليق بها. لقد استنتجوا أنه قد وجد في البداية بحر أول الزمان؛ والدلائل هي أنهم كانوا ينظرون إلى أن البحر كنوع من العلة الأولى والمحرك الأول، ولم يسألوا أنفسهم ماذا كان يسبق البحر في الزمان والمكان وفي بحر أول الزمان هذا تم بطريقة ما إحداث الكون أي «السماء - الأرض»، الذي يتألف من السماء ذات القبة التي تعلو الأرض المنبسطة وتتحد معها، ولكن كان يأتي بينهما «الجو» المتحرك والتمدد الذي يفصل السماء عن الأرض، ومن هذا الجو سويت الأجسام المضئية، وهي القمر والشمس والكواكب والنجوم وبعد انفصال السماء عن الأرض وخلق الأجسام النجمية مانحة الضياء، ظهرت الحياة النباتية والحيوانية والبشرية إلى الوجود.

وافترض اللاهوتيون السومريون أنه كان لتشفيل هذا الكون وتوجيهه والإشراف عليه مجمع آلهة يتألف من جماعة من الكائنات الحية، شبيهة بالبشر شكلاً ولكنها فوق مستواهم، وخالدة، وهي وإن تكن محجوبة عن رؤية العين الفانية، إلا أنها تسيطر علي الكون وفق خطط محكمة وقوانين راسخة. وكانت مجالات السماء والأرض والبحر والهواء، والأجسام النجمية الرئيسة والشمس

والقمر والكواكب، وتلك القوي الجوية كالريح والعاصفة والإعصار، وأخيراً علي الأرض تلك الكيانات الطبيعية كالنهر والجبل والسهل، والكيانات الثقافية كالمدينة والدولة ومساق الماء والخندق، والحقل والمزرعة، وحتى تلك الأدوات كالمعول والقالب الآجري والمحراث، لقد عد كل شيء من ذلك من مسؤولية كائن أو آخر شبيه بالشكل البشري، ولكنه يفوق الإنسان، كائن يوجه نشاطاته وفقاً للقواعد والأنظمة المرسومة.

ولا ريب أنه خلف هذا الافتراض البديهي من اللاهوتي السومري يقوم استدلال منطقي ولو أنه ربما لم يكن واضحاً، ما دام من غير المحتمل أن يري بعينه أي كائن من الكائنات الشبيهة بالبشر ومن المحتمل أن لاهوتينا قد أخذ الإيعاذ من المجتمع البشري كما عرفه واستدل من العلوم علي المجهول، وقد لاحظ أن البلاد والمدن والقصور والمعابد الحقول والمزارع - وباختصار، كل ما يمكن تخيله من المؤسسات والمشاريع - إنما ترعاها وتشرف عليها، وتوجهها وتتحكم فيها كائنات بشرية حية؛ ولولاهم لاستوحشت البلاد، وتداعت المعابد، وتصحرت وأفقرت الحقول والمزارع، ولذلك وبالتأكيد كان لابد أن الكون وكل ظواهره المتعددة ترعاه كذلك وتشرف عليه، وتوجهه وتتحكم، فيه كائنات حية في هيئة بشرية، ولكن لأن الكون أكبر بكثير من المجموع الكلي لمساكن البشر، ونظامه أشد تعقيداً بكثير من نظامها، فلا بد أن تكون هذه الكائنات الحية أقوى وأشد تعقيداً بكثير من البشر العاديين وفوق كل شيء لابد أن تكون خالدة، وإلا فمن شأن الكون أن يؤول عند مماتها إلي الفوضى الشاملة، وأن ينتهي العالم، وهما خياران لم يكونا مستحسنين عند الميتافيزيقي السومري، وقد كان كل كائن من هذه الكائنات غير المرئية، ذات الهيئة البشرية، والتي هي في الوقت نفسه تفوق البشر وخالدة، يدعي «دينجر» dingir، التي نترجمها بكلمة «إله».

كيف كان هذا المجتمع الإلهي يؤدي وظيفته؟ أولاً كان يبدو من المعقول للسومري أن يفترض أن الآلهة الذين يشكلون المجمع الإلهي لم يكونوا كلهم ذوي

أهمية واحدة أو مرتبة متساوية، فالإله المسؤول عن المعول أو القالب الآجري من العسير أن يقارن بإله مسؤول عن الشمس، ولا يمكن توقع أن تتساوي مرتبة الإله المسئول عن مسافات المياه والخنادق بمرتبة الإله المسئول عن الأرض في كليتها، ثم كذلك، وقياساً علي التنظيم السياسي للدولة البشرية، كان من الطبيعي الافتراض أن رئيس مجمع الآلهة هو إله يعرف كل الآلهة الآخرين بأنه ملكهم وحاكمهم، وعلي ذلك فقد جري تصور مجمع الآلهة السومري كمجمع يرأسه ملك، وكانت أهم المجموعات في هذا المجمع مؤلفة من سبعة أرباب «يرسمون المصائر» وخمسين إلهاً معروفين باسم «الأرباب العظميين»، ولكن التقسيم الأهم الذي أقامه اللاهوتيون السومريون ضمن مجموعهم هو بين الأرباب الخلاقين وغير الخلاقين، وهي فكرة توصلوا إليها نتيجة آرائهم الكونية، وتبعاً لهذه الآراء، فإن المكونات الأساسية للكون هي السماء والأرض، والبحر والجو، وكل ظاهرة كونية أخرى لا توجد إلا ضمن مجال أو آخر من هذه المجالات ومن ثم بدا من المعقول استدلال أن الآلهة الذين هم تحت سيطرة السماء والأرض والبحر والهواء كانوا الأرباب الخلاقين، وأن إلهاً أو آخر من هؤلاء الآلهة الأربع قد خلق كل كيان كوني آخر وفقاً للخطط التي ابتدعوها.

أما من حيث تقنية الخلق المنسوبة إلي هؤلاء الأرباب، فقد أنشأ الفلاسفة السومريون مذهباً أصبح العقيدة المسلم بها في كل أنحاء الشرق الأدنى، وهو مذهب قدرة الكلمة الإلهية الخلاقة، وكان كل ما علي الإله الخالق أن يفعله. وفقاً لهذا المذهب، هو أن يضع خططه، وينطق الكلمة، ويتفوه بالاسم ومن المحتمل أن فكرة الكلمة الإلهية الخلاقة كانت نتيجة استدلال تشابهي قائم علي ملاحظة المجتمع البشري، فإذا كان في وسع ملك بشري أن يحقق كل ما يصبو إليه تقريباً بالأمر، بما يبدو أنه ليس أكثر من كلمات فمه، فقد كان ممكناً بالنسبة إلي الأرباب الخالدين الذي يفوقون البشر، والمسؤولين عن مجالات الكون الأربعة، ما هو أكثر بكثير ولكن لعل هذا الحل «السهل» للمشكلات

الكونية، التي تكون فيها الفكرة والكلمة وحدهما بالفتي الأهمية، هو إلي حد كبير انعكاس لدافع الهروب إلي تحقيق حلم الرغبة المرجوة، وهو عملياً طبع كل البشر في أوقات الشدة والبلاء.

ومن قبيل ذلك، أورد اللاهوتيون السومريون، ما كان بالنسبة إليهم استدلالاً ميتافيزيقياً وافياً بالفرص لتفسير ما يجعل الكيانات الكونية والظواهر الثقافية، التي خلقت ذات مرة، تحافظ علي عملها باستمرار وانسجام من دون تنازع أو تشوش؛ وكان ذلك هو المفهوم الذي تشير إليه الكلمة السومرية «مي»، التي لا يزال معناها الدقيق مشكوكا فيه، ويبدو أنها تدل عموماً علي مجموعة من القواعد والتتظيمات المنسوبة إلي كل كينونة كونية أو ظاهرة ثقافية، يقصد المحافظة علي عملها إلي الأبد وفقاً للخطط التي يضمها الإله الذي يخلقها وباختصار، إنها إجابة سطحية أخرى، ولكن من انوضح أنها ليست عديمة الجدوي إجمالاً، عن مشكلة كونية لا تحل.

ومصدرنا الأولي للمعلومات عن معني «مي» هو أسطورة «إينانا وإنكي» انتقال فنون الحضارة من بريدو إلي إيريك وقد قسم مؤلف القصيدة الحضارة كما كن يعرفها إلي مئة عنصر ونيف، يتطلب كل عنصر منها «مي» لإحداثه والمحافظة علي سيره، وهو يكرر في الأسطورة هذه المفردات المئة أربع مرات، ولكن علي الرغم من هذه التكرارات، فإن زهاء ستين مفردة هي وحدها المفهومة في الوقت الحاضر، وبعضها ليست سوي كلمات مجردة لا تعطي، لانعدام السياق، إلا إشارة خفيفة إلي دلالتها الحقيقية، ومع ذلك تظل كافية لإظهار الصفة المميزة، والأهمية، اللتين لهذه المحاولة الأولي للتحليل الثقافي المؤدية إلي قائمة كبيرة بما يصطلح عليه الآن عموماً بالخصائص والتركيبات الثقافية، وتتألف هذه المفردات، كما سنري، من المؤسسات المتعددة، والوظائف الكهنوتية، ومعدات الطقوس، والمواقف العقلية والانفعالية، وشتي المعتقدات والعقائد المسلّم بها.

كان الأرباب السومريون، كما رسمت صورهم الأساطير السومرية، ذوي هياكل بشرية بشكل كامل، وحتى الأرباب الأقوي والأعراف بينهم جري تصورهم بشريين في أشكال والفكر والعمل وهم كالإنسان، يخططون ويعملون، ويأكلون ويشربون، ويتزوجون ويعيلون الأسر، ويعضدون البيوت الكبيرة، ويستحوذ عليهم ما يستحوذ علي البشر من الأهواء وأحوال الضعف، وهم علي العموم يفضلون الحقيقة والعدالة علي أباطل والجور، ولكن دوافعهم ليست واضحة علي الإطلاق، وكثيراً ما يتحير الإنسان في أمرهم ولا يفهمهم وكان يعتقد أنهم يعيشون فوق «جبل السماء والأرض حيث تبرز الشمس»، عندما لم يكن وجودهم ضرورياً في الكيانات الكونية الخاصة التي عهد بها إليهم، أما مسألة كيف يتحركون ويتجولون فغير معروفة تماماً من المعلومات المتاحة معرفة يقينية، ولو أننا نعلم أن إله أقمير يتحرك في قارب، وإله الشمس في مركبة حربية. أو وفقاً لرؤية أخرى، علي قدميه، وإله العاصفة علي النجوم وكانت القوارب تستخدم مراراً، ولكن يبدو أن المفكرين السومريين لم يزعجوا أنفسهم بأمثال هذه المشكلات العملية والواقعية، وهكذا لم يجر إعلامنا عن الطريقة التي يفترض أنهم وصلوا بها إلي معابدهم ومزاراتهم المختلفة في سومر، وبأي طريقة كانوا يؤدون نشاطات بشرية من قبل الأكل والشرب ويرجح أن الكهان لم يروا إلا تماثيلهم، التي تعهدوها وعاملوها بمنتهى العناية، ولكن كيف تصوروا أن الأشياء الحجرية والخشبية العظم والعضل ونسمة الحياة، فإن هذا السؤال لم يخطر ببالهم.

ولابد أن المفكرين السومريين قد أزعجهم التناقض الصميمي بين الخلود والتشبه بالشكل البشري؛ فإلي الرغم من أن الأرباب كان يعتقد بأنهم خالدون، فقد كان يجب أن يكون لهم قوتهم، ويمكن أن يصابوا بالمرض علي درجة الموت، وكانوا يحاربون ويجرحون ويقتلون. ولا ريب أن حكماءنا السومريين قد أنشأوا أفكاراً لاهوتية كثيرة في محاولة لا جدوي منها لحل التناقضات والتناقضات

الملازمة للنظام الديني القائم علي تمديدية الآلهة، ولكن إذا حكمنا من المادة المتاحة، فمن المحتمل أنهم لم يعبروا عن هذه الأفكار في شكل نظامي، ولذلك لن نعلم الكثير عنها، وعلي أي حال، فمن بعيد الاحتمال أن يكونوا قد حلوا الكثير من التناقضات، ومما لا ريب فيه أن ما نحاكم من الإحباط الروحي والفكري هو أن الكثير من الشك الذي كان من شأنه أن يقلقهم، وفقاً لطريقة تفكيرنا، لم يمر بأذهانهم.

عند منتصف الألف الثالث ق.م، علي آخر تقدير، نجد مئات الآلهة، بالاسم علي الأقل، موجودة بين السومريين ونعرف أسماء الكثير من هؤلاء الآلهة، لا من مجرد الجداول المجمعة في مدارس الكتبة، بل كذلك من قوائم الأضحيات علي الألواح التي تم الكشف عنها أثناء القرن الماضي، ومن أسماء الأعلام التي هي من قبيل «فلان راع» و«فلان له قلب كبير»، «الذي هو مثل كذا»، «خادم فلان»، «رجل فلان»، «فلان المحبوب»، «فلان أعطاني»، وما إلي ذلك من عبارات يمثل «فلان» فيها اسم إله، والكثيرون من هؤلاء الآلهة هم آلهة ثانويون، أي أنهم زوجات وأطفال وحدم، تم استيادتهم من أجل الآلهة الرئيسيين علي أساس النموذج البشري، ولعل الأسماء الأخرى، هي أسماء وصفات أخرى للأرباب المعروفين جيداً ولا يستطيع هي الوقت الحاضر تحديدهم وتمييزهم.

ومهما يكن، فبالفعل كان عدد غفير من الآلهة يعبد حقاً طوال العام من الأضحيات والتقديس والصلاة، وكان الآلهة الأربع الأهم من هؤلاء المئات من الآلهة هم إله السماء آن، وإله الهواء إنليل، وإله الماء إنكي، والآلهة - الأم العظيمة نينهورسغ، وكنا في العادة يتقدمون القائمة الإلهية، وكثيراً ما يدرجون وهم يؤدون أعمالاً مهمة معاً بوصفهم جماعة، وفي اللقاءات والولائم الإلهية كانت تعطي لهم مقاعد الشرف.

وثمة سبب وجيه للاعتقاد بأن «آن»، إله السماء، كان السومريون يتصورونه في أحد الأزمان أنه الحاكم الأعلي لمجمع الآلهة، علي الرغم من أنه في المصادر

الميسورة لنا، والتي ترجع إلي زهاء عام ٢٥٠٠ ق م، يبدو أن إله الهواء، إنليل، هو الذي يمتلك مكانه بوصفه زعيم مجمع الآلهة وكانت دولة المدينة التي كان فيها مقر عبادته الرئيس تدعى إيريك، وهي مدينة أدت دوراً سياسياً بارزاً في تاريخ سومر، وفيها اكتشفت بعثة ألمانية قبل الحرب العالمية الثانية بزمن غير طويل، ألواحاً طينية صغيرة منقوشة بعلامات من انوع الذي يشبه الكتابة التصويرية، يعود تاريخها إلي زهاء عام ٣٠٠٠ ق.م. وظل آن معبوداً في سومر آلاف السنين، ولكنه فقد الكثير من مكانه بالتدريج، وبات شخصاً شبحياً إلي حد ما هي مجمع الآلهة، ونادراً ما يذكر في تراتيل الأيام المتأخرة وأساطيرها، وفي ذلك الحين منح الإله «إنليل» جل قدرته.

وكان الإله الأهم في مجمع الآلهة السومري، والذي أدي دوراً مهيمناً في كل أنحاء سومر في الطقس والأسطورة والصلاة، هو إله الهواء إنليل، والأحداث المؤدية إلي القبول العام بأنه كبير الآلهة في المجمع الإلهي السومري مجهولة. ولكن إنليل، ومن أقدم المدونات المفهومة، معروف بأنه «أبو الآلهة» و«ملك السماء والأرض» و«ملك كل الأراضي»، ويفخر الملوك والحكام بأن إنليل هو الذي منحهم ملكيتهم علي البلد، وهو الذي جعل البلد مزدهراً، وجعل بين أيديهم التغلب بقوته علي كل البلاد، وإنليل هو الذي يعين الملك ويعطيه صولجانه وينظر إليه بعين الاستحسان.

ونعلم من الأساطير والتراتيل المتأخرة أنه قد جري تصور إنليل أكثر الآلهة إحساناً، هو المسؤول عن التخطيط لأشد ملامح الكون إثماراً وخلقها، وكان الإله الذي جعل النهار يبرز، والذي أخذته الشفقة علي البشر، والذي وضع الخطط التي تغل من لأرض كل البذور والنباتات والأشجار، وكان هو الذي صنع المعول والمحراث نموذجين أوليين للأدوات الزراعية التي سيستخدمها الإنسان، وأنا أشدد علي ملامح الإحسان في طبع إنليل لأصبح سوء التصور، الذي وجد سبيله عملياً إلي كل الكتيبات والموسوعات التي تعالج الديانة والثقافة السومرية.

الـ.....، الواشي،  
المعجرف، ناكيب الميثاق،  
إنه لا يطيق شرهم في المدينة،  
الشبكة الكبيرة...،  
إنه لا يدع الفاجرين وفاعلي الشر يفلتوا من خلال عيونها.  
نيبور - المزار الذي يسكن فيه الأب، «الجيل العظيم»،  
سدة الوفرة، حيث يعلو المعبد إكور...  
الجيل الشامخ، الكان الطاهر...،  
أميرها، «الجيل العظيم»، الأب إنليل،  
قد أسس مقعده على سدة إكور، المزار الرفيع،  
المعبد - مراسيمه كالسما لا يمكن إسقاطها،  
وظفوسه الظاهرة كالأرض لا يمكن القضاء عليها،  
مراسيمه كمراسيم الغمر العظيم لا يمكن النظر إليها،  
قلبه مثل مزار بعيد، مجهول مثل كبد السماء...،  
كلماته صلوات،  
الفاظه ابتهاج...،  
شعيرته نفيسة،  
ولائمته تسيل دسماً ولبناً، غنية بالخير العميم،  
مستودعاته تجلب السعادة والمسرة...،

ومعبد إكور، الدار اللازوردية، المقام الرفيع،  
مهافته ورهفته تأتيا بعد السماء،  
ظله ينتشر علي كل البلاد،  
رفعته تصل إلي قلب السماء،  
كل السادة والأمرء يوصلون إلي هناك هداياهم وتقدماتهم المقدسة،  
يطلقون هنالك الصلاة والابتهاال والالتماس.  
السماء - إنه واحدها الأميري؛ الأرض - إنه واحدها العظيم،  
الأنوناكي - إنه إلههم المعظم،  
وعندما، في حالة الهول، يقرر المصائر،  
لا يجرو إله علي النظر إليه.  
إلي وزيره المعظم، نوسكو، عهد بتنفيذ أوامره الشاملة.  
واستودعه كل الشرائع المقدسة، كل الأحكام المقدسة.  
لولا إنليل، الجبل العظيم،  
لما بنيت المدن، ولا تأسست المستوطنات،  
ولما عمرت معاليف الدواب، ولا أنشئت الزرائب،  
ولما تنصب الملك، ولا ولد كبير الكهنة،  
ولما اختار قأل الغنم كاهن الدماه، ولا كبار الكهنة،  
ولما كان للعمال مراقب ولا مشرف..  
والأنهار - لما كانت مياه طوفانها تفيض،  
ولا باض السمك البيوض في أجمة الخيزران،

ولا بنت طيور السماء الأعشاش في الأرض الشاسعة ،  
وفي السماء لما أتت الغيوم المنساقاة برطوبتها ،  
ولأخفقت النباتات والأعشاب ، وهي مجد الأرض ، في النمو ،  
وفي الحقل والمرج لأخفقت الحبة الغنية في أن تزهر ،  
ولما أغللت الأشجار المزروعة في الغابة الجبلية بثمرها ..

أما ثالث ملوك الآلهة السومريين فهو إنكي، الإله المسؤول عن غير المتكون «ما قبل الخلق»، أو بالسومرية الـ «أبزو»، وكان إنكي إله الحكمة، وهو في الدرجة الأولى من نظم الأرض وفقاً لقرارات إنليل، الذي اقتصم دوره علي وضع المخططات لعامة، وكانت التفصيلات الفعلية والأعمال التنفيذية متروكة لإنكي، الحكيم، الحاذق، واسع الحيلة، صانع الهمم ونحز نعلم الكثير عنه من أسطورة «إنكي والنظام العالمي: تنظيم الأرض وعملياتها الثقافية»، التي توفر بياناً مفصلاً عن نشاطات إنكي الخلافة في إنشاء الظواهر الطبيعية والثقافية الضرورية للحضارة.

كانت تأتي الإلهة - الأم نينهور ساغا في الترتيب الرابع بين الأرباب الخلاقين، وهي معروفة كذلك باسم نينما «السيد العلية»، ومن المحتمل أن هذه الآلهة كانت في زمن باكرو ذات مرتبة أرفع، وكثيراً ما كان اسمها يتقدم علي اسم إنكي حين يدرج الآلهة الأربع معاً لسبب أو لآخر، ولعل اسمها كان في الأصل «كي» «الأم الأرض»، ومن المحتمل أنها كانت تعد زوجة آن، «السماء» - وهكذا يمكن أنه قد جري تصور آن وكي علي أنهما أبوا جميع الآلهة، وكانت تعرف كذلك باسم «نينتو»، السيدة التي أنجبت، وكان أوائل الحكام السومريين يحبون أن يصفوا أنفسهم بأنهم «الذين تغذيهم نينهور ساغ باللبن باستمرار»، وكانت تعد أم كل الكائنات الحية، الإلهة - الأم الفاتكة، وهي في إحدى أساطيرها تؤدي دوراً مهماً في خلق الإنسان، وفي أسطورة أخرى تبدأ بسلسلة من الولادات الإلهية في ديلمون، فردوس الآلهة.

بالإضافة إلى هؤلاء لآلهة الكبار الأربع يوجد ثلاث أرباب نجميين هم: الإله - القمر نانا، المعروف كذلك باسم «سين»، والذي من المحتمل أن يكون ذا أصل سامي؛ وابنه الإله - الشمس، أوتو، وابنته الإلهة إينانا المعروفة لدى الساميين باسم شتار، ومن الممكن أن يشار إلى هذه المجموعة من الآلهة السبع، «ن» و«نليل» و«إنكي» و«نينهور ساغ» و«نانا - سين» و«أوتو» و«إينانا» على أنها الآلهة السبع الذين «يقررون المصائر»، أما «الآلهة العظام» الخمسون فلم تعط لنا أسماءهم ولكن يبدو أنهم متماثلون مع الـ «أنوناكي» أبناء آن، وعلى الأقل من كان منهم غير منحصر بالعالم السفلي، وكان هنالك كذلك مجموعة من الآلهة تسمى «إيجيجي»، ولو أنه يبدو أن أعضائها يؤدون دوراً صغيراً نسبياً، إذا حكمنا من أنهم لا يذكرون إلا نادراً في الأعمال الأدبية التي وصلتنا.

إذا تحولنا عن الإله إلى الإنسان وجدنا أن المفكرين السومريين، وفقاً لرؤيتهم للعالم لم يبالغوا في الثقة بالإنسان ومصبره، كانوا على اقتناع راسخ بأن الإنسان قد صنع من الطين ولم يخلق إلا لفرض واحد: هو خدمة الآلهة بإمدادهم بالطعام والشراب والمأوى حتي يمكن لهم أن يتفرغوا لنشاطاتهم الإلهية وكانت حياة الإنسان مغطاة بعمد البقي، وينتابها الاضطراب مادام لا يعرف مقدماً المصير الذي يرسمه له الآلهة الذين لا يعرف لهم منول، وعند مماته كانت روحه الموهنة تنزل إلى العالم السفلي المظلم القابض للصدر، حيث لم تكن الحياة سوى ظل موحش وكئيب لنظيرها الأرضي.

إن إحدى المشكلات الأخلاقية الأساسية، الأثيرة جداً عن الفلاسفة الغربيين، لم تقلق المفكرين السومريين على الإطلاق، وأعني بها مشكلة حرية الإرادة، فإن السومريين إذا اقتنعوا من دون أي حاجة على حجة أن الإنسان قد خلقه الأرباب لفائدتهم وفراغهم فقط، قبلوا وضعهم الاتكالي كما قبلوا الحكم الإلهي بأن الموت نصيب الإنسان وأن الآلهة هم وحدهم الخالدون وكل فضل في الخلال المناقبية والفضائل الأخلاقية التي أنشأها السومريون عبر القرون، تدريجياً وبألم من تجاربهم الاجتماعية والثقافية، كان ينسب إلى الآلهة: فالآلهة

هم الذين خططوا له على ذلك النحو، ولم يكن الإنسان إلا متبعاً للأوامر الإلهية.

كان السومريون، تبعاً لدوناتهم، يتعلقون بالخير والحقيقة، وبالقانون والنظام، والعدالة والحرية، والنزاهة والاستقامة، والرحمة والحنو، ومن الطبيعي أنهم كانوا يأنفون من أضدادها، أي: الشر والباطل، والفوضى واستباحة القانون، والظلم والحدور، والإثم والتمادي في الخطأ، والقساوة وانعدام الشفقة، وكان الملوك والحكام، على وجه الخصوص، يتفاخرون بأنهم سنوا القانون والنظام في البلدان وحملوا الضعيف من القوي، والفقير من الغني، وأزالوا الشر والعنف وعلى سبيل المثال، يدون «أوروكا جينا» بفخر أنه أعاد العدل والحرية لمواطني لاغاش الذين طالت معاناتهم، وتخلص من الموظفين الجائرين الذين لا يحلو منهم مكن، وأنهى الظلم والاستغلال، وحمل الأرملة واليتيم، وبعد أقل من أربعة قرون، نشر «أورنامو» مؤسس سلالة أور الثالثة، مجموعة قوانينه، التي يمدد في افتتاحيتها بعض منجزاته الأخلاقية: لقد تخلص من بعض المفسدين المكتنية الشائنة، وضبط الموازين والمكاييل ليضمن الاستقامة في ميدان السوق، ويتيقن من أن الأرملة واليتيم والمسكين في حماية من سوء المعاملة ومن المقابحة، وبعد زهاء قرنين نشر ليبيت - عشتار، من «إيسين»، مجموعة قوانين جديدة يفخر فيها بأنه من اختاره الإلهان «آن» و«إنليل» لإمارة البلد، لكي يقيم العدل وليبعد المظالم، ويرد البغضاء والعصيان بقوة السلاح، وليجلب حسن الحال للسومريين والأكاديين، ويوجد في تراتيل عدد كبير من الحكام السومريين الكثير مما يشبه هذه المزاعم بالسلوك الأخلاقي والمناقب الرفيع.

ولا شك أن الأرباب كانوا كذلك يفضلون الأخلاقي والمناقب على غير الأخلاقي وغير المناقب، ووفقاً للحكماء السومريين، فإن أهم آلهة المجمع الإلهي السومري يشاد بذكرهم في التراتيل بوصفهم عشاق الخير والعدل والحق والاستقامة، وبالفعل، هناك عدة أرباب كان الإشراف على النظام الأخلاقي أهم

وظيفة لديهم: منهم، مثلاً الإله - الشمس، أوتو وقد قامت إلهة أخرى، هي الإلهة اللغاشية التي تدعى نانشه، كذلك بدور مهم في مجال السلوك الأخلاقي والمناقبي وهي موصوفة في إحدى تراثيلها بأنها الإلهة:

التي تعرف اليتيم، التي تعرف الأرملة،

وتعرف ظلم الإنسان للإنسان، إنها أم اليتيم،

نانشه، التي تهتم بالأرملة،

التي تنشد «؟» العدل «؟» لأفقر الناس «؟»

الملكة التي تحضر المنتجى إلى حضنها،

وتعثر للضعيف على ماري.

وتصور في فقرة أخرى من هذه الترتيلة بأنها تحكم في البشر في رأس السنة الجديدة، وبجانبها نيدابا، إلهة الكتابة والحساب، وزوجها هايا، بالإضافة إلى شهود عديدين أن الأنماط الإنسانية الخبيثة التي تنشر منها نيدابا هي:

الذي يتمادي في...

«الناس» الذي يتجاوز الحدود المقررة، وينتهك العقود،

الذي كان ينظر بامتحسان إلى أماكن الشر،...

الذي يستعيز برؤن خفيف عن وزن ثقيل،

الذي يستعيز بمكيال صغير عن مكيال كبير،

الذي يأكل «شيئاً لا يخصه» ولا يقول «قد أكلته»

الذي يشرب، ولا يقول «قد شربته»...

الذي يقول، «أود أن أكل ما هو محرم»

الذي يقول، «أود أن أشرب ما هو محرم».

وضمير نانشه ينكشف أكثر في أبيات تقول:

لراحة التميم، وإزالة الترمل،

لإقامة مكان تدمير للقوي،

لقلب القوي ضعيفاً...

تفتش نانشه في قلب الشعب

ولسوء الحظ، وعلى الرغم من أن كبار الآلهة يفترض أن يكونوا في سلوكهم من ذوي الأخلاق والمناقب، فقد ظل الواقع، وفقاً لرؤية السومريين للعالم، هو أنهم كانوا أيضاً الأرياب الذين خططوا للشر والباطل، والعنف والجور؛ وباختصار، لكل أنماط السلوك المفتقرة إلى المناقب والأخلاق الحميدة، ولذلك فإن قائمة الدمي، أي القواعد والتظيمات التي يخترعها الأرياب لجعل الكون يسير بسلاسة وفعالية، لا تقتصر على القواعد التي تنظم «الحق» و«السلام» و«الخير» و«العدل» بل يوجد بينها كذلك القواعد التي تضبط «الباطل» و«الخصام» و«المويل» و«الخوف». ورب سائل يقول: لماذا يجد الأرياب من الضروري أن يخططوا للإثم والشر، والألم والمصيبة، وأن يخلقوا هذه الأمور التي كانت من الانتشار إلى حد أنه يمكن لامرئ سومري متشائم أن يقول: «الم يولد لأم طفل بلا خطيئة؟» وإذا حكمنا من المادة المتيسرة، فإن الحكماء السومريين، إذا سئلوا هذا السؤال في أي وقت، كانوا مستعدين للاعتراف بجهلهم في هذا الموضوع فمشيئة الآلهة وبواعثهم لا يدرك كنهها في بعض الأحيان، فلم يكن النهج القديم الذي على «أيوب» سومري أن يتبعه هو المجادلة والتذمر من الحظ العاثر غير المسوغ ظاهرياً، وإنما هو التوسل والمويل والتندب، والإقرار بذنوبه ونقائصه التي لا مناص منها.

ولكن هل كان الأرياب يبالون به، وهو فانٍ وحيد، ولو سجد وأذل نفسه في صلاة صادرة عن القلب؟ لقد كان من شأن المعلمين السومريين أن يجيبوا بأنه

من المحتمل ألا يبالوا، فقد كان الأرباب، كما رأوهم كالحكام الفانين ولديهم ولا ريب أمور أهم يولونها اهتمامهم. وهكذا، كما في حال الملوك، على الإنسان أن يكون لديه وسيط يتشفع له، وسيط يكون الأرباب مستعدين لسماعه والتعاطف معه، وفي النتيجة، أوجد المفكرون السومريون وأنشأوا مفهوم الإله الشخصي، وهو نوع من الملاك الصالح لكل فرد على الخصوص، ولكل رئيس أسرة. هو أبوه الإلهي الذي أنجبه، إن جاز القول، وكان الفرد المصاب يكشف قلبه له، أي لإلهه الشخصي، في الصلاة والابتهال، وكان من خلاله يجد خلاصه.

وقد علمنا كل ذلك من نص شعري طوي يعالج المكابدة والخضوع، وهما موضوع أشهره في العالم الأدبي والفكر الديني «سفر أيوب» في الكتاب المقدس. ولا مجال لمقارنة القصيدة السومرية بـ«سفر أيوب» في سعة المدي، أو عمق الفهم، أو حمال التعبير، ويكمن جل أهميتها في أنها تمثل محاولة الإنسان المدونة الأولى لمعالجة الشيخوخة ومشكلة المكابدة، قبل أكثر من ألف سنة من تأليف «سفر أيوب».

والقضية الأهم عند شاعرنا هي أنه ليس للضحية في أحوال المعاناة والشدّة، مهما بدت غير مبررة، إلا ملاذ واحد ناجع ومشروع، هو الاستمرار في تمجيد إلهه والنواح والمويل أمامه، إلى أن يلتفت إلى صلواته بأذن راضية، والإله المعني هنا هو الإله «الشخصي» للمصاب، أي الرب الذي هو وفقاً للعقيدة السومرية المقبولة يعمل بوصفه ممثلاً وشفيعاً للإنسان في مجمع الآلهة وليثبت المؤلف غرضه لا يلجأ إلى التأمل الفلسفي بل إلى التطبيق العلمي، فيستشهد ويعرض قضيته هنا، لم يذكر اسمه بالتأكيد. كان موسراً وحكيماً ومستقيماً، ومنعماً عليه بالأصدقاء والأقارب على السواء، وهي أحد الأيام غمرة الداء والبلاء، فهل تحدي النظام الإلهي وجدف لا، أبداً لقد أقبل على إلهه بالتخشع وبالدموع والمويل وسكب قلبه في الصلاة والتفرغ، ونتيجة لذلك، سر إلهه سروراً عظيماً ومال إلى الشفقة، فاهتم بصلواته، ونجاء من حظه العاثر، وحول

أله إلى فرج.

وإذا تكلمنا بنائياً، فإن القصيدة يمكن أن تقسم مؤقتاً إلى أربعة أقسام، يأتي أولاً تحريض تمهيدي وجيز، هو الأبيات الخمسة الأولى التي تقول:

ليحرب الإنسان عن سمو إلهه على الدوام،  
وليحمد الشاب كلمات ربه من دون تكلف،  
وليصوت بالأنين من يعيش في البلد الأمين،  
في دار الغناء ؟؟، ليهنا ؟؟، صديقه ورفيقه،  
وليهدأ قلبه.

ثم تقدم القصيدة الفرد غير المسمي، الذي عند إصابته بالمرض والبلية، يخاطب ربه بالدموع والصلوات، ويلي ذلك التماس المكابد، الذي يشكل القسم الأكبر من القصيدة، ويبدأ بوصف المعاملة السيئة التي يوليهها له إخوته البشر، والأصدقاء، والأعداء على السواء، ويستمر يندب قدره المرير، الذي يتضمن الطلب البليغ إلى الأتقارب والمفنين المحترفين أن يحذوا حذوه، وينتهي باعتراف بالذنب وتوسل مباشر من أجل المرح والنجاة:

أنا إنسان، إنسان بصير، ومع ذلك فمن يحترمني لا يفلح،  
لقد تحول عالمي الصالح إلى أكذوبة،  
غطاني رجل الخداع بالريح الجنوبية،  
فأنا مكره على خدمته،  
ومن لا يحترمني يعينى أمامك،  
لقد تصدقت على بألم يتجدد أبداً،  
دخلت المنزل، فإذا الروح مثقلة،

وأنا، الإنسان، خرجت إلى الشوارع، فإذا القلب مفتوح،  
ومعني، أنا الباسل، أصبح الراعي الصالح عندي غاصباً، ينظر إلى مناوئاً،  
إن الراعي الذي عندي قد ناشد القوي الشريرة أن تكون ضدي أنا الذي  
ليس عدوه،

ولا يقول لي رفيقي كلمة صادقة،

وصديقي يكذب كلمتي الصادقة،

وتأمر على رجل الخداع،

وأنت، يا إلهي، لا تمنعه

«ثلاثة أبيات ضائعة»

وأنا، الحكيم، لماذا أقرن بالشبان الجهلة؟

وأنا، البصير لماذا أعد من ضمن الجهلة؟

الطعام في كل مكان، ومع ذلك فطعامي هو الجوع،

وعندما ورعت الحصص على كل الناس، كانت حصتي هي الألم.

«عشرة أبيات ضائعة»

يا إلهي، أود أن أقف أمامك،

أود أن أكلمك... كلمتي آهة،

أود أن أحدثك عنها، أن أندب مرارة حياتي

«أن أنوح على، التشوش»

«ثلاثة أبيات ضائعة»

انظر، لا تدع أمي التي ولدني توقف ندبي أمامك،

لا تدع أختي نطق بالأنشودة والأغنية السعيدتين،  
 بل دعها تتلفظ بمصاتي أمامك دامة العينين،  
 دع زوجتي تنفوس بالمي متفجعة،  
 دع المغني البارع يندب قدري المرير،  
 يا إلهي، النهار يشرق متألّفاً على البلد، وبالنسبة لي النهار أسود،  
 النهار المساك، النهار الجميل له... مثل ال...،  
 تقيم الدموع والمويل والحوي والاكتئاب في داخلي،  
 يغمرني الألم مثل من نذر للدموع فقط  
 يمسكني القدر الشرير بيده، يختطف نسمة حياتي،  
 يغسل جسدي الداء الخبيث .  
 وزهاء، بيتاً ضائعة،  
 يا إلهي، أنت أبي الذي أنجيني، ارفع وجهي،  
 مثل بقرة برية، وبشفقة... الآمة،  
 كم سيطول تجاهلك لي، وتركبي من غير حماية؟  
 مثل ثور...،  
 تتركني من دون هداية؟  
 لقد قال الحكماء، كلمة صادقة ومعبرة:  
 ولم يولد لأم ولد بلا خطيئة ومنذ القدم لم يك فتى بلا خطيئة،  
 ١٤ بيتاً ضائعاً

هذا ما كان من أمر الصلاة والابتهاال، ثم تتبع ذلك «النهاية السعيدة»:

«الرجل» - أصغى «ربه» إلى بكائه ونحيبه،

«الشاب» هذا نديه وعويله قلب إلهه الكلمات الصادقة،

الكلمات الطاهرة التي طققها، قبلها ربه،

الكلمات التي اعترف بها الشاب في صلاته، سرت ربه

كف ربه يده عن الكلمة الشريرة، التي تغم القلب ...،

وشياطين السقم المكتفة، التي بشرت أجنحتها على إتساعها، أزالها،

«الداء» الذي أصابه مثل .. بدده،

القدر الخبيث الذي رسمه له وفقاً لحكمه قد حاد عنه،

لقد حول عناء «؟» الرجل إلى فرح

وضع بجابه .. بلطف .. روحاً لتكون رقيقة وحارسة،

أعطاه .. ملائكة ذات طلعة ودية،

«وهكذا» «الإنسان» يعرب على الدوام عن سمو إلهه،

ولكن سواء أكان ثمة ملاك حارس أم لا، فإن الإنسان يموت عاجلاً أو آجلاً، ويذهب إلى العالم الذي في الأسفل لثلا يعود، وغني عن القول إن ذلك كان مصدراً للقلق والحيرة، فقد كانت مشكلة الموت والعالم السلفي مفساة بالأنغاز والمفارقات والمعضلات، فلا عجب أن الأفكار السومرية التي تمت إليها بصلة لم تكن دقيقة ولا متسقة، كما سيتبدى من التحليل التالي للمادة ذات الصلة الوثيقة بموضوع البحث.

من وجهة نظر السلوك الثقافي السومري، كانت الأضرحة الملكية متعددة المدافن التي كشف عنها في أور الفقيد السير ليونارد وولي بمنتهي العناية

والبراعة ذات أهمية، فهي تدل بيقين معقول على أن أوائل حكام سومر كانوا عادة لا يصطحبون معهم إلى القبر بعضاً من أنفسهم مقتنياتهم الشخصية فقط، بل كذلك عدداً غير قليل من حاشيتهم البشرية، وغني عن القول، إنه إثر هذا الاكتشاف المذهل، بدأ الباحثون في الكتابة السومرية، ولاسيما علماء السومريات - في نبش الوثائق بحثاً عن نوع أو آخر من البيانات النصية، ولكن من دون طائل، وعلاوة على ذلك، ففي العقدين الماضيين، أصبح عدد كبير من الأساطير السومرية والحكايات الملحمية والتراثيل والمراثي والوثائق التاريخية متيسراً، ويبدو أنه من المعقول أن يأمل المرء أن يلقي نص أو آخر من هذه النصوص الضوء على عادات الدفن السومري ذات الصلة بالأضرحة الملكية، ولكن هذا الأمل لم يتحقق بشكل كامل، ربما لأن الأضرحة الملكية تعود إلى زهاء العام ٢٥٠٠ ق.م، بينما ترجع الوثائق الأدبية المتاحة أمامنا إلى زهاء العام ٢٠٠٠ ق.م.

إن الوثيقة الأدبية السومرية الوحيدة التي تبدو أنها تؤكد الدليل الأرخيولوجي على أن الحكام القدامي كانوا يصطحبون معهم إلى قبورهم حاشية بشرية، هي نص قصير وغير كامل يصف موت جلجامش، ويفيد هذا النص في صيغة شعرية أن جلجامش قد قدم الهدايا والهيئات إلى مختلف أرباب العالم السفلي وإلى الأموات المهمين الذين يقيمون ثمة من أجل كل الذين «استلقوا معه» في «قصره المطهر» في إيريك «أوروك»: زوجته وابنه وسريته وموسقيه ومؤانسه وكبير خدمي وملازمي أهل الدار، وليس مما يجافي المعقول أن نفترض أن الشاعر قد صور هذه الهدايا على أنها مقدمة من جلجامش بعد أن مات هو وأفراد حاشيته ونزلوا إلى العالم السفلي، فإذا تبين أن هذا التفسير صحيح، كان لدينا تأكيد معنوي للنعت متعدد المدافن من الضريح الملكي الذي كشف عنه وولي، وخصوصاً أن جلجامش، كما نعلم الآن، كان معاصراً لدميسانيباداً، ومن ثم ينتسب تقريباً إلى العهد الذي تمثله الأضرحة.

والوثيقة الأخرى التي تلقي ضوءاً ليس بقليل على الممارسات الجنائزية

المتعلقة بالأموات المكبلين، هي نص عن الملك «أورنامو»، ينتمي إلى جنس أدبي لم يكن بالإمكان تصنيفه إلى الآن وربما كان العمود الأول، المفقود تماماً، يشتمل على وصف شعري لمنجزات أورنامو البارزة في الحرب والسلم والأحداث المنحوسة المفضية إلى الموت، ويبدو أن النص المتاح، الذي يبدأ بالعمود الثاني، يتصل بمسألة كيف كان أورنامو «الذي كان متروكاً» في ميدان المعركة مثل وعاء مهروس، مستلقياً على نعشه في قصره، تندبه أسرته وأقاربه وشعب أور. ونجده بعد ذلك في العالم السفلي، كما في حالة جلجامش - يقدم هداياه إلى «الأرباب السبعة»، ويذبح الثيران والخراف للموتي المهمين، ويقدم الأسلحة والحقائب الجلدية والأوعية والأثاث والحلى والجواهر والأمتعة الأخرى إلى «نرغال» و«جلجامش» و«إرشكيغال» «٩» و«دوموزي» و«نمتار» و«هوبيشاغ» و«نينجيشزيدا» - رلي كل منهم في قصره. وقدم كذلك الهدايا إلى «ديمبيميكوغ»، وإلى كاتب العالم السفلي، ثم وصل أورنامو إلى البقعة التي «من المحتمل» أن كهنة العالم السفلي قد عينوها له، وهنا سلم إليه بعض الموتى، ربما ليكونوا أتباعه، وشرح له جلجامش، أخوه المحبوب، ضوابط العالم السفلي وأنظمتها.

ولكن، تتابع قصيدتنا قائلة: «بعد أن انتقضت سبعة أيام أو عشرة أيام»، وصل أسمع أورنامو عويل سومر، إن جدران أور التي تركت غير منتهية وقصره المبني حديثاً والذي ترك غير مطهر، وابنه الذي لم يعد يستطيع أن يدله «٩» على ركبته، إن كل ذلك قد ملأ عينيه بالدموع، فشرع في نواح طويل وممرير. ويبدو أن مصدر صراخه هو أنه على الرغم من أنه قد خدم الآلهة على ما يرام، قد قصرُوا عن أن يقفوا إلى جانبه في وقت الشدة، وهو الآن ميت، وقد أشبعت زوجته وأصدقائه ومؤيدوه بالدموع والعويل وخاتمة التأليف مجهولة إجمالاً ما دام العمود الأخير تألف تماماً.

وكما يمكن أن يبدو مما تقدم، فإنه من العسير تصنيف الجنس الأدبي الذي تنسب إليه القصيدة، يمكن أن تكون نوعاً من التأليف التاريخي، شبيه في

بعض النواحي بدلعنة أغاده، التي ينفس فيها الشاعر السومري عن أحاسيسه حيال حالة الأمور في سومر بعيد موت أورنامو.

وعلى أي حال، فإن وثيقة أورنامو تلقي ضوءاً على حياة الموتى في العالم الأسفل كما يصورها الحكماء السومريون، ومرة أخرى نجد الأرباب الذين يجب استرضائهم وكذلك الكهنة الموتى المهمين وكان للشخص الميت الواصل حديثاً مكان خاص معين له، ويجري تعليمه قوانين العالم السفلي، على الأقل إذا كان ملكاً، ويستطيع الشخص المتوفى، وإن كان ميتاً، وبطريقة غير مفسرة، أن يكون على اتصال عاطفي بالعالم الذي فوق، ويمكن أن يكابد الهوان والنجوى، ويمكن أن يضج من الأرباب الذين لا يمكن التعويل عليهم ولكن خلافاً لقصيصة «موت جلجامش»، لا ذكر لحاشية بشرية تحيط بالملك في العالم السفلي، وبالفعل، توصف الزوجة والأولاد بأنهم يعيشون في العالم العلوي، ولذلك يبدو بعيداً عن المخاطر أن نستنتج أنه في زمن أورنامو على الأقل، لم يعد من المألوف أن يصحب الملك إلى قبره أي فرد من أسرته وأتباعه.

فإذا تحولنا عن الأسرة الملكية إلى الأموات العاديين عرفنا عدداً كبيراً من التفاصيل المجهولة حتي الآن عن العالم السفلي السومري، وذلك من مرثيتين موجودتين على رقيم «متحف بوشكين»، ونقرأ في هذا الرقيم، أول مرة، أن المفكرين السومريين قد اعتقدوا أن الشمس تستمر بعد غروبها في رحلتها عبر العالم السفلي في دليل، محولة ليلة إلى نهار، وأن القمر يمضي «يوم راحته»، أي اليوم الأخير من كل شهر، في العالم السفلي، ونعرف كذلك أنه كانت هناك محاكمة يقوم بها إله الشمس، أوتو، وأن إله القمر نانا «يرسم مصير» الموتى. ووفقاً للرقيم، كان يوجد «أبطال يأكلون الخبز؟» و«سقاء» يروني ظمأ الموتى بالماء الزلال، ونعرف أيضاً، أن أرباب العالم السفلي يمكن الدعاء إليهم لنطق الصلوات على الموتى، وأن الإله الشخصي للمتوفى وإله مدينته يتم استحضارهما لمصلحته. وأن حسن حال أسرة الميت لا تهمل في الصلوات الجنائزية.

والوثيقة السومرية التي توفر المعلومة المفصلة عن العالم السفلي والحياة التي تجري ضمن حدودها، هي قصيدة جلجامش وإنكيديو والعالم السفلي ووفقاً لهذا المؤلف، الذي يصف العالم السفلي بأسلوب تلطيف الكلام بأنه «المسكن الكبير»، كانت توجد في إيريكا فتحة من نوع ما تفضي إلى عالم الموتى، ومن خلالها يمكن أن تسقط الأشياء الخشبية مثل «بوكو» Puku و«الميكو» Mikky وأن توضع فيها يد وقدم، وكان يوجد في المدينة كذلك باب كبير يمكن أن يقعد أمامه المرء وأن ينزل من خلاله الميت - على الأقل إذا كان بطلاً مثل إنكيديو - إلى العالم السفلي، على الرغم من أنه لم تتوضح مسألة كيف يمكن أن يحدث هذا النزول، ولكن كانت ثمة محرمات ينبغي لكل من يريد الهبوط على العالم السفلي أن يحذر من انتهاكها، كما يذكر مؤلف القصيدة: عليه ألا يرتدي الثياب النظيفة، وألا يدهن نفسه بالزيت «الجيد»، وألا يحمل سلاحاً أو مراوة، وألا يلبس خماً، وألا يحدث ضجة أو يتصرف بصورة عادية نحو أفراد أسرته، وإذا خالف أي محرم من تلك المحرمات، أحاط به «القيمون» واكتشفته الظلال التي تقيم في المناطق المنخفضة، وتمسكت به «صيحة العالم السفلي العالية»، وإذا استحوذت على الميت هذه «الصيحة العالية» فمن المحال أن يصعد إلى الأرض من جديد، ما لم يتدخل لمصلحته إله أو آخر من الآلهة، وفي حال إنكيديو، فقد كان إنكي هو الذي جاء لإنقاذه، وجعل أوتو يفتح «أبال» aplal العالم السفلي. فصعد إنكيديو إلى الأرض من جديد، وعلى ما يبدو «بالجسد» لا بوصفه روح ميت، وتبعاً للقصيدة، فقد ثلث ذلك مكالة تقطع القلب حزناً بين جلجامش وإنكيديو الذي يفهم منه أنه وصف حالة الموتى، أو بالأحرى حالة بضعة أصناف مختارة من الموتى.

فإذا تحولنا عن الأموات، العاديين وغير العاديين، إلى الآلهة الخالدين. فسيبدو أن العالم المكان الأخير الذي يبحثون فيه عن وجودهم «الذي لا يفني»، ومع ذلك، نجد عدداً غفيراً من الأرباب هنالك، وبينما أن بعضهم ينتمون إليه، إذا جاز القول، فإن غيرهم كانوا آلهة سماويين حكم عليهم كتاب الأساطير

بالعيش في العالم السفلي نتيجة ترجيم وابتداع لاهوتين، ولكن حتي الآن فإنه لم يتم استرداد إلا القليل من الأساطير ذات الصلة بالموضوع.

لدينا أولاً أسطورة «إنليل ونبليل: ولادة إله القمر»، التي تروي كيف كان إنليل نفسه، أقوى الآلهة السومريين ورئيس المجمع الإلهي السومري، قد أبعده إلى العالم السفلي وتبعته إلى هنالك زوجته نبليل، ولهذه الأسطورة أهميتها كذلك بوصفها المصدر الوحيد للاعتقاد السومري بوجود نهر «سلتهم البشر» يجب أن يعبره الموتى وكذلك نوتي القارب الذي يعبر بالموتى إلى جهتهم المقصودة، وهو اعتقاد شائع في كل أنحاء الشرق الأدنى القديم وعالم البحر المتوسط.

والأسطورة ذات الإبانة الشديدة فيما يتصل بالموت والعالم السفلي هي أسطورة «نزول إينانا إلى العالم السفلي»، التي هي الآن متيسرة في نصها الكامل تقريباً، ووفقاً لهذه القصيدة، فإن العالم السفلي هو المكان الذي ينزل إليه المرء ومنه يصعد ربما عبر فتحة أو باب واقع في إيريك، على الرغم من أن ذلك غير مذكور صراحة في أي موضع، وفي العالم السفلي يوجد مكان يوصف بأنه «جبل لازوردي» يحرس أبوابه المقفلة بوابن تحت إشراف رئيسهم «نيتي»، والعالم السفلي تحكمه ضوابط وأنظمة إلهية، يبدو أن الأهم من بينها هو أن ساكنيها يجب أن يكونوا عراة كلياً، وكانت القاعدة الأخرى، التي كانت مهلكة لدوموزي، هي أنه لا يمكن للمرء الذي يكون ذات مرة في العالم السفلي، ولا حتي للإله، أن يصعد من جديد إلى العالم الأعلى إلا إذا تم تأمين بديل يحل محله، وهكذا، فللتيقن من أن إينانا، التي تم إحيائها من خلال جهود إنكي البارعة، سوف توهز بديلاً مناسباً يحل محلها، فقد رافقتها عفاريت الغالا السبمة حتي سلمتهم دوموزي.

لذلك نجد على العموم أن الصورة السومرية للموت والعالم السفلي كانت غبشاء ومتناقضة بعض الشيء، وكان يعتقد عموماً أن العالم السفلي مكاناً كونياً

ضخماً تحت الأرض يناظر السماء التي هي المكان الكوني فوق الأرض، وقد يكون من المسلم به أن الموتى، أو على الأقل أرواح الموتى، كانوا ينزلون إليه من البر، ولكن يبدو هنالك فتحات أو أبواباً كذلك في كل مراكز المدينة المهمة، وكان يوجد نهر على الموتى أن يجتازوه بقارب عبور، ولكن لا يصرح في الأساطير المتيسرة أين كان بالنسبة إلى الأرض أو إلى العالم السفلي، وكانت إرشيكنال تحكم العالم السفلي هو ونرغال، الذي كان لديه حشم خاص من الآلهة، وفي جملتهم الأنونكي السبعة، وعدد من آلهة السماء منكودي الحطوط، بالإضافة إلى عدد من الموظفين الشبيهين بالشرطة يعرفون باسم الغالات «أو عفاريت الغالا»، ومن الواضح أن جميعهم، باستثناء الغالات، كانوا بحاجة إلى الغذاء والكساء والأسلحة والأوعية من مختلف الأنواع والجواهر وما إلى ذلك، كالألهة الذين في السماء أو الفانين الذين على الأرض، وكان هنالك قصر ذو سبعة أبواب حيث كانت إرشيكنال تعقد المحكمة، وكمن من غير المحقق أين يفترض أن يكون موقعه.

ويبدو أن الموتى كانوا يرتبون في مراتب كالأحياء، وما من ريب أن المقاعد العليا كانت تقرر للموتى الملوك وكبار الموظفين الكهنوتيين الذين تقدم لهم الأضاحي من قبل الموتى المهمين الجدد أمثال جلجامش وأورنامو، ولقد كان في العالم السفلي كل أنواع القواعد والتنظيمات الواجب اتباعها بدقة، وعلى الرغم مما يتشكل لدى المرء من إحساس بأن العالم السفلي مظلم وقابض للصدر، فإن ذلك ليس صحيحاً إلا في النهار، ففي الليل كانت الشمس تخلع عليه الضياء، وفي اليوم الثامن والعشرين كان القمر يهبط إلى العالم السفلي، ولم يكن الأموات متساويين في المعاملة، فكان ثمة حكم في الأموات يصدره إله الشمس، أوتو، وإلى حد ما إله القمر نانا، وإذا كان الحكم محبذاً، فمن المرجح أن تعيش روح الميت في سعادة ورضاً وأن تملك كل ما ترومه، ومهما يكن، فالدلائل هي أن السومريين لم تكن لديهم إلا ثقة ضعيفة بآمال الحياة الهنيئة في العالم

السفلي، حتي بالنسبة إلي الخير والاستحقاق، وعلي المموم كان السومريون مقتنعين أن الحياة في العالم السفلي لم تكن سوى انعكاس موحش وكئيبي للحياة على الأرض.

ومع أن الوفاء الخاص والورع الشخصي لم يكونا عديمي الأهمية، فهسبب رؤية السومريين للعالم، كانت الطقوس والشعائر هي التي أدت الدور المهيمن في دينهم، وبما أن الإنسان لم يخلق إلا بقصد خدمة الآلهة، فمن الواضح أن أهم واجب عليه هو تادية هذه الخدمة وإتقانها بطريقة تروق لمخدوميه وترضيهم، لماذا أنقد زيوسودرا من هلاك الطوفان؟ لأنه كان يؤدي الطقوس اليومية للآلهة بخشوع وتقوي، ولم يكل حكام سومر من تكرار أنهم كانوا يؤدون واجبات عبادتهم بحسب القواعد والأنظمة المسنونة.

ولارب أن المعبد كان مركز العبادة، وكان أحد أوائل المعابد قد تم الكشف عنه في إريدو، المدينة التي كانت إنكي الإله المختص بحمايتها، على الأقل في الأيام المتأخرة، وعلى الرغم من أنه كان مقدساً ذا شكل بسيط تبلغ مساحته زهاء إثني عشر قدماً في خمسة عشر قدماً، فقد اشتمل منذ البداية على ملمحين ميزا المعبد السومري طوال آلاف السنين: محراب لشعار الإله أو تمثاله، وأمامه منضدة للتقدمة مصنوعة من الأجر الطيني، وهي أشياء إعادة البناء اللاحقة، توسع مقدس إريدو هذا وأدخل عليه التحسين، ثم صارت له صالة في الوسط يحيط بها عدد من الغرف الرافدة، ووضع المذبح، الذي تواجهه منضدة القرابين، مقابل أحد الجدران القصيرة وزينت جدران المعبد الآخرة - الطينية الباهتة بالدعائم والتجاويف الموضوعة بانتظام ورفع البناء كله على مصطبة موصولة بمجموعة من الأدراج تقضي إلى مدخله في الجانب الطويل من البناء.

وإلى أبعد من ذلك شمالاً في إيريك «أو أوروك» يوجد معبد من المحتمل أنه مكرس للإله «آن» ويعود تاريخه إلى زهاء العالم «٣٠٠٠ ق.م»، وهو مبني

عموماً على منوال معبد إريدو، باستثناء أن المصطبة قد استبدلت بها رابية مصطنعة ترتفع زهاء أربعين قدماً فوق الأرض المستوية، وكان الدرج المبني قبالة واجهتها الشمالية يفضي إلى النروة، حيث ينتصب مزار صغير مطلي ببياض الكلس، وقد تم استخراج معبط مماثل في العقير؛ وبرغم أن المصطبة التي بني فوقها لم يكن ارتفاعها سوى خمسة عشر قدماً، فقد ارتفعت على مستويين ومن ثم يمكن أن تعد الطراز الأولي للبرج لهرمي «الزقورة»، وهو البرج ذو المستويات الذي أصبح العلامة الفارقة لفن عمارة المعابد في بلاد ما بين النهرين، والذي كان يقصد منه أن يؤدي دور الصلة الواصلة، حقيقياً ورمزياً على السواء، بين الآلهة في السماء والفنانين على الأرض، ومعبد العقير جدير بالالتفات كذلك من أجل ابتكار معماري آخر، ابتكار يبدو أنه قد تم اتباعه في المعابد السومرية الأخرى: هو الزخرفة الداخلية المطلية بالألوان وكان الترتيب كما يلي: يأتي أولاً شريط من لون بسيط، هو العادة ظل للأحمر، يدور حول الجدران بارتفاع يزيد على ثلاثة أقدام وفوق ذلك شريط ملون من زينة هندسية يزيد ارتفاعه على القدم والأجزاء العلوية للجدران مزودة بمشاهد من أشكال بشرية وحيوانية مرسومة على بقعة خالصة البياض.

وكان الابتكار المعماري الآخر قد تم ابتداعه في إيريك عندما أظهر بناء معبد إيانا طريقة فريدة في زخرفة الجدران والأعمدة الآجرية - الطينية ذات المظهر الكثيب، وذلك بتغطيتها بعدد لا يحصى من المخروطات الفخارية التي غمست بألوان مختلفة فكانت ذراها إما حمراء وسوداء، وأما برتقالية، وكانت هذه المخروطات الملونة مدخلة جنباً إلى جنب في جص طيني تخين بطريقة شكلت مثلثات وعراجين ومعينات مبرقشة الألوان وغير ذلك من التصاميم الهندسية.

واستمرت المعابد في متابعة الأنموذج العام نفسه طوال الألف الثالث قبل الميلاد، برغم أنها جنحت لأن تغزو أكبر وأشد تعقيداً، وأصبحت الصالة

لأمامية ملمحاً ثابتاً، أما مرتسم البناء فذو شكل بيضوي أو مستطيل، وأدخلت مادة بناء جديدة وهي على ما يبدو ليست ملائمة جداً هي الآجر المسطح المحدث، المسطح في أحد الجانبين والمنحني في الجانب الآخر، وفي العادة كانت الأساسات تبني أنثذ من كتل خشنة من الأحجار الجيرية.

وفي زمن سلالة «أور» الثالثة، أصبحت المعابد في المدن الكبرى عبارة عن مجمعات واسعة وهكذا كان معبد «نانا» في مدينة أور، المسمى إكيشوغال، يتألف من ساحة محوطة تبلغ مساحتها ٤٠٠ × ٢٠٠ ياردة تشتمل على برج هرمي «زقورة» وعلى عدد كبير من المزارات، والمخازن الغذائية، مخازن المتاد الحربي، والباحات، ومسكن موظفي المعبد، وكان البرج الهرمي، أو الزقورة، وهو الملمح البارز، برجاً ذا قاعدة مستطيلة يبلغ طولها زهاء «٢٠٠» قدم وعرضها «١٥٠» قدماً، وكان ارتفاعه الأصلي زهاء «٧٠» قدماً، وكان في كليته كتلة متينة مصنوعة من الآجر مغطاة بطبقة من الآجر الطيني الخام وطبقة خارجية من الآجر المحروق الملبصق بالقار، وكان يرتفع على ثلاث مستويات غير منتظمة يتم الانتقال بينها بثلاثة أدراج، ويتكون كل درج من مئة درجة ومن المحتمل أن يتعلّى ذروته مقدس بني كلياً من الآجر المطلي بالأزرق وكان البرج الهرمي ينتصب على مصطبة مستوية ومرتفعة يحيط بها جدار مزدوج عند حافة هذه المصطبة هنالك معبد إله القمر، نانا، مع ساحة خارجية تحيط بها حجرات المخزن المتعددة ومكاتب وليس بعيداً عنه كان يوجد معبد آخر مكرس لـ«نانا» وزوجته، «نينغال»، ثم معبد معروف بالـ«دويلال»، كان يستخدم كدار للقضاء، وأخيراً معبد نينغال، والمعروف بالـ«جباركو».

كانت عملية بناء المعبد وإعادة بنائه تصحبها طقوس كثيرة وشعائر مختلفة. كما توضح ذلك القصيدة السردية الطويلة ذات التراتيل المكتوبة على أسطوانتين تم الكشف عنهما في لاغاش، وهي تحتوي على ٥٤ عموداً، ومن المحتمل أن هذه الوثيقة، وهي من الوجهة العملية العمل الأدبي الوحيد المحفوظ في هذا العهد.

قد ألفها أحد شعراء معبد إنينو في لاغاش تكريماً لذكري إشادة غوديا الورع لذلك المعبد، وأسلوبه الأدبي متعظم ومتفهيق ومطنب، ويبدو أن الصور التي يرسمها للطقوس والشعائر التي تصاحب بناء إنينو تتضمن الخيال أكثر من الواقع، ومع ذلك، فهذه القصيدة شديدة الأهمية ومفيدة بالمعلومات، كما سيظهر الموجز التالي لمحتوياتها.

إذا استمعنا إلى سرد للقصيدة نجد أنها قد بدأت كلها بعد أن تقررت المصائر وبوركت مدينة «لاغاش» بواقر فيضان دجلة وحدث بعد ذلك أن نينجيرسو، إله مدينة لاغاش المختص بحمايتها، قد قرر أن يجعل غوديا يني له معبده إنينو بطريقة بديعة فظهر لغوديا في حلم يبدو وكأنه ابتداء خالص لفرض معين من الشاعر، مع أنه يسرد الأحداث كأنها حدثت فعلاً.

رأي غوديا في الحلم إنساناً ذا قامة هائلة الحجم وعلى رأسه تاج إلهي، وله جناحاً طير ذا رأس أسد، والجزء السفلي من جسمه «موجة طوفان»، والأسود مزمجرة عن يمينه وعن شماله وأمر الإنسان الضخم غوديا ببناء معبده، ولكنه لم يستطع أن يفهم معني كلماته وأنبج النهار - في الحلم - وإذا امرأة تظهر ممسكة بمرقم ذهبي تتفحص لوحاً من الصلصال صورت عليه السماء ذات النجوم ثم ظهر «بطل» يمسك بلوح من اللازورد رسم عليه مخطط دار، وكان يضع كذلك أحجار الآجر في قالب الآجر الذي انتصب أمام غوديا مع سلة نقل وفي الوقت ذاته كان حمار يضرب بحوافره الأرض بنفاد صبر.

وبما أن معني الحلم لم يكن واضحاً لغوديا، قرر استشارة الإلهة نانشه، التي كانت تؤول الأحلام للآلهة بيد أن نانشه كانت تعيش في منطقة من مناطق لاغاش تدعي نينا وكان أفضل سبيل إلى بلوغها هو اجتياز التربة، ولذلك رجل إليها غوديا بقارب، جازماً أن يتوقف عند عدة مزارات مهمة ليقدّم لآلهتها الأضحيات والصلوات لينال دعمهم وأخيراً وصل القارب إلى رصيف ميناء نينا، وذهب غوديا مرفوع الرأس إلى ساحة المعبد، حيث قدم أضحياته، وصب قربانين

الخمر والزيت، وأدى الصلوات، ثم روي لها حلمه وفسرته له نقطة نقطة، هكذا: إن الرجل ذا القامة الضخمة الذي يعلو رأسه تاج إلهي، والذي له جناحاً طائر برأس أسد، والجزء الأسفل من جسمه موجة طوفان يعني أخاها نينجيرسو، الذي أمره ببناء معبد إنينو، وأنبلج النهار فوق الأفق يعني نينجيرسو، إله غوديا الشخصي، الذي يرتفع مثل الشمس، والمرأة التي تمسك بمرقم ذهبي وتتفحص لوحاً من الصلصال صورت عليه السماء المزانة بالنجوم يعني نيداباً «إلهة الكتابة والرعاية لك إدوبا» Edubba التي ترشدك في بناء الدار وفقاً لـ «النجوم المقدسة» والبطل الذي يمسك بلوح من اللازورد - يعني «المهندس المعماري» الإله نيندوب الذي يرسم مخطط المعبد، وعربة النقل وقالب الآحر الذي وضع فيه «أجر القدر» إنهما علامة على أحجار الأجر لمعبد إنينو والحمار الذي يضرب بحوافره الأرض بنفاد صبر، إنه من دون شك، يعني غوديا نفسه، الذي هو فاقده الصبر على تنفيذ مهمته.

ثم شرعت نانشه تتصح غوديا بإنشاء مركبة حربية جديدة وجميلة الزخرفة لنينجيرسو، وتقديماً إليها مع فدان من ذكور الحمير ورسم رمزي للإله وأسلحة، مصحوبة بقرع الطبول، وتم ذلك وفي حلم آخر، أعطاه نينجيرسو توجيهات إضافية، وبارك لاغاش بالوفرة والفيض، وطمأن غوديا أن شعبه سوف يعمل بمنتهى الكد لبناء الإنينو بكل صنوف الخشب والحجر المجلوبة من مختلف البلاد.

وصحبا غوديا من نومه، وبعد أن قام بالتضحية ورأي فالحها ميموناً، شرع خاشعاً في تنفيذ توجيهات نينجيرسو، وأصدر التعليمات لشعب مدينته، الذي استجاب بحماسة واتحاد، وقام أولاً بتطهير المدينة أخلاقياً ومناقبياً، فلا ينبغي أن توجد شكاوي أو اتهامات أو عقوبات، فعلى الأم ألا تُعنف ابنها، ولا يجوز أن يعلو صوت الطفل على أمه، ويجب ألا يعاقب العبد على ارتكاب الخطأ، ويجب ألا تضرب السيدة عيبتها لعدم الاحترام، وقد أبعد كل القنريين عن المدينة.

وبعد سلسلة أخرى من البشائر وهواتف الوحي والأضحيات والمراسم الاحتفالية والصلوات، شرع بكل جهده في مهمة بناء الإينيو، الذي يصفه الشاعر عندئذ بتفصيل شديد وتكراري، ولسوء الحظ، غامض في جل الأحيان.

والقصيدة المكتوبة على الاسطوانة الأولى تنتهي بإتمام بناء مجمع الإينيو، ثم يتواصل المسرود الترتيلي على الاسطوانة الثانية، بدءاً بصلاة غوديا لآلهة الأنوناكي، يليها إبلاغه نينجيسو وزوجته، باو، أن المعبد قد اكتمل وأصبح جاهزاً للسكني، وبمساعدة عدد من الأرباب، نظف غوديا المعبد وأعد كل الطعام وزيت القران وخمره والبخور للاستخدام في مراسم الاحتفال بدخول الآلهة في بيتهن مرة أخرى نظف غودياً المدينة، أخلاقياً ومناقبياً وبعدئذ شرع غوديا في تعيين مجموعة كاملة من الآلهة للعناية بحاجات المعبد: حارس الباب، ورئيس خدم، وصانعو دروع، ورسول، وحاجب، وسائق عربة، وراع للماعز، وموسيقيون، وناظر حبوب، وناظر أماكن صيد السمك، وحافظ حيوانات الصيد وطيوره، ووكيل اراض، وهذه التعينات موصوفة بأسلوب يذكر بوصف تعيين إنكي لمختلف الأرباب المشرفين في أسطورة «إنكي والنظام العالمي» وبعد أن اتحد نينجيسو وباو في النعيم الزوجي، تلت ذلك سبعة أيام من الاحتفال توجتها وليمة لكبار الآلهة آن وإنليل ونيנماه، وبعد مباركة نينجيسو، تختتم القصيدة بأنشودة حمد للأنينو وإلهة نينجيسو.

فإذا تحولنا عن هذه الصورة المثالية للمعبد والعبادة فيه، إلى الطقوس والشعائر الفعلية اليومية، فقد نسلم بأنه كانت تقدم في معبد كل مدينة رئيسة أضحيات يومية، تتألف من الأغذية الحيوانية والنباتية، وصب الماء والخمرة والجمعة، وإحراق البخور، وما من ريب أن المراسم الاحتفالية كانت أروع وأبهج بكثير في الأعياد والأيام الدينية، كانت توجد مهرجانات كثيرة على مدار السنة، إذا حكمنا من أسماء شهور أمثال «شهر أكل شعير نينجيسو»، و«شهر أكل الغزلان»، و«شهر عيد شولفي»، وكانت بعض هذه الأعياد تدوم عدة أيام ويحتفل

فيها بالأضحيات والمواكب وكانت توجد إلى ذلك أعياد شهرية منظمة في يوم الهلال الجديد وكذلك في اليوم السابع والرابع عشر واليوم الأخير من كل شهر.

وكان عيد «العام الجديد» أهم الأعياد قاطبة، ومن المحتمل أن يحتفل به في عدة أيام بالولائم والمراسم الخاصة وكان أهم طقوس من طقوس «العام الجديد» هو الزواج المقدس بين الملك الذي يمثل الإله دوموزي، وإحدى الكاهنات، التي تمثل الإلهة إينانا، لضمان الفلاح وقابلية التماسل في سومر وشعبها بصورة ناجحة، ومن غير المحقق تماماً كيف بدأ ذلك في الأصل ومتي، على الرغم من أنه يمكننا إعادة تشكيل الأحداث كما يلي:

في زمن مبكر من الألف الثالث ق.م، كان دوموزي حاكماً بارزاً لمدينة - الدولة السومرية «إيريك»، وقد خلعت حياته وأفعاله تأثيراً عميقاً في جيله والأجيال اللاحقة، وكانت ربة إيريك المختصة بحمايتها هي إينانا، وهي إلهة عدت في كل التاريخ السومري الإلهة المسؤولة في المقام الأول عن الحب الجنسي، والخصب، والإنسال، وأصبح اسماً دوموزي وإينانا من دوب ريب متضافرين بإحكام في أساطير إيريك الباكورة وطقوسها، ولكن قبيل منتصف الألف الثالث، عندما أصبح السومريون أصحاب عقلية وطنية متزايدة وكان اللاهوتيون ينظمون ويصنفون المجتمع الإلهي طبقاً لذلك، نشأت فكرة معقولة في الظاهر ولا تخلو من جاذبية وهي أن ملك سومر، مهما كان ومهما كانت المدينة التي نشأ منه، يجب أن يقدو زوج إلهة الحب مانحة الحياة، أي إينانا التي من إيريك، إذا كان من شأنه أن يضمن التكاثر والرخاء في البلد وشعبه، وبعد أن أصبحت الفكرة الأولية عقيدة جارفة مقبولة، تم تنفيذ الفكرة في ممارسة طقسية بإتمام الاحتفال بالزواج، الذي من المحتمل أن يكون قد تكرر في كل سنة جديدة، بين الملك وكاهنة يتم اختيارها بصورة خاصة من معبد إينانا في إيريك، ولكن لإضفاء الأهمية والمنزلة على العقيدة والطقس على السواء، كان من المستحسن اقتفاء أثرهما في الأزمان الباكورة، حيث أعطي

لدوموزي شرف أن يكون الحاكم الفاني الأول الذي أصبح زوجاً لإينانا، معبودة إيريك المبجلة، وأصبح دوموزي ملك إيريك عبر القرون شخصية لا تنسي في اسير البطولية والمأثورات السومرية.

أما بخصوص الكهنة الذين يتولون شؤون العبادة، فإننا نعرف القليل عنهم خلا أسماء وظائفهم وكان الرئيس الإداري للمعبد هو «السفغة» Sanga، ولا ريب أن واجباتهم كانت المحافظة على مباني المعبد وموارده المالية في حالة جيدة والتيقن من أن موظفي المعبد يؤدون واجباتهم بصورة فعالة، وكان الرئيس الروحي للمعبد هو الـ «إن» En، الذي يمشي في جزء من المعبد يمرر بالـ «جيبار»، ويبدو أن الـ «إن» يمكن أن يكون من النساء أو من الرجال، وهذا يتوقف على جنس المعبود الذي يكرس له خدماته، وهكذا ففي المعبد الرئيسي في إيريك، الـ «إينانا»، الذي أصبحت فيه الإلهة إينانا المعبودة الرئيسة، كان الـ «إن» رجلاً، وكان البطلان إنميركار وجلجامش قد شغل كل منهما أصلاً منصب «إن»، برغم أنهما كانا إلى ذلك ملوكاً وقواداً عسكريين عظاماً بالتاكيد، وفي معبد إكيشنوغال في «أور»، الذي كان معبوده الرئيس هو إله القمر، شغلت منصب الـ «إن» امرأة وهي في العادة ابنة عاهل سومر الذي يتولي السلطة فيها، «لدينا بالفعل أسماء كل الذين شغلوا منصب الـ «إن» تقريباً، في إكيشنوغال منذ أيام سرغون الكبير».

في المرتبة الثانية من الـ «إن»، هنالك عدد من الفئات الكهنوتية، ومن ضمنها «غودا» و«ماه» و«إيشيب» و«غالا» و«نيندينجير»، التي لا نعرف عن شغلها إلا اليسير باستثناء أن الـ «إيشيب» ربما كان مسؤولاً عن إراقة ماء التقدّمات والتطهير، وأن الـ «غالا» ربما كان نوعاً من مفني المعبد أو شاعره، وكانت توجد كذلك جوقة من المغنيين والموسيقيين وكذلك - لاسيما في المعابد المكرسة لإينانا - أعداد كبيرة من الخصيان والعاهرات المقدسات، وبالإضافة إلى الذين ارتبطوا على نحو أو آخر بالخدمات الدينية، كان المعبد يشتمل على العاملين في المعبد ومن صمّتهم الكثيرون من الموظفين غير الكهنوتيين، والعمال، والعبيد الذين

كانوا يساعدون علي تسيير مشاريعه الزراعية والاقتصادية المختلفة، كما توضح الوثائق الإدارية التي لا تحصى والتي تم الكشف عنها في المعابد السومرية القديمة.

وكان دمار معبد سومري هو الفاجعة الأشد التي يمكن أن تقع للمدينة وشعبها، كما تكشف التفجيعات والمراثي المريرة التي يؤلفها شعراء المعبد ورجازه المكروبون، وللاستشهاد بمثال واحد فقط، نقدم الآن مقطوعة شعرية من «مرثية دمار أور» ترسم صورة الخراب الكلي الذي جري له أور، وممبدها، «الإكيشنوغال»، بعد أن هاجمها العيلاميون وهضوا على «إبي - سين»، الحاكم الأخير من سلالة «أور» الثالثة:

أيها المليكة، كيف حفزك قلبك، كيف تقوين على البقاء حية !

أيما نينغال، كيف حفزك قلبك، كيف تقوين على البقاء حية !

أيها العادلة التي تقوضت مدينتها، كيف تقوين على الوجود !

أيما نينغال، التي باد بلدها، كيف طاوعك قلبك !

بعد أن تدمرت مدينتك، كيف تستطعين الحياة الآن !

بعد أن تقوض بيتك، كيف طاوعك قلبك !

باتت مدينتك غريبة، كيف تستطعين الحياة الآن،

أمسي بيتك بيت الدموع، كيف طاورك قلبك

مدينتك التي صارت خرائب - لم تعودي سيدتها،

منزلك الصالح الذي سلم إلى العول

لم تعودي تسكنين فيه .

ضميك الذي سيق إلى المذبحة - لم تعودي ملكته

باتت دمرعك دمرعاً غريبة، ولذلك لا يذرف الدموع،

إنه من دون «دموع الابتهاال» يسكن في بلاد أجنبية،

صارت مدينتك خرائب، كيف تقوين على الوجود!  
 انكشف منزلك، كيف طارحك قلبك!  
 أور، المزار، قد سلمت إلى الريح، كيف تستطيعين الحياة الآن!  
 لم يعد كاهنها الغودا يسور في حالة حسنة، كيف طارحك قلبك!  
 والدإن، لا يسكن في الجيبار، كيف تقوين على الوجود!  
 وكاهن الإيشيب الذي يرعى أعمال التطهير لا يقوم بذلك من أجلك،  
 والأب، نانا، إيشيبك لما يستكمل الأوعية المقدسة من أجلك،  
 وكاهن الماء، في «الجيفونا» المقدسة لا يرتدى الكتان.  
 والدإن، الصالح التابع لك والمنتخب، في الإكشينوفال،  
 لا يسير فرحاً من المزار إلى الجيبار،  
 وفي «الآهوه»، دار أعيادك، لا يحتفلون بالأعياد،  
 ولم يعزفوا من أجلك على الدأوب، والدآلاء.  
 موسيقى الدتيجي، التي تجلب السرور إلى القلب  
 ولا يستعم من أجل عيدك الناس أصحاب الرؤوس السود،  
 حكم عليهم أن يكونوا مثل وسخ الكتان، تبدل مظهرهم.  
 واستحالت أغنيتك نحيباً...،  
 واستحالت موسيقاك التيجي ندباً.  
 ولم يعد الثور يورب في حظيرته، ولم يعد دسمه معداً لك،  
 وخرافك لا تمكث في زربيتها، ولبنها لا يُقدم إليك،  
 ومن تعود أن يجلب لك الدسم لم يعد يجلبه لك من معلق الماشية،

ومن تعود أن يجلب لك اللبن لم يعد يجلبه لك من زريبة الغنم...  
 والصيد الذي تعود أن يجلب لك السمك . يلم به الحظ العاثر ،  
 والقناصون الذين تعودوا أن يجلبوا لك الطيور أماتهم . تكادين لا تستطعين أن تعيش ،  
 والنهر الذي تم جعله صالحاً لزوراق الماغور ، في وسطه ... يسمو النبات .  
 وفي دربك الذي أعد للمراكب الحربية ، ينمو شوك الجبل .  
 يا مليكتي ، مدينتك تبكي أمامك بوصفك أمها ،  
 أور ، مثل طفل شارع مدمر ، تبحث عنك ،  
 المنزل ، مثل إنسان فقد كل شيء ، يمد يديه إليك ،  
 منزلك الصالح المصنوع من الآجر ، مثل إنسان يبكي لك « أين أصلي ؟ »  
 يا مليكتي ، لقد رحلت عن المنزل ، رحلت عن المدينة .  
 أتوسل إليك ، كم سيطول وقوفك جانباً في المدينة مثل عدو ؟  
 أيتها الأم نينغال ، كم سيطول ، قدفك المدينة بالتحديات مثل عدو ؟  
 على الرغم من أنك ملكة تحبها مدينتها ، فمن مدينتك .. تخلت ،  
 « ومع » أنك ملكة بحبها شعبها ، فمن شعبك .. تخلت .  
 أيتها الأم نينغال ، مثل الثور بالنسبة إلى حظيرتك ، مثل الغنمة بالنسبة إلى زربيتك !  
 كالثور بالنسبة إلى حظيرة أيامك السالمة ، كالغنمة بالنسبة إلى زربيتك !  
 وكطفل صغير بالنسبة إلى حجرتك ، أيتها العدراء ، بالنسبة إلى دارك !  
 فلينطق « أنه ملك الآلهة ، قولك « هذا يكفى » .  
 وليرسم « إنليل » ، ملك البلاد ، مصيرك « الميمون » .  
 وليعد المدينة إلى مكانها من أجلك ، فتمارس ملكيتها  
 وليعد أور إلى مكانها من أجلك ؛ تمارس ملكيتها

ومن المهم أن نلاحظ قبل كل شيء، ونحن نتحول الآن إلى الأسطوريات السومرية، أن للأساطير السومرية صلة بيسيرة، إذا كانت لها أي صلة، بالطقوس والشعائر على الرغم من أن الشعائر قد أدت دوراً بالغ الأهمية في الممارسة الدينية السومرية، وعموماً فإن كل الأساطير السومرية الباقية أدبية بطبيعتها ومتعلقة بتعليل الظواهر، وهي ليست «طقساً منطوقاً» كما تصنف الأسطورة خطأ في كثير من الأحيان، وليست إلحاقات بالأعمال الطقسية عبّر عنها بالكلام، وهي أساساً تدور حول خلق الكون وتنظيمه، ومولد الآلهة، وعواطف المحبة والبغضاء لديهم؛ وغلهم ومكائدهم، وبركاتهم ولعناتهم، وأعمالهم في الخلق واتدمير وفيها القليل جداً من الصراع على السلطة بين الآلهة، وحتى عندما يحدث ذلك، فلا يصور على أنه نزاع مرير وحقود ودام.

وبالحديث الفكري تتكشف الأساطير السومرية عن مقارنة ناضجة ومحنكة بعض الشيء في أمور الآلهة ونشاطاتهم الإلهية، ويمكن أن نتبين وراءها تأملاً كونياً ولاهوتياً ليس بالقليل على أن كُتِبَ الأساطير السومريين كانوا على العموم الورثة المباشرين للمفسين والرجالين الأميين من أقدم الأزمان، وكان هدفهم الأول هو تأليف لقصائد القصصية عن الآلهة التي من شأنها أن تكون جذابة وملهمة ومسلية، ولم تكن أهم وسائلهم الأدبية المنطق والعقل بل الخيال والأخيلة فلم يترددوا في سرد قصصهم أن يبتدعوا الأغراض والأحداث التي لا يمكن أن يكون لها أساس في الفكر العقلي أو التأملي، ولم يترددوا في تبني أغراض السير البطولية والمأثورات القومية التي لا صلة لها بالبحث والتفكير الكوني.

وإلى الآن، لم يصلنا من الأساطير السومرية ما يعالج مسألة خلق الكون معالجة مباشرة وصريحة، وقد استدل على القليل المعروف عن أفكار التشوء الكوني من الأقوال المبعثرة في الوثائق الأدبية، ولكن لدينا عدد من الأساطير المتعلقة بنظام الكون وعملياته الثقافية، وخلق الإنسان وتأسيس الحضارة،

والأبطال الرئيسون المشملون في هذه الأساطير قليلو العدد نسبياً: إله الهواء إنليل، وإله إنكى والإلهة الأم نينهورساغ التى عرف كذلك بـ«نينتو» و«نينماء»، وإله الريح الجنوبية، نينورتا، وإله القمر، نانا - سين، وإله البنو، مارتو، والأكثر تكراراً، الإلهة إينانا، خصوصاً فى ارتباطها بزوجها لمنحوس «دوموزى».

كان إنليل، كما قد لاحظنا سابقاً فى هذا الفصل، أهم إله فى البانثيون السومرى، وهو «أبو الآلهة» وإله السماء والأرض» و«ملك كل البلاد»، وتبعاً لأسطورة «إنليل وخلق الممول» كان الإله الذى فصل السماء عن الأرض، وأنشأ «بزر الأرض»، من التراب، وأنتج «كل ما هو مطلوب»، وسوى الممول للأغراض الزراعية والنباتية، وقدمه إلى الرؤوس السود، أى إلى السومريين، أو حتى إلى البشرية جمعاء، ووفقاً لحوارية «الصيف والشتاء»، كان إنليل الإله الذى أنشأ الأشجار والحبوب، وأنتج الوفرة والازدهار فى «البلد»، وعين «الشتاء»، وهو «مزارع الآلهة»، المسؤول عن المياه منتجة الحياة وعن كل ما ينمو وكان الأرباب - حتى الأهم بينهم - تواقين جميعاً إلى بركته وتروى إحدى الأساطير كيف أن إله الماء، إنكى، بعد بنائه «منزله البحرى» فى إريدو، قد سافر إلى معبد إنليل فى نيبور لى ينال استحسانه ومباركته، وعندما أراد إله القمر، نانا - سين، الإله المختص بحماية أور، أن يتيقن من حسن رخاء وازدهار حال مملكته سافر إلى نيبور على زورق محمل بالهدايا فقال بذلك بركة إنليل الكريمة.

وعلى الرغم من أن إنليل كان رئيس المجمع الإلهي، فإن لم تكن سلطاته مطلقة وغير محدودة البنة، وتهتم إحدى أكثر الأساطير السومرية إنسانية ورقة بإقصاء إنليل إلى العالم السفلي نتيجة الأحداث التالية:

عندما كان الإنسان لم يخلق بعد وكانت مدينة نيبور لا يسكنها إلا الآلهة، كان «فتاها» الإله إنليل، وكانت «عذراؤها» الإلهة نينليل، وكانت «امراتها العجوز» أم نينليل، نونبار شيفونو وفى أحد الأيام، توصى نونبار شيفونو ابنتها بوضوح، وقد هيات عقلها وقلبها لزوج «نينليل، بدإنليل» على النحو التالى:

في النهر الصافي، با امرأة استحمي في النهر الصافي

نينيل، تمشي على امتداد ضفة نهر نيبوردو،

ومتألق العين، السيد، متألق العين،

والجبل العظيم، الأب إنليل، متألق العين سوف يراك،

الراعي.. الذي يقرر الأقدار، متألق العين سوف يراك،

على الفرر يعانقك ويقبلك.

تتبع نينيل تعليمات أمها بابتهاج:

في النهار الصافي، تستحم المرأة، في النهر الصافي،

نينيل تسير على امتداد ضفة نهر نيبوردو،

متألق العين، السيد، متألق العين،

والجبل العظيم، الأب إنليل، متألق العين،

الراعي.. الذي يقرر الأقدار، متألق العين رآها.

يتحدث إليها السيد عن المجاعة وهي تمنع،

يتحدث إليها إنليل عن المجاعة، وهي تمنع،

مهيلي، ضيق جداً، إنه لا يعرف الجماع،

شفتاي صغيرتان جداً، إنهما لا تعرفان التقبيل..

وعلى ذلك يستدعى إنليل وزيره، نوسكو، ويخبره عن رغبته في نينيل الحسنة، فيحضر نوسكو قارباً، ويفتصب إنليل نينيل والقارب يمخر النهر ويجعلها حلياً بإله القمر، سين. بهتال الأرباب لهذا العمل غير الأخلاقي، وعلى الرغم من أنه ملكهم، يقبضون عليه ويبعدونه عن المدينة إلى العالم السفلي،

وأفقرة ذات الصلة الوثيقة بموضوع البحث، وهى إحدى الصفات القليلة التى تلقى ضوءاً غير مباشر على نظام المجمع الإلهي ومنهج عمله، تقول ما يلى:

يتمشى إنليل فى الكيور «مزار نينليل الخاص»

وبينما يتمشى إنليل فى الكيور

فإن الأرباب، الخمسين الكبار، والأرباب السبعة الذين يرسمون المصائر يقبضون على إنليل فى الكيور «قائلين»،

«إنليل»، يا فاسد الأخلاق، أخرج من المدينة،

يا نونامير «لقب لإنليل»، يا فاسد الأخلاق، أخرج من المدينة

وهكذا وفقاً للمصير الذى يرسمه الأرباب، يرحل إنليل فى اتجاه مشوى الأموات «هادس» السومري بيد أن نينليل، وهى الآن حبل بالطفل، ترفض أن تظل متخلفة عن زوجها وتلتحق بإنليل فى رحلته التى أرغم عليها إلى العالم السفلى، ويقلق هذا الأمر إنليل، لأن ابنه سين، المقدر له أصلاً أن يكون مسؤولاً عن أكبر جسم مضىء، وهو القمر، سيكون عليه أن يسكن فى العالم السفلى المظلم المغم بدلاً من السماء، ويبدو أن الإحباط ذلك قد دبر خطة معقدة إلى حد ما، ففى الطريق إلى العالم السفلى من نيبور، يصادف المرء ثلاثة أفراد، هم الأرباب الثانويون، الحارس المسؤول عن أبواب نيبور، و«رجل النهر فى العالم السفلى»، والرجل الذى يعمل على العبارة، «تشارون السومرى»، ويمبر بالموتى إلى هادس، ويتحد إنليل شكل كل فرد من هؤلاء على التوالى ويضجع نينليل التى تحبل بثلاثة من أرباب العالم السفلى بديلاً من أخيهما الأكبر «سين» الذى يصبح بذلك حراً فى الصعود إلى السماء.

وتهتم أحد أكبر الأساطير السومرية تفصيلاً وإبانة، بتتظيم إنكي للكون، وهو إله الماء وإله الحكمة السومرى، وتروى أسطورة أخرى عن إنكي حكاية متشابهة وهى إلى الآن عامضة إلى حد ما، تشتمل على أرض الفردوس ديلمون،

ولمها تماثلة جزئياً مع الهند القديمة وتسير هذه الحبكة لأسطورة «الفردوس» السومرية، المرسومة بإيجاز شديد، والتي تتناول الآلهة لا البشر، كما يلي:

ديلمون أرض «طاهرة» و«نظيفة» و«مشرقة»، «أرض الحياة» التي لا تعرف المرض ولا الموت ولكن ما تشتقر إليه هو الماء العذب الضروري جداً للحياة الحيوانية والنباتية، ولذلك فإن إله الماء السومري العظيم، إنكي، يأمر أوتو، إله الشمس، بأن يملأها بالماء العذب الصاعد من التراب، وهكذا تتحول ديلمون إلى جنة إلهية، خضراء ذات حقول ومروج مثقلة بالثمار.

في فردوس الآلهة هذا توضع ثمانى غراس لتبتتها نينهور ساغ، الإلهة، الأم العظيمة عند السومريين، ولعلها كانت في الأصل «الأرض الأم» ولا تنجح في إيجاد هذه النباتات إلا بعد عملية معقدة تستلزم ثلاثة أجيال من الريات، يحلب جميعاً من إله الماء ويلدن كما تؤكد القصيدة مراراً من دون أدنى ألم أو عناء، ولكن إنكي أراد أن يذوق النباتات الثمانى فيقطف رسوله، الإله ريسمود ذو الوجهين هذه النباتات الثمينة واحدة واحدة ويعطيها لسيده، الذي يشرع في أكل كل نبات منها على التوالي، وعلى إثر ذلك تقضى نينهور ساغ الغاضبة بعنة الموت عليه، ولكن لا تغير رأيها وتلين، نختفي من بين الآلهة.

تأخذ صيحة إنكي في الانهيار، وتمسي ثمانية أعصاء منه سقيمة، ومع انحطاط إنكى بصورة مضطربة يعقد كبار الآلهة في الغبار، ويبدو إنليل، إله الهواء وملك الآلهة السومريين، عاجزاً عن التغلب على الوضع عندما يكلمه أحد الثعالب فيقول الثعلب لإنليل إنه إذا كوفئ كما ينبغي فسوف يعيد نينهور ساغ، ويصدق الثعلب وعده، وينجح بطريقة ما، ولسوء الحظ فإن الفقرة وثيقة الصلة بهذا الموضوع تالفة، هي إعادة الإلهة الأم إلى الآلهة لتشفى إله الماء الذي يشرف على الموت فتعده عند فرجها، وبعد الاستعلام عن الأعضاء الثمانية التي توجعه في جسمه، توجد ثمانى إلهات لشفاء أعضائه الثمانية ويعاد إنكى إلى الحياة واصحة.

وعلى الرغم من أن الأسطورة تعالج فردوساً إلهياً وليس بالأحرى إنسانياً، فإن لها أوجه شبه كثيرة مع قصة الفردوس التوراتية، وفي الحقيقة، ثمة مسوغ للاعتقاد بأن فكرة الفردوس نفسها، جنة الآلهة، قد ابتكرها السومريون، ويتحدد موقع الفردوس السومري، وفقاً لقصيدتنا، في ديلمون، وهي أرض تقع شرقي سومر، وإنه في ديلمون هذه نفسها، عين البابليون فيما بعد، وهم الشعب السامي الذي تغلب على السومريين. «بلد الحياة» عندهم، وهو وطن الخالدين منهم وثمة دليل وجيه على أن الفردوس التوراتي، أيضاً، الموصوف بأنه حنة مزروعة في عدن شرقاً، ومن مياهاها تحرى أنهار العالم الأربعة، ومن ضمنها دجلة والفرات، يمكن أنها كانت متماثلة في الأصل مع ديلمون، أرض الفردوس السومرية.

ومرة أخرى، فإن الفقرة التي تصف في قصيدتنا سقاية إله الشمس لديلمون بالماء العذب لصاعد من التراب، تذكرنا بالفقرة التوراتية: «وكان ضباب يصعد من الأرض، ويروي كل وجه الأرض» (سفر التكوين: ٦: ٢)، وولادة الربيات من دون ألم أو عناء توصح حلمية اللعنة على حواء التي سيكون نصيبها أن تحبل وتلد لأولاد في ألم، وواضح بما يكفي أن أكل إبي من النباتات الثماني واللغة الصادره عليه لسوء فعله هذا، تذكرنا بأكل آدم وحواء من ثمرة شجرة المعرفة واللغات المصوبة عليهما من حراء هذا العمل الآثم.

لكن لعل أكثر نتيجة نسأثر بالاهتمام في هذا التحليل المقارني للقصة السومرية هو التفسير الذي تقدمه لأشد العناصر أريكام في قصة الفردوس التوراتي، وهو النبذة التي تصف تكوين حواء «أم كل حي» من ضلع آدم. فلماذا الضلع؟ لماذا يجد السارد العبري من الأصلح أن يختار ضلعاً من أي عضو آخر في الجسم لصنع المرأة التي يعني اسمها حواء، حسب الفكرة التوراتية تقريباً «أسي تحيى»، إن السبب يعدو واضحاً تماماً إذا افترضنا أن خلفية أدبية سومرية، كتلك الخلفية التي تمثلها قصيدتنا ديلمون، تكمن في أساس حكاية

الفردوس التوراتية، لأن أحد الأعضاء المريضة في قصيدتنا السومرية هو الضلع، وفي هذه الحالة فإن الكلمة السومرية الدالة على «الضلع هي تي»، ولذلك فإن الإلهة التي خلقت لشفاء ضلع إنكي تدعى بالسومرية «نين - تي» «سيدة الضلع»، ولكن الكلمة «تي» تعنى كذلك وتحيى، وعلى ذلك ففى الأدب السومرى صارت «سيدة الضلع» منماثلة مع السيدة التي تحيى من خلال ما يمكن أن يدعى تلاعباً فى الأنفاذ وقد كان هذا التلاعب اللفظى، وهو من أقدم الجناسات الأدبية، هو الذى انتقل إلى قصة الفردوس التوراتية وخلد فيها. على الرغم من أنه يفقد فيها، ولا ريب، مشروعيتها، مادامت الكلمتان العبريتان الدالتان على «الضلع» و«تحيى» لا تشتركان فى اللفظ.

وهناك أسطورة أخرى عن إنكى ونينهورساغ معنية بخلق الإنسان من الطين الذى هو فوق الغمر، وتبدأ القصة بوصف صعوبات الآلهة فى تحصيل حبزهم، وبخاصة كما يمكن التوقع، بعد أن ظهرت إلى الوجود الربات الإناث ويشتكى الأرباب، ولكن إنكى الذى من الممكن أن يهب لمساعدتهم، مستقل على القرائش يغط فى نوم عميق ولا يستطيع سماعهم، وعليه تقوم أمه، وهى البحر البدئى، والأم التى أنجبت كل الآلهة، بإحضار دموع الآلهة إلى أمام إنكى، قائلة:

يا أبسى، انهض من سريرك، ما هو حكيم وافعل

اصنع خدماً للآلهة دعهم يتكاثرون «؟»

ويولى إنكى الأمر تفكيراً، ويتقدم جمع «الصناع المهرة الأميريين»، ويقول لأمه نامو لبحر البدئى:

يا أمى، إن الخلق الذى نطقت اسمه، يوجد،

شدى عليه صورة «؟» الآلهة،

امزجى قلب الطين الذى هو فوق الغمر

والصناع المهرة الأميريون سوف يكتفون الطين،

وبينما تعملين على تسوية أعضائه،  
نينماه «اسم آخر لنينهورساغ» سوف توجه عملك،  
والهة «الولادة».. ستقف بجانبك  
يا أمى، ارسمى مصيره ومصير المولود الجديد،  
نينماه سوف تشد فرقه قالب «؟» الآلة،  
إنه الإنسان..

ثم تتصرف القصيدة عن خلق الإنسان فى كليته إلى خلق بعض أنماط  
البشر الناقصين فى محاولة واضحة لتفسير وجود هذه الكائنات الشاذة، وتجبر  
عن مادة يرتبها إنكى للآلهة ربما لتكريم ذكرى خلق الإنسان، وفى هذه المأدبة  
يعب إنكى ونينماه الكثير من الخمرة ويغدوان موفورى النشاط، وتأخذ نينماه  
بعض الطين الذى على الفور وتشكل ستة أنواع مختلفة من الأفراد المعوقين، فى  
حين يرسم إنكى مصائرهم ويمنحهم وسيلة لأكل الخبز، وبعد أن خلقت نينماه  
هذه الأنماط من الإنسان، يقرر إنكى أن يخلق نمطه والطريقة التى اشتغل بها  
ليست واضحة، ولكن مهما تكن، فالمخلوق الناجم متخلف، فهو ضعيف وواه  
جسماً وروحاً، وإنكى قلق فى هذه الحالة حيال مساعدة نينماه لهذا المخلوق  
الخائب، ولذا يخاطبها كما يلى:

إن من صنعتهم يدك، قد رسمت مصيرهم،

وأعطيتهم وسيلة لأكل الخبز

فهلأ رسمت مصير من صنعته يدي،

هلا أعطيته وسيلة لأكل الخبز

وتحاول نينماه أن تكون خيرة نحو المخلوق ولكن من دون جدوى تتحدث

إليه، ولكنه لا يجيب تعطيه خبزاً ليأكل لا يمد يده إليه، وهو لا يستطيع أن يقعد ولا أن يقف ولا أن يحنى ركبتيه، وبعد محادثة طويلة ولكنها بعد غير مفهومة بين إنكى ونيئما، تلفظ نيئما لعنة على إنكى بسبب المخلوق المريض الجامد الذى صنعه، لعنة يبدو أن إنكى تقبلها بوصفها ما يستحقه.

وفيما يتصل بـ«نينورتا»، إله الريح الرعدية الجنوبية، توجد أسطورة غرضها دبح التين، إن الحبكة، بعد فقرة ترتيبية موجهة إلى الإله، تبدأ بخطاب يوجهه إلى نينورتا سلاحه الشخص شارور، ولسبب غير معلن عقد شارور عزمه ضد أساغ، شيطان المرض والداء، الذى يقع منزله فى الكور، أو العالم السفلى وفى كلام مفعم بالعبارات التى تشيد بذكر صفات نينورتا وأعماله البطولية. يحفز على مهاجمة الوحش والقضاء عليه، ويخرج نينورتا مسافراً للقيام بما حُفِز إليه، ولكن يبدو أنه فى البداية قد واجه خصماً قوياً، ويفر مثل طائر، ويخاطبه شارور مرة أخرى بكلمات مطمئنة ومشجعة، وفى هذه المرة يهاجم نينورتا أساغ بكل الأسلحة التى تحت تصرفه، ويتم القضاء على الشيطان.

ولكن مع القضاء على الأساغ تلم بسومر طامة خطيرة، فقد ارتفعت من الكور مياه أول الزمان إلى السطح، ونتيجة لعنفها لم تتمكن المياه العذبة من الوصول إلى الحقول والبساتين، وأصيب باليأس آلهة سومر الذين «حملوا معولها وسلتها»، أى الذين عليهم واجب رى سومر وتجهيئتها للفلاحة، ولم يرتفع نهر دجلة، ولم يكن فى مجراه ماء صالح.

كانت المجاعة شديدة، لم ينتج شيء،

وفى الأنهار الصغيرة، لم يكن ثمة غسل الأيدي،،

ولم ترتفع المياه عالياً،

لم تسقى الحقول،

لم يكن هنالك حفر وإفاحة ماء للخنادق،  
وفى كل الأراضى لم يكن هنالك نمو للنبات،  
فلم تنم إلا الأعشاب الضارة  
وعليه ركز السيد فكرة السامى على هذه المسألة  
نينورتا، ابن إنليل، أوجد أشياء عظيمة.

ونصب نينورتا كداسة من الأحجار فوق الكور وكومها عالياً كالجدار أمام  
سومر، واحتجزت هذه الأحجار «المياه القوية»، وفى النتيجة لم تمد مياه الكور  
ترتفع إلى سطح الأرض، أمّا المياه التى كانت تفيض على الأرض، فقد جمعها  
نينورتا وساقها إلى نهر دجلة، الذى صار فى مقدوره آنئذ أن يروى  
الحقول بقيضه.

ما كان قد تفرق، جمعه،  
ما تفرق من الكور،  
وجهه وقذفه فى نهر دجلة،  
ليصب المياه العالية على الحقول.  
انظروا، الآن كل شيء على الأرض،  
مغتبط عن بعد من نينورتا، ملك البلد،  
الحقول أغلت حباً وفيراً،  
وحمل الكرم والبستان ثمارهما،  
والحصاد مكرم فى المخازن والتلال،  
جمل السيد الحداد يخفى عن البلد،  
جمل روح الآلهة سعيدة.

وأمه، نينما، إذ تسمع هُعال ابنها العظيمة والبطولية، تستغرقها الشفقة عليه، وتمسى من الاضطراب إلى حد أن تعجز عن النوم في حجرة نومها، ولذلك تخاطب ابنها عن بعد بالصلاة من أجل السماح لها بزيارته والنظر إليه، وينظر إليها نينورتا بـ«عين الحياة»، قائلاً:

أيتها السيدة، لأنك تودين انجىء، إلى الكور،  
أيا نينما، لأنك من أجلى تودين أن تدحلى الأرض المناوة،  
لأنه ليس لديك خوف من هول المعركة التى تكفى،  
لذلك، فالتل الذى كومتها أنا، البطل،  
ليكن اسمه هو رساغ «الجميل» ولتكوسى ملكته.

ثم يبارك نينورتا الهورساغ الذى يمكن أن يجىء بكل أنواع الأعشاب ولحمر والعسل، وشتى أنواع الأشجار والذهب والفضة والبرونز والأبقار والغنم وكل «المخلوقات من ذوات القوائم الأربع»، وبعد هذه المباركة، يلتفت إلى الأحجار، لا عنأ تلك التى كانت معادية له فى معركته مع الشيطان، أساغ ومباركاً تلك التى كانت صديقة له.

ويدور عدد غير قليل من الأساطير السومرية حول إلهة الحب الطموح والعدوانية والمتطلبة، إنانا - عشطار الأكادية وزوجها الإله - الراعى دوموزى - تموز التورانى. وتودد دوموزى للإلهة مسرود فى صيغتين، وهى الأولى كان يتنازع على رضاها مع الإله - الزراع، إنكىمدو، ولا ينح إلا بعد قدر كبير من الجدل المسبب للخصم الذى يقضى إلى التهديد بالمنفى، وهى الصيغة الأخرى يبدو أن دوموزى يلقي القبول الفورى والمباشر بوصفه عاشق إنانا وزوجها، ولكنه قلما يحلم بأن رواحه بإينانا سوف يؤول إلى الثبور، وأنه سوف ينجر إلى الجحيم فعلياً، وهذه القصة مسرودة فى إحدى الأساطير السومرية المحفوظة على أحسن ما يكون، أسطورة «نزول إنانا إلى العالم السفلى»، التى نُشرت ونُقلت

ثلاث مرات في غضون السنوات، الخمس والعشرين الماضية، وهي على وشك أن تُنقح مرة رابعة بعون من عدة رقم وكسر كانت مجهولة حتى الآن، وإذا أجملنا هذه الأسطورة بإيجاز، فإنها تسرد الحكاية التالية.

بن اينانا، «ملكة السماء»، إلهة الحب والحرب الطموح التي تودد إليها الراعي دوموزي وفاز بها زوجة، تقرر أن تنزل إلى العالم السفلي لكي تجعل نفسها سيدها، وربما من ثم لترفع الموتى. فتنضم القوانين الإلهية الملائمة، وبما أنها زينت نفسها بالحلى والحلى الملكية، فهي متأهبة للدخول في «أرض الالعودة».

وملكة العالم السفلي هي أختها الكبرى وعدونها اللدود، إرشيغال، إلهة الموت والظلام السومرية، واينانا خاتمة من أن تسلمها أختها إلى الموت في عقر دارها. فتعلم وريها نينشوبور الذي هو طوع إشارتها دوماً، أنها إذا أخفقت في العودة بعد ثلاثة أيام، فعليه أن يشرع في ندب لها بجانب الانقراض في قاعة اجتماعات الآلهة. ثم عليه أن يذهب إلى نيبور مدينة إنليل، كبير الآلهة في المجمع الإلهي السومري، ويتوسل إليه ألا يدعها تقتل في العالم السفلي، فإذا رفض إنليل، فعلى نينشوبور أن يذهب إلى أور، مدينة إله القمر، نانا، وأن يكرر توسله وإذا رفض نانا كذلك، فعليه أن يذهب إلى إريدو، مدينة إنكي، إله الحكمة، الذي «يعرف طعام الحياة»، والذي «يعرف ماء الحياة» وسيهب لإنقاذها حتماً.

ثم تنزل اينانا إلى العالم السفلي وتقترب من معبد إرشيغال اللازوردي، وعند الباب يلقاها رئيس حراس الباب، الذي يطلب أن يعرف من هي ولماذا أتت تلفق اينانا عذراً زائفاً لريارتها، ويقودها حارس الباب، بناء على تعليمات سيدها، عبر الأبواب السبعة للعالم السفلي، وعندما تجتاز باباً بعد آخر، تُنزع قطع ثيابها ومجوهراتها قطعة قطعة على الرغم من احتجاجاتها، وأخيراً بعد اجتيازها الباب الأخير يتم إحضارها مجردة وعريانة وجاثية على ركبتيها إلى

أمام إرشكيغال وال«الأنوناكى»، قضاة العالم السفلى السبعة الرهيبين، الذين ثبتوا عليها أنظارهم المسيئة فاستحالت جثة. وغدت بعدئذ مدلاة من وتد.

وتمر ثلاثة أيام وثلاث ليال وإذا يرى نيشوبور، فى اليوم الرابع أن سيدته لم تعد، يبدأ القيام بجولات على الآلهة وفقاً لتوصياتها وكما خمنت اينانا. يرقص إنليل ونانا على السواء تمديم يد العون، ولكن إنكى يدير خطة لإعادتها إلى الحياة. فيصنع الكورعاره وال«كالاتوره»، وهما مخلوقان لا جنس لهما، ويعهد إليهما ب«طعام الحياة»، و«ماء الحياة»، اللذين عليهما أن يمضيا بهما إلى العالم السفلى، حيث تستلقى إرشكيغال، «الأم المولدة» مريضة «بسبب طفليها»، وتظل وهى عارية ومكشوفة تنن، «ويلاه من داخلى» و«ويلاه من خارجى»، وعليهما، الكورغار، وال«كلاتوره»، أن يرددا صيحتهما يتعاطف وأن يضيفا، «من داخلى إلى داخلك»، و«من خارجى إلى خارجك»، ثم سيقدم إليهما ماء الأنهار وحب العقول على سبيل الهدايا. ولكن إنكى يحذرهما بأن عليهما ألا يقبلا الهدايا بل عليهما أن يقولا، «أعطنا الجثة المتدلية من المسمار»، وأن يرشا عليهما «طعام الحياة» و«ماء الحياة»، اللذين عهد بهما إليهما وهكذا يحييان اينانا الميتة، وقام الكورعاره وال«كالاتوره» بما أمرهما به إنكى، وتم إحياء اينانا.

وعلى الرغم من أن اينان قد أصبحت حية من جديد، فإن متاعبها كانت أبعد من أن تنقضى، لأنه كان من القواعد التى لا تُخرق فى العالم السفلى أنه لا يمكن لمن دخل أبوابه أن يعود إلى العالم العلوى ما لم يؤمر بديلاً يحل محله. ولا يمكن أن تكون اينانا استثناءً من هذه القاعدة، فقد سمح لها بالفعل أن تصعد محدداً إلى الأرض، ولكن كان يصحبها عدد من الشياطين عديمى الشفقة، وقد تزودوا بتعليمات تقضى بأن يعيدوها إلى المناطق السطوية إذا أخفقت فى توفير إله آخر يحتل مكانها.

وإذا تحاطب اينانا بهؤلاء الشرطة الفوليين تشرع أولاً فى زيارة المدينتين السومريتين «أوما» و«باد - تيبيرا»، وكان ربا حماية هاتين المدينتين، «شارا»

و«لاتارك» قد أزعجهما منظر القادمين غير الأرضيين، فغفرا نفسيهما بالتراب أمام إينانا تذلاً، وعندما هدد الشياطين بحملهما معهم، ردت الشياطين فأنفذت بذلك حياتهما.

وبمواصلة إينانا والشياطين رحلتهم، يصلون إلى «كولاب» وهي منطقة من مناطق المدينة السومرية «إيريك»، وملك هذه المدينة هو الإله - الراعى، دوموزى الذى بدلاً من أن ينوح على أن زوجته التى نزلت إلى العالم السفلى حيث عانت العذاب والموت، «ارتدى حلة بأذحة، وتريع فوق العرش»، أى أنه كان يحتفل فعلاً بشقائقها. فتتظر إينانا إليه حائقة ب«عين الموت» وتسلمه إلى الشياطين القساة المتلهفين لينقلوه إلى العالم السفلى فيمتقع لون دوموزى ويبكى، ويرفع يديه إلى السماء، ويتوسل إلى إله الشمس. أوتو، الذى هو أخو إينانا ومن ثم فهو ابن حميه ويتضرع دوموزى إليه أن يساعده فى السجاة من الشياطين بتحويل يده إلى يد حية وقدمه إلى قدم حية.

ولكن عند ذلك الحد فى القصة - فى غمرة دعاء دوموزى - تصل الرقم المتاحة إلى النهاية، وكان القارئ قد ترك حتى عهد قريب معلقاً فى وسط الجو، ولكن لدينا الآن النهاية السوداوية:

بن دوموزى، على الرغم من ثلاثة توسطات يقوم بها أوتو، ينقل إلى العالم السفلى ليموت فيه بدلاً من زوجته الحائقة والممرورة، إينانا، ونحن نعلم ذلك من قصيدة كانت مجهولة.

إلى الآن على نطاق واسع وهى بالفعل ليست جزءاً من أسطورة «نزول إينانا إلى العالم السفلى»، ولكنها ذات صلة حميمة بها، وهى إلى ذلك تتحدث عن تحول دوموزى إلى غزال وليس بالأحرى إلى حية، وهذا التأليف الجديد قد وجد مكتوباً على ثمانية وعشرين لوحاً وعلى كسر يعود تاريخها إلى زهاء العام «١٧٥٠ ق.م»، والنص الكامل لم يتم إلا مؤخراً توصيل أجزائه بعضها إلى بعض وترجمتها، على الأقل بصورة مؤقتة، على الرغم من أن بعض القطع قد نشر

قبل عقود .

نبدأ الأسطورة، التي يمكن أن تعنون بـ«موت دوموزي»، بفقرة تمهيدية يهـيئ فيها المؤلف للنبرة السوداوية للحكاية التي سيرويها إن لدى دوموزي، راعي إيريك، سابق إنذار بأن موته وشيك ولذلك يتقدم إلى السهل بعيتين دامعتين وتضع مريـر:

كان قلبه مترعاً بالدموع،

تقدم إلى السهل،

الراعي كان قلبه، مترعاً بالدموع،

تقدم إلى السهل .

دوموزي كان قلبه مترعاً بالدموع،

تقدم إلى السهل

ربط نايه «؟» حول عنقه،

أطلق النواح؛

أطلق النواح، أطلق النواح،

أيها السهل، أطلق النواح،

أيها السهل، أطلق النواح، أطلق العويل «؟»

بين سراطيس السهر، أطلق السواح

بين ضفادع النهر، أطلق السواح

دع أمي تنطق كلمات «النواح»،

أمي، سيرنور، تنطق كلمات «النواح»

دع أمى التى لا تملك «؟» خمس خبزات «؟»

تنطلق كلمات النواح «؟»

دع أمى التى لا تملك «؟» عشر خبزات «؟»

تنطق كلمات «النواح» ،

فى اليوم الذى أموت فيه لن يكون لديها من يعنى «؟» بها ،

على السهل ، مثل أمى ، لتذرف عيناى الدموع «؟» ،

على السهل ، مثل أختى الصغيرة ، لتذرف عيناى الدموع

وتستمر القصيدة. يستلقى دوموزى لينام فيرى حلمًا تشاؤميًا ومنذراً بالشر:

بين البراعم «؟» ، اضطجع ، بين البراعم «؟» ،

الراعى بين البراعم «؟» ، اضطجع ،

وحين اضطجع الراعى بين البراعم «؟» رأى حلمًا ،

نهض كان حلمًا أرتجف «؟» كانت رؤيا ،

فرك عينيه بيديه ، كان منذهلاً .

ودوموزى المتحير يدعو أخته «غشتيننه» ، الشاعرة والمغنية ومفسرة الأحلام

الإلهية إليه ويروى لها رؤياه المنذرة بالسوء:

حلمى ، يا أختى ، حلمى ،

هذا هو لب حلمى

نما القصب من حولى ، تدافع القصب من حولى

إحدى القصبات المنتهية وحدها تحني رأسى لها

إحدى القصبات المنتصبة زوجاً زوجاً، تنتزع إحداها من أجلى،  
 وفي الفيضة الشجراء، تطلع الأشجار الطويلة «٩» مروعة في كل مكان حولي،  
 فوق موقدي المقدس، ينسكب الماء،  
 وعن مخضتي المقدسة، تنتزع قاعدتها «١٠»،  
 والقذح المقدس الذي يتدلى من مسمار التعليق، عن المسمار سقط،  
 ومحجن الراعي الذي لى قد اختفى،  
 ويومئ تمسك ....،  
 وصقر يمسك بمخالبه خروفاً،  
 وماعزى الصغيرة بحر لحاها اللازوردية هي التراب.  
 وقطيع عنمي يضرب الأرض بأطرافه المنحبة،  
 ومخضتي تتمدد «محطمة»، فلا لبن ينصب،  
 وقدحى يتمدد «محطماً» درموزى لن يعيش أكثر،  
 ويسلم قطيع الغنم إلى الريح.  
 وغشتينه، كذلك يشوشها حلم أخيها تشويشاً عميقاً:  
 آه، يا أخى ليس محبذاً حلمك الذي ترويه لى  
 آه، يا أخى ليس محبذاً حلمك الذي ترويه لى  
 القصب ينمو من حولك، القصب يتدافع من حولك  
 «هذا يعنى» سيهب القنلة لهاجمتك  
 إحدى القصبات المنتصبة وحدها تحنى رأسها لك،

«هذا يعنى» أمك التى ولدتك سوف تخفض رأسها من أجلك  
أما القصبات المنتصبة زوجاً زوجاً، تنتزع إحداها، «فإنها تقول» أنا وأنت - واحد  
منا سوف ينتزع.

وتستمر غشتيننه فى تفسير حلم أخيها الكثيب والتشاؤمى، مفردة مفردة،  
منهية تفسيرها بتحذيره من أن شياطين العالم السفلى، الغالات، محدقة به وأن  
عليه الاختباء على القور، ويوافق دوموزى ويتوسل إلى أخته ألا تخبر العالات  
عن مخبئه.

يا صديقتى، سأختبئ بين النباتات،  
لا تخبرى أحداً عن مكان «اختبائي»،  
سأختبئ بين النباتات الصغيرة،  
لا تخبرى أحداً عن مكان «اختبائي»،  
سأختبئ بين النباتات الكبيرة،  
لا تخبرى أحداً عن مكان «اختبائي».  
سأختبئ بين خنادق أوالو،  
لا تخبرى أحداً عن مكان «اختبائي».  
فتجيبه غشتيننه:

إذا أخبرت عن مكان «اختبائك»، فلعل كلابك تفترسنى،  
الكلاب السود، كلاب «رعابتك»،  
الكلاب المتوحشة، كلاب «سيادتك»،  
فلتفترسنى كلابك.

ومكذبا فإن الغالات، المخلوقات غير البشرية التي

لا تأكل طعاماً، ولا تعرف ماءً،

لا تأكل دقيقتاً مذكوراً،

لا تشرب ماء مصبواً على سبيل القربان،

لا تقبل الهدايا التي تسترضى،

لا تروى بلدة صدر الزوجة،

لا تقبل الأطفال، الحلوين...

تأتي العفاريت نائحة عن دوموزي المختبئ ولكنها لا تستطيع العثور عليه وتمسك بغشتيننه وتعتمد إلى رشوتها لإخبارها عن مكان وجود دوموزي، ولكنها تظل صادقة في وعدها، على أن دوموزي يعود إلى المدينة، ربما لأنه لا يخشى أن تقتل الشيطان أخوته، وفيها يقبض لغالات عليه، وبهاحمونه بالضربات والجلدات والمكزات. ويربطون يديه وذراعيه بإحكام، ويصيحون متأهبين لنقله إلى العالم السفلي، وعلى إثر ذلك يلتفت دوموزي بالدعاء إلى إله الشمس أوتو. أخو زوجته إينانا. عله بحوله إلى غزال حتى يتمكن من الفرار من الغالات وينقل روحه إلى مكان معروف باسم «شوبيريلا» «موقعه غير محدد حتى الآن»، أو كما يعبر دوموزي عن ذلك.

أوتو، أنت آخر زوجتي،

أنا زوج أختك،

أنا الذي يحمل الطعام إلى الإريانا «معبدة إينانا»،

إلى إيريك أحصرت هدايا الزواج،

قبلت الشفتين المقدستين «؟»

عانقت «؟» الحظن المقدس، حظن إينانا

حول يدي إلى يدي غزال،

حول قدمي إلى قدمي غزال،

دعني أفلت من الغالات،

دعني أنقل روحي إلى شوبيرلا..

أصاخ إله الشمس السمع إلى دعاء دوموزي، وبكلمات الشاعر:

أخذ أوتو دموعه هدية،

ومثل إنسان الرحمة، أظهر له الرحمة،

حول يديه إلى يدي غزال،

حول قدميه إلى قدمي غزال،

أفلته من الغالات،

نقل روحه إلى شوبيرلا..

ولسوء الحظ، يلحق به الشياطين المطاردون مرة أخرى ويضربونه ويعذبونه كما حدث من قبل، ولذلك يتجه دوموزي في المرة الثانية إلى أوتو بالدعاء أن يحوله إلى غزال، وفي هذه المرة، يرغب في أن ينقل روحه إلى دار الإلهة المعروفة بـ«بيليلي السيدة الحكيمة المعجزة» يستجيب أوتو لدعائه، ويصل دوموزي إلى دار بيليلي، متوسلاً:

أيها السيدة الحكيمة، لست إنساناً، أنا زوج إلهة،

من ماء القربان، دعيني أشرب قليلاً ؟،

من الدقيق المنزور، دعيني أكل قليلاً ؟،.

ولم يكذ يجد الوقت للمشاركة في الطعام والشراب حتى طهر الغالات وضربوه وعذبوه مرة ثالثة، ومن جديد يحوله أوتو إلى غزال، ويفر إلى حظيرة

أخته، غشتيننه، ولكن كل ذلك من دون طائل، فيدخل خمسة من الفالات الحظيرة ويضربون دوموزى على خده بالمسمار والعصا، ويموت دوموزى أو لنستشهد بالأسطر السوداوية التى تختم القصيدة:

يدخل الغالا الأول الحظيرة،

يضرب دوموزى على خده بمسمار «٢» حاد «٢»،

يدخل الثانى الحظيرة،

يضرب دوموزى على خده بمحجن الراعى،

يدخل الثالث الحظيرة،

عن المحضة المقدسة، تنزع القاعدة «٢»،

يدخل الغالا الرابع الحظيرة،

القدح المدلى من مسمار تعليق، يسقط عن مسمار التعليق،

يدخل الغالا الخامس الحظيرة،

تتمدد المحضة المقدسة «مكسورة»، لا لبن ينسكب،

يتمدد القدح «مكسوراً»، دوموزى لن يعيش أكثر،

تسلم الحظيرة إلى الريح.

وهكذا يصل دوموزى إلى نهاية مأسوية، ضحية حب إيانا وبفضها.

عنى أن أساطير إيانا لا تعنى كلها بدوموزى فثمة، مثلاً، أسطورة تروى كيف حصلت الإلهة، من خلال المخاتلة، على الشرائع الإلهية، شرائع «دمى» التى تحكم الحبس البشرى ومؤسساتاته، وهذه الأسطورة ذات أهمية انثروبولوجية كبيرة لأن مؤلمها قد وجد أن من المستحب أن يعطى، فيما يتعلق بالقصة، قائمة كاملة بسرائع «دمى»، وأن يقسم الحضارة كما يصورها إلى أكثر

من مائة سمة ثقافية، ومركب ثقافى تتصل بمؤسسات الإنسان السياسية والدينية والاجتماعية، والفنون والحرف، وبالموسيقى والآلات الموسيقية، والمجموعة الموعة من نماذج السلوك الفكرية والانفعالية والاجتماعية، وإذا جعلنا حبكة هذه الأسطورة الشفافة فإنها تسير كما يلى:

إن إينانا، ملكة السماء الإلهة المختصة بحماية مدينة إيريك، مهتمة بزيادة سعادة مدينتها ورحائها، وبأن تجعلها مركز الحصار السومرية، فتعلى بذلك من مقام اسمها وصيتها ولذا تقرر أن تذهب إلى إريدو، المقر القديم للنقافة السومرية، حيث يسكن إنكى سيد الحكمة، المطلع على أفئدة الآلهة، والذى يسكن فى غور الأعماق المائية الدأزو، لأن إنكى يملك فى حوزته كل الأحكام أو «النواميس» الإلهية الأساسية للحضارة، فإذا استطاعت الحصول عليها صارت مدينتها المركز الحصارى الرئيس لكل بلد سومر تصل إينانا إلى قصر إنكى فى الأعماق المائية فيستقلها أحسن استقبال ويجلس معها إلى مائدة عامرة ويأخذان بشرب الخمر حتى يلعب الشراب برأس إنكى ويوافق على إعطائها النواميس، تحمل إينانا لنواميس فى قاربها وتنطلق نحو أوروك، ولكن إنكى يصحو من سكرته ويرسل فى أثرها وحوشاً مائية تتركها عند المياء الأول فى الطريق لإعاءه النواميس، ولكن إينانا بمعونة وريها نيششورور نفلح فى الإفلات من الوحوش ست مرات وتصل بأمان إلى ميناء أوروك حيث تفرغ حمولتها وسط ابتهاج سكان المدينة.

وفى أسطورة أخرى من أساطير إينانا يؤدى أحد الفنانين دوراً مهماً وتسير حبكةها كما يلى، كان فى أحد الأزمان يعيش بستانى اسمه شوكاليتودا، لم تتكلم جهوده الحاهدة إلا بالخيبة، وعلى الرغم من أنه كان يسقى حقوله ويساتيه بماء، فقد اضمحلت النباتات، واشتدت الرياح العانية فى صربه بدغبار الحبال، واستحال قفراً كل ما رعاها باهتمام، وعلى ذلك رفع عييه

شوكاليتودا، الذى كان يترصدها من طرف بستانه، فرصة تعبها الشديد وجامعها، وعندما صحت إينانا فى الصباح وعرفت ما جرى لها، قررت إيجاد ومعاقبة ذلك الفانى الذى أخزاها مهما كلف الأمر. ولذا أرسلت ثلاث كوارث على سومر، أولاً: ملأت كل آبار البلد بالدم، حتى أشيعت كل خمائل النخيل والكروم بالدم، ثانياً أرسلت رياحاً وعواصف مدمرة للبلد وطبيعة الكارثة الثالثة غير يقينة بسبب تشوه الرقيم فى هذا الموضع، ولكن على الرغم من كل الكوارث الثلاث، كانت عاجزة عن تحديد مدنسها، لأنه بعد كل كارثة كان شوكاليتودا يذهب إلى دار أبيه ويعلمه عن الخطر الذى يهدده، فينصح الأب ابنه أن يوجه خطواته نحو إخوته «الشعب ذو الرأس الأسود» - أى شعب سومر - وأن يمكث قريباً من المراكز المدنية، فيتبع شوكاليتودا النصيحة، وفى النتيجة، عجزت إينانا عن العثور عليه وبعد الإخفاق الرابع، أدركت إينانا بمرارة أنها كانت عاجزة عن أن تثار للفاحشة المرتكبة بحقها، ولذلك قررت أن تذهب إلى إريدو، إلى منزل إنكى، إله الحكمة السومري، تبتنى منه النصيحة والمساعدة، ولسوء الحظ، يوجد انقطاع هنا، وتظل نهاية القصة محبولة.

وباستثناء الإشارة إلى البشر بشكل عام، فإن الفنانين يؤدون دوراً صغيراً فى الأساطير السومرية، وبالإضافة إلى أسطورة إينانا - شوكاليتودا التى سردناها قبل قليل، لا توجد غير أسطورة واحدة أخرى ترتبط بفان، إنها قصة الطوفان، المعروفة من زمن طويل، والتى لها أهمية شديدة بالنسبة إلى الدراسات التوراتية المقارنة، ولسوء الحظ، لم يتم حتى الآن الكشف إلا عن رقيم واحد يحتوى على هذه الأسطورة، ولم يحفظ إلا ثلث هذا الرقيم وبدية الأسطورة مفقودة، أمّا الأسطر المفهومة الأولى فتتعلق بخلق الإنسان وحياة النباتات والحيوانات، والأصل الإلهي للملكية، وتأسيس المدن الخمس التى كانت قبل الطوفان، وتسميتها بعد ذلك نعلم أن بعض الأرباب حاقدون وأشقياء بسبب القرار الإلهي بالمجئ بالطوفان والقضاء على الجنس البشرى ثم يتم إدخال

زيوسودرا، وهو النظير السومري لنوح التوراتي في القصة بوصفه ملكاً تقياً، يخشى الآلهة، ويتقرب على الدوام الأحلام والإلهامات الإلهية، ويتخذ لنفسه موقعاً بجانب جدار، حيث يسمع صوت إله، لعله إنكى، ينبئه بالقرار الذي اتخذه مجمع الآلهة بإرسال طوفان و«القضاء على بذرة البشر».

ولاد أن الأسطورة قد استمرت بتعليمات مفصلة حول بناء زيوسودرا سفينة ضخمة حتى ينقذ نفسه من الهلاك ولكن كل ذلك مفقود بسبب انقطاع كبير إلى حد ما في اللوح، وعندما يستأنف النص سرده، نجد أن الطوفان بكل عنفه قد انداح على الأرض وهاج لمدة سبعة أيام بلياليها، وعند ذلك، يتقدم إله الشمس، أوتو، ناشراً عليها الدفء والضياء، ويسجد زيوسودرا له ويقدم إليه أضحياته من الثيران والغنم وتصف الأسطر الأخيرة الموجودة من الأسطورة تأليه زيوسودرا: فبعد أن سجد له أن و«إنليل»، مُنح الحياة مثل إله، وانتقل إلى «ديلمون»، أرض الفردوس الإلهية، «المكان الذي تشرق فيه الشمس».

وأخيراً، توجد أسطورة سومرية، وإن كانت لا تهتم إلا بالآلهة توفر قطعة تستأثر بالاهتمام من المعلومات الأنثروبولوجية عن شعب البدو المعروف بـ«مارتو» ويقع حدث القصة في مدينة نيناب، «مدينة لمدن وبلد الإمارة» - لا يزال موقعها في بلاد ما بين النهرين غير محدد - ويبدو أن إلهها الحامي لها كان مارتو، إله الساميين البداءة الذين كانوا يعيشون في الغرب وفي الجنوب الشرقي من سومر، ويوصف الزمن النسبي الذي وقعت فيه الحوادث في عبارات ملفوفة وطباقية وغامضة، على النحو:

وجدت نيناب، لم توجد أكتاب،

وجد التاج المقدس، لم يوجد الإكليل المقدس،

وجدت الأعشاب المقدسة، لم يوجد التروم المقدس...

وتبدأ القصة بأن الإله مارتو يقرر أن يتزوج فيطلب إلى أمه أن تعثر له

على زوجة، ولكنها تتصحه أن يذهب ويجد لنفسه زوجة وفقاً لرغبته، وتواصل القصة سردها أنه قد تم في أحد الأيام الإعداد لعيد ديني كبير في نيناب. ويأتي إليه نوموشدا، الإله المختص بحماية كازالو، وهي دولة مدنية تقع في الشمال الشرقي من سومر، مع زوجته وابنته وفي أثناء العيد يؤدي مارتو عملاً بطوبياً يجلب الفرج إلى قلب نوموشدا، فيقدم إليه الفضة واللازورد مكافأة له على ذلك ولكن مارتو يأبى هذه المكافأة، ويزعم أن يد ابنة نوموشدا هي المكافأة، ويوافق نوموشدا بسرور، وكذلك ابنته، على الرغم من أن صديقاتها يحاولن إقناعها بالعدول عن الزواج بمارتو مادام ليس إلا بدوياً همجياً يسكن الخيمة ويأكل اللحم النئى و«لا يدفن حين يموت».



## الآلهة السومرية

### طبقات الآلهة السومرية

لم تتشكل الآلهة السومرية دفعةً واحدة، بل شكلها زمن طويل يمتد إلى حوالى ما يقرب من الألفى عام، ولم تكن هذه الآلهة متساوية المقام ومنسجمة المراتب، بل نراها فى شكلها النهائى مكونة من عدة طبقات أو مقامات يمكن فرزها عنها من منظورات مختلفة.

المنظور الأول هو الذى نظره السومريون أنفسهم إلى آلهتهم وجعلوها فى مراتب مختلفة الأهمية تتدرج عظمتها كما يلى:

١ - **آلهة المصائر الكبرى:** وهى الآلهة السبعة التى تسيطر على الكون كله، والتى لها صلاحيات مطلقة ونفوذ شامل وكانت قراراتها نافذة ولا ترد، ويتكون مجلس هذه الآلهة من إله عظيم يرأسها هو الإله «آن» إله السماء وإله الكون وستة من الآلهة يشكل الثلاثة الأول منهم مع آن ما يسمى بـ «الآلهة الخالقة» وهم كى «ننخرساج»، إنكى، إنليل، وهؤلاء الأربعة هم آلهة عناصر الطبيعة الأربعة «السماء، التراب، الماء، الهواء».

أما الآلهة الثلاثة الآخرون فهم آلهة الكواكب الثلاثة العظمى «ننار، أوتو، إنانا» «القمر، الشمس، الزهرة».

ويبدو لنا هذا التقسيم منسجماً فى مكوناته ومراتبه، حيث إن رب الأرباب «آن» تخضع له آلهة الطبيعة ثم آلهة الكواكب فى مجلس الآلهة.

٢ - **الآلهة الخمسون العظام «الأنونا»:** يترأس مجلس الآلهة الخمسين الإله إنليل «رقمه الرمزى هو خمسون، واسم معبده معبد الخمسين» وسمى هؤلاء

الآلهة أيضاً بآلهة «الأنوناكى» بعد السومريين يشير إلى قصة العالم الأسفل، وهم أغلب ما نعرف عن الآلهة السومرية، ويشكلون ثمار شجرتها.

٢ - الآلهة الثانويون «الإيجيجى»: وهم الآلهة الصغار الشأن! ويظهرون فى الغالب منتشرين فى السماء، وقد اختلط مصطلح الإيجيجى، بالأنوناكى كثيراً بعد السومريين ولكن الأرجح فى الاصطلاحين هو إشارة الإيجيجى إلى السماء والأنوناكى إلى الأرض.

المنظور الثانى للآلهة السومرية مأخوذ عن تقسيم السومريين أنفسهم لآلهتهم على أساس أن لكل مدينة سومرية إلهاً خاصاً بها، ولا يتعارض هذا التقسيم مع التقسيم السابق بل يكمله.

ولم يكن هذا التقسيم اعتباطياً، بل سار وفق طبيعة المدن وحاجاتها فمدينة إريدو مثلاً كانت مدينة مطلة على المياه وهى أول المدن فى جنوب العراق ولذلك كان الإله إنكى إله المياه وهو من أقدم الآلهة السومرية هو إلهها.. ويسرى هذا على بقية المدن وآلهتها.

المنظور الثالث للآلهة السومرية ما رآه جاكوبسن من تصنيف خاص يعتمد على الطبيعة الجغرافية لأرض سومر، ويشمل المجموعات التالية.

١ - آلهة الأهوار: هى الأهوار الجنوبية الشرقية التى تفصل الأرض المأهولة لسومر عن الخليج العربى والتى تبدأ من جنوب شرق إريدو حتى نينا «سرغول». وتشمل آلهة مائية يرعاها الإله إنكى، وهذه الآلهة هى «إنكى، أسلوحي، دموزى، نانشة، تمار».

٢ - آلهة البساتين: وهى البساتين الجنوبية المحاذية لأسفل طريق الفرات القديم، وتتصف آلهة هذه البساتين بصلتها بالعالم الأسفل فهى آلهة سفلية وتشمل «نازو، نيكشزيدا، دامو».

٣ - آلهة الرعاة: وتشمل المناطق من أور باتجاه أوروك وأوما، وتشتمل هذه

الآلهة على صنفين:

أ - آلهة رعاة البقر الجنوبية: وهى «نانا، ننهار، أوتو، ننسون، آن».

ب - آلهة رعاة الحمير الشمالية: وتشمل عائلة الآلهة نخرساج «بيليتلى» وهى آلهة أدب وكيش ومعها زوجها شولى وأبناؤهما موليل وأشرجى وابنتهما أغيم.

٤ - آلهة الحقول: وتشمل المناطق الشمالية المعشبة حتى أكد. وشرق الأقسام الشمالية من لكش وهى أرض زراعية ولذلك يكون بانثيون هذه المنطقة فلاحياً يعتنى بالزراعة والمحاصيل، ويقف على قمة هذه المجموعة الإله إنليل وهو إله سومر القومى مع زوجته الإلهة إنليل ومعهما «نسابا، نورتا، باو، ميسلامتاى - نركال».

ورغم أن جاكوبسن يأخذ بعين الاعتبار المجموعات الطبيعية ومجاميع المدن المتقاربة فى الوقت نفسه، فإن تقسيمه هذا يزيد من تشويشنا فيما يخص تسلسل الآلهة وانحدارها عن بعضها وأهميتها، وبعبارة أخرى فإنه اهتم بطبيعة سومر فى هذا التصنيف ولم يهتم بآلهة سومر.

إن هذه التصنيفات الناقصة لآلهة سومر لا تعالجها إلا شجرة أنساب الآلهة السومرية التى سنضعها هنا كمحاولة شاملة لتصنيف الآلهة السومرية المعروفة والتى جاء ذكرها فى النصوص الأسطورية بشكل خاص.



## شجرة الآلهة السومرية

حاولنا تنظيم شجرة آلهة سومرية شاملة، لا نستطيع المرور على كل تفاصيلها في مولفنا هذا ولكن يمكن الرجوع إلى كتابنا «متون سومر» الكتاب الأول، «التاريخ، المثلوجيا، اللاهوت، الملقوس» الذى يتابع أدق تفاصيل هذه الحقول، ويرسم لوحة شاملة للآلهة السومرية، ويمكننا وضع هذه الخلاصة الميسرة لشجرة الأنساب السومرية.

تتكون الشجرة من مستويات عدة، يضم كل مستوى مجموعة من الآلهة التى يربطها فى الغالب نسب واحد، وأحياناً طبيعة واحدة، وهى كما يلى:

### ١ - آلهة الهيولى والخلق الأولى «آلهة الجنود»:

وهى الآلهة البدئية التى تشكل منها الكون، وهى قديمة وأزلية فى الوقت نفسه لأن أجسادها تشكل الكون والعالم والإلهة «نمو» هى أم الآلهة السومرية، والآلهة الهيولية الأولى، والتى نتج عن حركتها كون جبل الكون الأول «آن - كى» الذى يتضمن السماء والأرض فى حالة تلاصق أو اندماج.

### ٢ - آلهة العناصر الأربعة:

وهى الآلهة التى كونت مادة العالم ثم كونت الحياة وتشمل آلهة المصائر الكبرى «آن، كى، إنليل، إنكى» وتقابل «السماء، الأرض، الهواء، الماء».

آن: هو إله السماء، ويظهر لنا فى الأساطير السومرية على أن الابن المباشر للإلهة «نمو»، الذى تسلم مقاليد الكون بعدها وكأنه يذكرنا بالانقلاب الذكورى الذى حصل فى الكالكوليت «الحجرى المعدنى» عندما انتزع الرجل مقاليد الحياة من المرأة التى سيطرت على الإلهية والحياة منذ اكتشاف الزراعة.

والإله «آن» في العقيدة السومرية إله عالمي مسؤول عن البشر أجمعين وعن الأرض والسماء.

وللإله آن معبد رئيس في أوروك اسمه «اي - أنا» أي «بيت السماء» وزوجته الإلهة «كي» التي هي الأرض، ومن تزواجهما أنجبا إنليل «إله الهواء» وإنكي «إله الماء» ويسكو «إله النار» وننخرساج «إله الأرض» وهذه هي آلهة العناصر الأربعة.

وله أيضاً سبع بنات مسؤولات عن الزراعة والشفاء هن «باو، ننسينا، كولا، ننتارك، جتومدو «مزب»، ناناي، نننى نوجا» وللإله آن أبناء شياطين في العالم الأسفل وأبناء ملائكة في السماء.

إنليل: هو إله الهواء، الذي أصبح الإله القومي السومري والذي وضعت في صفاته كل أشكال القوة والسلطة والجبروت والحزم، وهناك ما يشير إلى أنه أخذ سلطات أبيه الكونية وفاز بها، ويظهر إنليل على رأس مجمع الأنونا «الخمسين» الذي يضم أغلب الآلهة المسؤولين عن شؤون الأرض ويعد إنليل وشجرته الهوائية مصدراً للموت والظلام والعالم الأسفل والهواء ووالد الكواكب المنيرة، إذ الصفات الأساسية لإنليل وشجرته تعكس مبادئ الحزم والقوة والموت، والإله إنليل أب لأربع مجاميع من الآلهة هم: «الفصول: إيميش - الصيف - وانتين - الشتاء -»، والعالم الأسفل وهم ميسلام تاي «نركال» والبيجييل «كييل» إله النار ونازو إله الشجرة والطب، وبابيل سانج «إله البوابة» والمجموعة الثالثة هي العاصفة ممثلة بإلهيها نكرسو ونورتا، أما المجموعة الرابعة فتضم الإله الوريث له وهو الإله «نانا» إله القمر.

وزوجة الإله إنليل هي الإلهة «سود» التي صار اسمها بعد زواجه منها «ننليل».

إنكي: وهو إله الماء وإله الحياة، وشجرته تحمل كل الآلهة التي تمثل مظاهر

الحياة، ويوصف أيضاً بأنه إله الأرض لارتباط الماء بالأرض وإنجابهما للحياة.

مدينة الإله إنكى هي إريديو ومعبد فيه يسمى معبد النور «إى - إنفورا» ويسمى أيضاً معبد الأعماق «إى - أبسو» وللإله إنكى وزير اسمه «أسيمو» أو «إيسمود» وهو فى حقيقته ابنه وله علاقة بالمياه والزوارق والقصب ويظهر دائماً برأس بشرى وله وجهان.

والإله إنكى هو الذى خلق الإنسان وأحبه وأعطاه نواميس الحكمة والآلهة ويمث بكائنه السمكى «أوانيس» ليعلمه فنون الحضارة والكتابة وهو الذى أنقذ الإنسان من الطوفان.

وتبدو للإله إنكى ثمانية مجاميع من الآلهة سنأتى على ذكرها، جميعها يرتبط بالحياة واستمرارها ولا أثر فى سلالاته للموت مطلقاً، بل إن أغلب الإلهات من نسله صرن فيما بعد زوجات لآلهة النسل الإنليلى وهذا أيضاً من صفات الحياة لأنه مانح الأنوثة.

كى: وهى إلهة الأرض، وتبدو إلهة قديمة ولكن شخصيتها تختلط بالآلهة ننخرساج التى تُسمى «نكى» أى «سيدة الأرض» وربما كانت نكى ابنتها، وفى جميع الأحوال، يمكننا القول إن الإلهة ننخرساج وهى رديفة كى، وهى بذلك زوجة الإله إنكى ولها عدة ألقاب هى «دامكال نونا أى زوجة الأمير الكبيرة» و«نماخ» أى السيدة الكبيرة و«نتنو سيدة الولادة» و«ما مى أو ماما وهى الأم» و«مارى» وهى العذراء و«كاتوم دوك» أى إلهة الأطفال، و«بيليتى» أى إلهة النسل، و«أوراش» أى الأرض، و«أرورو» أى التى تخرج الطفل من الرحم، و«دنكيرما» أى الإلهة الأم، و«نميننا» أى سيدة القبعات الإلهية.

وحقيقة الأمر أن الإلهة ننخرساج هى الإلهة السومرية الأم وهى إلهة الإخصاب، أما «إنانا» فهى شاب لمحب تمارس الحب الطائش وقد استحوذت فيها بعد على صفات ننخرساج زوراً.

وربما حصل هذا مع «دموزى» الذى هو حصراً إله المراعى والحظائر لكن صفات إنكى الخصيبة أسبغت عليه.

وهناك زوج آخر لنتخرساج يظهر كإله فى العالم الأسفل هو «شولبى» الذى أنجبت منه إلهين هما «موليل» ولعله «ليل» الذى يموت ويبعث مثل دموزى والآخر هو «اشرجى» وإلهة واحدة هى «أغيم».

### ٣ - سلاله إنليل:

تمثلن شجرة إنليل الإلهية بآلهة يمثلون فى الغالب عناصر الهواء والظلام والكواكب والفصول والرياح والموت «العالم الأسفل» وهى شجرة جافة تفتقد إلى الحياة والمرونة، ولذلك تسود صفات القسوة والحزم والسلطة والقوة على آلهتها.

أ - إله الفصول وهما «إيمش: الصيف» و«إنتين: الشتاء» وهذان الفصلان يعبران عن أهم موسمين فى سومر حيث الربيع يندغم بالشتاء والخريف بالصيف.

وهناك قطعة من أدب المناظرة السومرى «وتسمى بالسومرية أدمندوكا» تروى قصة خلق إيمش وإنتين والمنافسة بينهما أمام أبيهما «إنليل» حيث يوصف إيمش «الصيف» بأنه خلق الأشجار والحقول ووسع الحظائر والزرائب وأزاد المحصول فى المزارع، أما إينتين «الشتاء» فيوصف بأنه جعل النعاج تلد الحملان والماعز تلد الجداء وكاثر الأبقار والعجول وزاد اللبن وأفرح الماعز المتوحش والنعاج والحمير والطيور والأسماك ووفر العسل ثم ينتصر الإله إنليل إلى الشتاء الذى يعطيه لقب «فلاح الآلهة».

ب - إله العاصفة: وهما «ننورتا: إله الأعصار» وننكرسو: إله مدينة كرسو، وهما إلهان يمثلان العاصفة القوية وعلاقتها تتصل بالحروب والموت والدمار، لكن ننورتا يظهر بعض صفات الإخصاب الزراعية بحكم ارتباطه بزوجه «باو»

أو «بابا» وهى ابنة آن وإلهة الزراعة ثم صارت إلهة الطب والشفاء ورمز لها بالكلب.

أما الإله ننكرسو فقد عبد فى لكش وكان معبده يطلق عليه «بيت البجارا» وتقدم لأجله نذور كثيرة، وكان يرمز له بطير الصاعقة أمدو كد «زو» الذى يظهر برأس أسد وجناحي نسر.

وكان للإله ننكرسو ولدان هما «كال اليم» وهو إله الحق وصد الشر وإله الملوكية، والآخر «شول شاكا» إله السكائب والقرايين وإله الحياة أو الحيوية لارتباطه بالدم.

### ج - آلهة العالم الأسفل:

وهم أربعة آلهة، ذكرت أسطورة إنليل وننليل كيفية إنجاب ثلاثة منهم هم ميسلام تاي وهو نركال الذى كان إلهاً شمسياً لكنه هبط فيما بعد إلى العالم الأسفل وتزوج أرشكيغال، وبقي معها إلى لأبد يحكمان العالم الأسفل وله عدة أسماء أخرى «لو كالجيرا، لو كال جودوا، لو كال أيليك» والثانى هو الإله «جيرا» أو «جيرو»، ويمكن أن يكون هذا الإله مصدر خير أو شر للناس وفقاً للتأثير الذى تحدثه النار نفسها؛ إذ بإمكانه أن يقدم الضوء والدفع بواسطة النار أو بسبب الحرائق والمصائب، وتذكر بعض المصادر أنه ابن إنكى «وهذا غير دقيق»، وفى نصوص «الأوتوكو» وهى العفاريت الشريرة بالسومرية والآكدية يظهر جبيل مع الإله إنكى يصعدان إلى السماء ليكتشفا سر العفاريت الشريرة السبعة «سبيتو» وهى مخلوقات الإله آن تم خلقها دون معرفة إنكى، وعند ذاك يرسل إنكى جبيل إلى ابنه أسارلوحى الذى يزوده بالتعاون اللازمة لمواجهة «السبيتو» أما الإله الثالث فهو الإله ننازو ويعنى اسمه بالسومرية «السيد الطبيب» ويظهر هذا الإله دائماً على أنه ابن أرشكيغال ونركال وليس ابناً لإنليل كما تذكره الأسطورة، وهو إله الشفاء والغتسال فى العالم الأسفل، وكانت عبادته منتشرة فى منطقة دبالى حتى سلالة أور الثالثة، وحل محله فيما بعد الإله «تشباك».

أما الإله الرابع فهو إله عتيق جداً اسمه «باييل سانج» ويعتقد أنه كان إله مدينة لاراك قبل الطوفان كما جاء في الرواية السومرية، وهو زوج إلهة الشفاء «نيسينا» التي كانت تلقب أحياناً بـ«السيدة لاراك».

#### د - إله القمر نانا:

وكان له اسم قديم هو «سواين» أصبح فيما بعد جذراً لاسمه السامي «سين» ومن ألقابه السومرية «أشيم بابار» الذي يعني صاحب الشروق المشع وكان يلقب أيضاً بـ«ثوير إنليل»، وزوجة الإله القمر هي «ننكال» أى السيدة الكبيرة.

وكان «نانا» يعبد في معبد أور المسمى «أكيشنوكال»، وفي معبد «الههول» في حران حيث كان يعبد الإله نوسكو «إله الضوء والنار» ابنه له، وقد صور على أنه ثور وأن له قرنين هما الهلال، وصور على أنه سفينة السماء أو سفينة شحن بضائع السماء، واتخذ منه السومريون مصدراً لمعرفة الزمن لأن أطواره الأربعة التي تبدأ بالهلال «شمباتارا» ومنه «تارخ» ثم نصف البدر «تكر» أو «إنسون» أى الثور البرى ثم البدر «سين أو شين» ثم نصف البدر ثم الهلال ثم المحاق «بويولو» وكانت مراحل ظهور الهلال الأربعة تستغرق كل واحدة أسبوعاً كاملاً، ومن هنا ظهر مقياس الأسبوع بسبعة أيام، أما المرحلة الأخيرة أو المحاق فكانت تستغرق ٢ - ٣ أيام وبذلك يكون الشهر القمري قد اكتمل.

وهكذا أصبح القمر مقياساً للتقويم السومري القمري ولم تؤخذ الشمس بسبب ثباتها الدائم، وقد ظل هذا في الاسم السامي الآخر للقمر وهو «ورخ» أو «تارخ» الذى يشير إلى التاريخ، وكان خسوف القمر يعلل بأسطورة تقول إن الآلهة الشريرة «سبيتو» تسرق ونصرع الإله القمر وتحجبه.

وكذلك يفسر غيابه لمدة ثلاثة أيام في نهاية كل شهر في مرحلة المحاق التى كانت تسمى «بويولو» بأن الشياطين من العالم الأسفل تقوم باحتجازه وأسرّه والذهاب به إلى هناك مؤقتاً وكانت تجرى بعض الطقوس لفك أسرّه.

ونرى أن كلمة «ننسون» التي هي الإلهة المسماة بالبقرة الوحشية لها علاقة بتسمية نصف البدر «إنسون» التي تعنى الثور الوحشى، وربما كانت ننسون قرينة إنسون فى هذه المرحلة رغم أن الإلهة «ننسون» تظهر قرينة لإله الشمس أب كلكامش الإلهى لأنها كانت أمه.

أبناء الإله القمر: للقمر ولدان أحدهما كوكب هو «أوتو» إله الشمس والآخر إله كزالو «نوموشدا» وله بنتان إحداهما تمثل كوكب الزهرة وهى «إنانا» إله الحب والجمال والأخرى إلهة العالم الأسفل «أرشكيغال» وهى إلهة الظلام والموت.

والإلهة «إنانا» لعبت أعظم دور بين الآلهة فقد طنت أساطيرها وقمصها وقدرتها على بقية الآلهة وهى التى أسماها الأكديون ثم البابليون «عشتار» وقد ظهرت عبادتها مبكرة فى أوروک فى الألف الرابع قبل الميلاد، ولها معابد فى أوروک ومارى ونوزى ويمكن أن نحدد لها بدقة ثلاث صفات ثابتة الأولى أنها إلهة الحب والإغواء والجنس والجمال، والثانية أنها إلهة الحرب ونزعات التدمير والقتال والثالثة أنها إلهة نجم الزهرة الذى يسمى بنجمة الصباح أو نجمة المساء، أما الصفة التى يعطيها لها بعض الباحثين حين ينسبون لها صفات الخصوبة والإلهة الأم فهى غير أصيلة فيها، فقد أسبغت عليها من الإلهة السومرية الأم «ننخرساج» التى بدأ ذكرها بالخفوت بعد السومريين.

ولعل أكثر القصص التى اشتهرت بها «إنانا» أساطيرها مع الإله «دموزى» عشيقها وزوجها وقتيلها فى الوقت نفسه وهو الإله الراعى المسئول عن حظائر الأغنام والماعز، وقد أخذ صفات الخصب من الإله إنكى خصوصاً عند الأكديين عندما تحول إلى «تموز»، كذلك يرد ذكره على أنه أحد سكان العالم الأعلى «السماء» حارساً لبوابة آن مع الإله نكشزيذا وكذلك أحد سكان العالم الأسفل مع نفس هذا الإله.

ولنا رأى خاص فى الأسباب العميقة التى أدت إلى موت دموزى ونفيه إلى

العالم الأسفل مفاده أن هذا الإله هو الإله الذكرى الوحيد من سلالة إنكى «هو ابن إنكى» الذى تزوج إلهة أنثى من سلالة إنليل فى حين أن أغلب بنات إنكى كن زوجات للذكور من سلالة إنليل، على اعتبار أن سلالة إنليل كانت تمثل القوة والبطش والذكورة والموت وسلالة إنكى كانت تتمثل باللين واللفظ والأنوثة والحياة، وأن الذى حصل بين دموزى وإنانا هو الشذوذ الوحيد فى تلك القاعدة ولذلك كان لابد من عقاب دموزى وموته.

وهناك خمسة أبناء للإلهة «إنانا» من دموزى «وريم من غيره» وهم الإلهة «إشخارا» التى ذكرت فى عيلام وعصر أور الثالث وهى الإلهة المختصة بضمان تنفيذ العهود المقطوعة. أمام الآلهة ولذلك تُسمى سيدة القضاء والأضاحى، ولها صفات حربية ورمزها هو العقرب ولها سبعة أبناء أو عفاريت، ويبدو أنها ورثت صفات «إنانا».

أما الأبناء الأربعة الباقون لها فهم «شارا» الذى يختلط أحياناً بصفات «إشخارا» وهو إله مدينة أوما، إله الحرب، وربما كانت له علاقة به «الزواج».

والإله «لولال» إله لتراك، والإله «نخار» إله الرعد والعواصف والإله «إشكر» وهو إله البرق الذى ظهرت من صفاته شخصية الإله أدد السومرى ثم هدد أو حدد السامى، وهناك ختم اسطوانى من تل الرمح من القرن الثامن عشر ق.م يصور ويذكر الإله «إشكور - أدو» كاسم مركب من اسمين لإله العاصفة، وهو زوج الإله «شالا» أو «شلش» أو «أمجرو» إله النار.

وهكذا حافظت سلالة «إنانا» على صفات السلالة الإنليلية الهوائية النارية المميتة.

أما أبناء الإله «أوتو» إله الشمس من زوجته «آية» فهم ستة أبناء أولهم «بونيه» وزير وسائق عربة الشمس، و«خار» راعى الحيوانات البرية و«سموكان» راعى النباتات والحيوانات البرية و«سيسكال» إله العاصفة و«نكجينا» إله الصدق

والحق و«مامو» إلهة الأحلام.

وكان الإلهان إشكر والإله أوتو يعتبران إلهي العرافة وتفسير الأحلام.

الإلهة «أرشكيغال» هي إلهة الموت والعالم السفلي، ويعنى اسمها «سيدة الأرض الكبيرة»، وتذكر الروايات السومرية أن لها زوجين هما «كوكال أنا - أى ثور السماء الكبير» ونركال ولها من الأخير ثلاثة أبناء اثنان منهما بمثابة الوزيرين لها ولنركال وهما «نمتار» مُقدر المصير وإله الستين مرضاً ووزيرها، والإله الثانى «خيندر ساك» إله الموت وزير نركال، أما الابن الثالث فهو الإله «ننازو» الذى ظهر فى رواية أخرى على أنه ابن إنليل وتنليل، وهو إله الطب وإله الشجرة، وابنة الإله «ننشكزيدا» حامل العرش ومعنى اسمه «سيدة شجرة العدل» وربما المقصود منها «شجرة الحياة» ويلقب فى المدائح الإلهية بـ«خادم الأرض الواسعة» و«محرك كرسى الأرض الواسعة» وهو زوج الآلهة أزيما «إلهة مقاطعة فى لكش» ولهما ابن هو «دامو» إله النسج الصاعد فى النباتات، والذى تذكره نصوص أخرى على أنه ابن إلهة الشفاء «ننسينا» من زوجها «بابيل سانج»، وكانت علاقته بالطب والشفاء واضحة.

#### ٤ - سلالة إنكى:

السلالة الكبيرة الثانية فى شجرة أنساب الإلهة السومرية هي سلالة إنكى، التى تُعبر عن الحياة والماء وتشير إلى الجانب المعاكس تماماً لسلالة إنليل فهى تحفل بآلهة لهم وظائف مرتبطة بالأنوثة والولادة والخصب والنبات والحيوان والإنسان.

وقد رأينا أن من الأنسب تصنيف هذه الآلهة التى هي من نسل إنكى وزوجته نتخرساج إلى ثمانية أصناف هي:

١ - الإلهان عديما الجنس المخنثان «كوركالا» و«كولاتور» اللذان صنعهما إنكى من الوسخ الذى تحت أظافره لإنقاذ «إنانا» من العالم الأسفل.

### ب - آلهة المياه وهم:

١ - دموزى أبسو: وهو غير الإله دموزى فهو إله المياه العميقة، وعلى الأغلب هو إله أنثى من محيط لكش، إلهة مدينة «كيزشا» وتربط بإله المحيطات المذبة «أبسو» وقد فقدت أهميتها بعد العصر البابلي القديم لتضائل دور مدينة لكش السياسية.

٢ - أبيللو: وهو إله المياه والحقول وكان معنياً بالأقنية والسدود والترع بالإضافة إلى المطر، وقد اختاره الإله إنكى للإشراف على دجلة والفرات، وله شكل أنثوى هو الإلهة السومرية بيللو المرموز لها بقرية الماء والمعروفة بعداوتها للإله دموزى.

٣ - سيرار: هو إله الخليج العربى، ويعتقد أنه حفيد بيللو المسمى «سرو».

٤ - إيسمود: وهو الإله إسيمو ذو الوجهين، وزير الإله إنكى.

٥ - تدارا: وهو جابى البحر وزوج الإلهة نانشة ونازى.

### ج - آلهة النباتات وهم:

١ - أبو: وهو ملك النباتات وإلهها ويعنى بالخضرة والحشائش الصغيرة، وقد حظى بالعبادة فى مملكة أشنونا «منطقة دىالى» وعثر فى تل اسمر على تمثال له ولزوجته وما يشير لوالده.

٢ - دموزى أما أشمو كال أنا: وهو القوة المخصبة التى تكمن فى النخيل وتسبب الطلع والخصب لها، وهو غير الإله الراعى دموزى.

٣ - أنكدو: وهو الإله الفلاح.

٤ - نسابا: إلهة الحبوب ثم إلهة الكتابة والأعداد فى سومر.

٥ - أشنان: إلهة القلة.

٦ - نيموخ: إلهة الغابات.

٧ - تنغيردا «نكيري، تنسوتو»: زوجة الإله ننازو.

٨ - كشتن أنا: سيدة دالية الكروم وأخت الإله دموزي.

٩ - نازي: زوجة الإله نندارا.

١٠ - آزيموا: زوجة الإله نكشزيدا.

١١ - نكيري أوتو: إلهة نباتية.

١٢ - نيسار: سيدة الخضار والنباتات التي تُؤكل.

١٣ - نتمو: سيدة النباتات ذات الألياف.

١٤ - إيمر: إله الحبوب.

١٥ - أزينو: إله أو إلهة الحبوب والزمن.

١٦ - كوسو وباسيكيل: إلهها الحبوب.

#### د - آلهة الحيوان:

١ - دموزي: وهو راعي الأغنام والماعز، «دمو تعنى ابن، وزى تعنى مخلص» فهو الابن البار، كما أن زو تعنى المخلص فهو الابن المخلص، كما أن زى تعنى الذى يعلو فهو الابن الذى يعلو، وهو أكثر الآلهة شهرة على المستوى الشمسي، حيث كانت تمارس شعائره وطقوس عبادته بشكل واسع، ويرى مورتنفات أن دموزي وعقيدته الدينية هي أساس العقيدة الدينية السومرية وأساس المواضيع الخالدة فيها.

ولعل أساطير دموزي مع «إنانا» من أشهر أساطير الحب والجمال، وكذلك طقوس الزواج المقدس.

٢ - لهار «لخار»: وهو إله الأغنام والحظائر ومنتوجاتها.

٣ - ننسون: وهى البقرة الوحشية أم الإله دموزي أحياناً «وتسمى سرتور»

وأم كلكاش والأمير كوديا .

٤ - نانشة: إلهة الأسماك.

٥ - نتمار: إلهة الطيور.

٦ - زيابا: إله الأغنام وحقولها والمسؤول عن ذبحها وهو إله الحرب  
في كيش.

٧ - بيلي: الوجه المؤنث من إنبيليلو وتظهر قاطنة حظائر الماشية.

هـ - آلهة العمران:

١ - ممو: إله الحرف والمهارات.

٢ - نتشي: إلهة الشهور وراعية الزمن وهي الإلهة التي تحيي وقد كانت  
مصدر فكرة حواء في الديانة العبرية، لأنها إلهة الضلع أيضاً.

٣ - إنشاج: إله دلمون ويُسمى أيضاً «إنزاك».

٤ - نتسيكلا: إلهة دلمون ومكان «عُمان».

٥ - نكاسي: إلهة الخمرة «إلهة الكأس».

٦ - كبتا: إلهة الفأس والقرميد.

٧ - كولا: إلهة الطابوق وصناعته.

٨ - مشدما: إله المساكن.

٩ - هاييا: إله الصوامع زوج نصابا.

١٠ - نندوب: إله المعمار ومصمم المعابد.

١١ - نكورا: إله الأصباغ.

١٢ - أتو: إلهة النسيج.

١٢ - أشموكال كلاما: إله الموسيقى «القيثارة».

١٤ - تيبال «تابيرا»: إله المعادن.

١٥ - ميرسو: إله الرى.

١٦ - طقطوق: إله الصناعة.

١٧ - ساتران: إله مدينة دير.

١٨ - نيراج «نيراه»: القوة الحامية للبشر ويصور كثعبان.

### و - أسلوحى:

هو الابن الوريث للإله إنكى، ويمثل الفيوم المرعدة، وهو الجذر السومرى للإله مردوخ «ابن أيا الأكدي» لأنه يحمل نفس صفاته، ولكن اشتقاق اسم مردوخ قادم من المقطعين السومريين «أمار أوتو» والذى يعنى «عجل الشمس» أو «طفل الشمس» وكان هذا المصطلح يشير إلى كوكب المشترى الذى يمثله مردوخ، وقد كان أسلوحى أو «أسارولوخى» إلهاً للسحر والتعاويد التى ورثها عن أبيه إنكى.

### ز - إلهات الولادة السبع:

وهن سبع ثانويات مخصصات للولادة ويساعدن الإلهة نماغ ساعة ولادة الآلهة أو الإنسان وهن:

١ - نن - إما.

٢ - نن - مادا.

٣ - نن - يارا.

٤ - نن مكك.

٥ - نن كونا.

٦ - سوزى أنا.

٧ - موسار غابا .

### ج - الإله الميت أو الضعيف «الإنسان - لولو»:

يُوصف الإنسان في التراث الدينى السومرى بأنه ابن الإله وهو تحديداً ابن الإله إنكى، ولكن هذا الإنسان هو إله ميت أو ضعيف أى محكوم عليه بالموت، وسنشرح أساطير خلق الإنسان وولادته في الفصل القادم.

وكلمة «لولو» مأخوذة من المقاطع السومرية «Lu- ux- Lu» التى تعنى حرفياً «الإنسان البعيد أو السحيق» أو الإنسان العادى، ومرادفها الأكديّة أويلو، التى ترتبط باسم الإله «وى - إيلا» ومعناه الحرفى «الإله الذى كانت له شخصية» وهو الإله الذى ذبح فى «أوزموا» فى نضر وصنع من دمه مع الطين الإنسان وهى أسطورة أكديّة ذات أصول مكانية سومرية.

## رموز الآلهة السومرية

يمكننا القول إجمالاً إن الرموز ظهرت في وادي الرافدين في وقت مبكر، في حضارة سامراء «٥١١١ - ٤٩٠٠» ق.م وربما في حضارة حسونة التي سبقتها، وكانت هذه الرموز في غالبيتها دينية الطابع، وقد تطورت في عصر الكالكوليت، أما في العصر السومري فقد ظهرت رموز الآلهة على نطاق واسع ومتطور وسنقوم باستعراض هذه الرموز حسب أهمية ومقام الآلهة اعتماداً على شجرة الآلهة السومرية التي وضعناها، وسنقتصر على الرموز السومرية فقط تاركين أمر تطورها لاحقاً في بابل وآشور إلى الكتب القادمة.

١ - رمز إله السماء «آن»: وهو الرمز المهم للآلهة والذي أصبح فيما بعد علامة «دنكر» التي تشير إلى الآلهة بعامة، وقد تطورت عن رمز الإلهة آن الذي يدل على ثمانى جهات، وكان ذلك في حدود ٢٢٠٠ ق.م، ثم أحيطت أذرع الجهات بما يشكل نجمة ثمانية تتبثق داخلها خطوط الجهات. وقد حافظت الكتابة المسمارية السومرية على شكل قريب من هذا عندما خطت بأربعة مسامير متقاطعة تشير إلى الجهات الثمانية أيضاً.

وقد كان العدد الرمزي للإله آن هو «٦٠» ويكتب بعلامة مسمار واقف وهو رقم مقدس عند السومريين لأنه يعبر عن الكمال، وقد سميت الرياضيات السومرية بالرياضيات الستينية التي أصبحت أساس الرياضيات الفلكية والهندسية إلى يومنا هذا.

٢ - رمز الإله إنليل: يعود رمز الإله إنليل إلى نهاية الألف الخامس قبل الميلاد حين مُثل هذا الإله على شكل مثلثين متقابلين متصلين أو على شكل هأس مزدوج، وكان ذلك يشير إلى أسطورة خلق الفأس لإنليل، حيث يعتبر هو

رب العمل الذى أعطى لشعب سومر الفأس ليبنى حضارته بها، وتعدل على القوة والبأس، ولعدد الرمزي لإنليل هو «٥٠» الذى كان يعنى أيضاً أن إنليل يترأس خمسين إلهاً أرضياً هم أعضاء مجلس الأنوناكى المومرى وقد ورث هذا العدد كل من ولديه نورتا ونجرسو.

٢ - رمز الإله إنكى: عبر عنه بالإناء الفوار الذى يشبه الكمثرى، الذى تخرج منه خطوط المياه المشر من الجانبين، فهو إله المياه وقد عبرت شجرة «الكشكانو» وهى «شجرة الحياة» التى كانت تُسمى باسم إنكى عن هذا الإله لأنه إله الحياة وإله الخصب.

أما عدده الرمزي فهو «٤٠» وقد كان هذا لرقم يحمل معانى عديدة منها النضج والحكمة والنبوة وغير ذلك.

٤ - رمز الإله نانا «القمر»: وقد كان رمزه المبكر فى العصر السومرى عبارة عن هلال وفى وسطه نجمة ذات اثنى عشر شعاعاً، ستة من الأشعة على شكل مدبب والستة الأخرى على شكل شريط شعاعى مكون من ثلاثة خطوط، كما تدل قرون الهلال على قرون الثور باعتبار أنه كان يسمى بـ«ثور السماء» وكذلك على حافتي «سفينة السماء».

والعدد الرمزي للإله نانا هو «٣٠» يشير إلى أيام الشهر الذى كان يقاس بدورة القمر الشهرية، ويشير إلى فكرة جعله مصدر التاريخ والزمن.

٥ - رمز الإله أوتو: كان رمز الإله الشمس قد ظهر مُبكراً فى الرسوم الرافدينية فقد ظهر فى الألف الخامس على شكل صليب وصليب مالمطى، وعلى شكل الرمح والنجمة المعلقة به ثم ظهر فى العصر الأكدي على شكل «المنشار» الذى يقص الظلام، وعلى شكل النجمة ذات الأشعة الستة عشر، التى كان ثمانية منها على شكل مثلثات مدببة والثمانية الأخرى على شكل أشرطة أشعة متساوية، وكان ظهوره بهذا الشكل المميز فى العصر الأكدي يؤكد مكانته عند

الأكديين باعتباره الإله القومي لهم، وكان العدد الرمزي له هو «٢٠».

٦ - **رموز الإلهة إنانا:** للإلهة إنانا ثلاثة رموز سومرية أساسية ظهرت في عصر الوركاء وجمدت نصراً أي في عصر البروتوليتريت الشبيه بالتاريخي وهو عصر سومري مبكر، الرمز الأول هو رمزها الكتابي وهو عبارة عن قصبتين متتاومتين باتجاه واحد معنوتين ويتدلى من رقبة كل واحدة منهما شريط حريري. أما الرمز الثاني فهو عبارة عن قصبية مدببة ذات ست حلقات على جانبيها، الرمز الثالث هو زهرة الإقحوان المؤلفة من ثمانى أوراق مدببة على شكل معينات مصفوفة باتجاه مركز مدور. وكان هذا الرمز يشير إلى شجرة حياة إنكى أيضاً.

أما العدد الرمزي للإلهة إنانا فهو (١٥) وهو نصف عدد أبيها القمر وكأنه يشير إلى البدر التمام وهو ما يؤشر صفة الجمال لإنانا، وكذلك يضم هذا العدد أصل اسمها اللاحق «عشتار» من التسمية السومرية (كشدار) الذى يضم معنى الشق والقضيب وهما رمزا الأنوثة والذكورة الدالان أيضاً على الحب والحرب.

٧ - **رمز الإله دموزى:** رغم شيوع عبادة الإله دموزى وأساطيره وطقوس الزواج المقدس والحزن عليه، إلا أن هناك رمزاً واحداً يرجح أن يكون خاصاً به وهو عبارة عن جذع نخلة يشير إلى الإله دموزى (أما أشمكال أنا) وهو مخصص النخيل وطلعها وفي أعلى هذا الجذع رمز الألوهية الذى هو عبارة عن عجلة تحتوى في داخلها على نجمة ثمانية مدببة الأشعة وذات مركز. ولم يكن للإله دموزى عدد رمزي.

٨ - **رمز الإلهة إشنغارا:** ظهر رمز العقرب في وقت مبكر جداً، فقد كان من الرموز الأولى لحضارة سامراء التيوليثية في الألف السادس قبل الميلاد وكان يشير إلى الإلهة الأم، وقد ظهر في الأطباق الفخارية السامرائية ليشير إلى علامة الصليب المعقوق (السواستيكا) التى كانت رمزاً للإلهة الأم، وظهر أيضاً

فى قصة الأكيتو (استتزال المطر أو الاستسقاء) ليشير إلى الإلهة الأم لأن من صفات لعقرب ولادة أبنائها من البيوض داخل جسدها ولذلك حين كانوا يخرجون بعد التفتيس الداخلى يضطرون إلى تمزيق ظهرها والعيش على بقايا جسدها فى حين تموت العقرب الأم، ويعتبر هذا الرمز واحداً من أول رموز التضحية والأمومة، ويبدو أن الإلهة إشخارا كانت تمثل بالعقرب استمراراً لحفظ تقليد الإلهة الأم رغم أن هذا الرمز كان يدل على الإله شارا لذى كان يختلط مع الإلهة إشخارا بسبب اقتراب اسميهما وكونهما أبناء الإلهة إنانا. وكان أحد مداخل العقرب هو (الزواج) الذى كانت إشخارا تمثله.

٩ - رمز الإله إشكر: ظهر رمز الإله إشكر الدال على الصاعقة والبرق مبكراً فى حضارة سامراء النيوليثية على شكل الحرف U المتعرج الزراعين، ثم تطور فى العصر السومرى فى النصف الثانى من الألف لثالث قبل الميلاد إلى شكل الشوكة المزدوجة ذات المقبض الوسطى الذى أصبح يدل على البرق والصاعقة كسلاح فى يد الإله إشكر الذى صار الإله أدد فيها بعد.

والعدد الرمزى للإله إشكر هو (٦).

١٠ - رمز الإلهة باو (بابا) ظهر رمز الوزه الدال على الإلهة باو مبكراً فى حضارة حلف ولكنه مع ظهور الحضارة السومرية أصبح دالاً على هذه الإلهة التى تهتم بالزراعة، لكن الوجه الآخر لباو هو الوجه الطبى - حيث سميت بابا (طبيبة ذوى الرؤوس السود) - تجسد فى رمز الكلب ( لذى كان بسبب لعقه للجروح يعتبر عامل شفاء) وكان هذا الرمز يشير إلى جميع إلهات الشفاء والزراعة السبع بنات الإله أن فى الوقت نفسه، أما الوزه فهو رمز (باو) حصراً.

١١ - رمز الإله نكرسو: وهو ابن انليل الذى يحمل صفاته، فهو إله العصفه التى يمثلها أيضاً الإله نورتا، إلا أنه حصراً إله مدينة (كرسو). وقد كان رمزه فى بداية عصر ميسلم (حوالى ٢٠٠٠ ق.م) على شكل عصا مزدوجة ذات نهاية متفتحة ومحززة الرقبة وهى دالة على السلطة والقوة أما فى النصف الأول من الألف

الثالث ق. م. فقد أصبح شكل (أمدوجد) إله الريح الكاسحة الذى يمثل برأس أسد وجناحي نسر هو رمز الإله نكرسو.

العدد السرى للإله نكرسو هو (٥٠) مثل والده الإله إنليل.

١٢ - رمز الإله نكشزيذا: وهو ابن نازو إله الطب، الذى يحمل صفاته وقد رمز له بثعبانين ملتصين على غصن شجرة أو عصا فى أواسط الألف الثالث قبل الميلاد. وكان الثعبانان متصلى الدليلين ويتقابل وجهاهما وتتلاقى حلقتان انفيتان لكل منهما. ومعروف أن الأفعى (أو الثعبان) مثلت رمزاً من رموز الشفاء والخلود، ففى سمها ترياق طبى وفى تجدد جلدها ما يشير إلى الخلود وتجدد الشباب. وقد أصبح رمز نكشزيذا هذا رمزاً عالمياً للطب، فقد أصبح شعار الطب السومرى (الكاديكيوس) الذى انتشر شرقاً وغرباً وترسخ فى اليونان وصار رمزاً لإله الطب اليونانى (أسكليبيوس) وشعاراً للطب اليونانى. وارتبط عند الرومان بسندبل القمح كرمز للخصب وأسماء اليونان والرومان بـ (الكاديكيوس). ونستطيع ملاحظة وجود هذا الرمز واستمراره حياً فى الشرق القديم من حكاية حية النحاس التى رفعها موسى على جبل نبو رمزاً للشفاء وقد كانت حية ملتفة على عصا. وفى عصرنا الحديث مازال رمز الطب هو الحية الملتفة على عصا. ورمز الصيدلية الحية الملتفة على كأس وهى تضع رأسها عند فوهتها. وهو الشعار الذى نراه على أبواب الصيدليات ولافتاتها.

١٣ - رمز الإلهة أشنان: كانت السنبله رمزاً قديماً من رموز الإلهة الأم فى عصر النيوليت والكالكوليت ولكنها أصبحت، حصراً، فى العصر السومرى دالة على الإلهة أشنان إلهة الفلة والنبات وهى سنبله مميزة تتكون من ساق بثلاثة أغصان تشبه ثنية الكف وكأنها تمثل العطاء، والسنبله مكونة من ستة فروع بارزة يتوسطها شكل هندسى مكون من تسعة مريمات لعلها إشارة لأشهر الولادة والخصب وواضح أن العدد (ثلاثة) يتكرر فى شكل هذه الثبته وهو عدد يرمز إلى الكثرة والوفرة.

١٤ - رمز الإلهة نانشة: كانت لسمكة رمزاً نيوليتياً ظهر في حضارة سامراء ليشير إلى الإلهة الأم في بعض الأواني الفخارية التي كانت تحمل صورة ثمانى سمكات تدور باتجاه معاكس لمقرب الساعة حول أربع سمكات مطعونة وبمركز سواستيكي. وفي العصر السومري أصبح هذا الرمز يشير إلى الإلهة نانشة إلهة الأسماك وابنة إنكي.

١٥ - رمز الإلهة نتمار: كانت الطيور عموماً تشير إلى الإلهة الأم النيوليتية وحتى النسر الكاسرة كانت تشير لها كما في (شتال حيوك) في الأناضول النيوليتية. لكن النسر والعقaban أصبحت تدل على الإله الأب الذكر القوي الممثل بآله الهواء في بداية الكالكوليت وأصبحت الطيور الأليفة حصراً هي التي تدل على الإلهة الأم.. والإلهة نتمار كانت إلهة الطيور التي كانت رمزاً لها في المرحلة السومرية.

١٦ - رمز الإلهة لهار (لخار): وهي إلهة الماشية بشكل عام وربما أصبحت تدل على الخراف بشكل خاص، ولذلك كان رمزها النعجة، وإذا ظهرت النعجة مع الغلة أو السنابل فإن ذلك يدل على تلازم الإلهتين الأخنتين (لهار) النعجة و(أشنان) الغلة حيث تصف قصيدة مناظرة سومرية تلازمهما وتنافسهما في الوقت نفسه.

١٧ - رمز إلهة العين «المضادة للحسد»: لم تكن هذه الإلهة شائعة ضمن البانثيون السومري، ولكنها كانت شائعة في مناطق غرب وأعلى الفرات، فقد عثر لها في معبد العين «في تل براك على الخابور» على آلاف التماثيل الحجرية المنحوتة بزواج من العيون المحدقة وعلى رمزها «العين المحدقة» باعتبارها إلهة طاردة للحسد والشر.

١٨ - رمز الحمامة السماوية «أياهو»: هذا الرمز له أهمية خاصة فهو يشير إلى الحمامة السماوية التي كانت طيراً مقدساً واعتبرت من رسل السماء وتُدعى بالسومرية «أياهو»، ونرى أن هذا الاسم هو مصدر الإله العبري «يهوه»،

وقد حصل ذلك من خلال الإله إنليل الذى أرجح أن يكون مصدر الحمامة السماوية أو أنها شكل من إشكال ظهوره أو مبعوثته من السماء وقد اقترنت بها عند المبريين ثم اليهود صفات «يهوه» الذى يناظر تماماً فى صفاته الإله «إنليل» كالعاصفة والفضب والقوة، خصوصاً إن «إنليل» هو الإله القومى السومرى و«يهوه» الإله القومى العبرى.

١٩ - رمز الفأس «العمل»: وهو أحد رموز الآلهة أيضاً الذى جسده أسطورة الفأس الخاصة به، فهو هدية الإله إنليل إلى الشعب السومرى ليبنوا سومر بالعمل وقد جسد المحراث فكرة العمل أيضاً.

٢٠ - رمز البناء: وهو رمز مكون من عصا وبجانبها حبل مطوى على شكل حلقة تتهدل منه قطعة حبل مطوية، وقد ظهر هذا الرمز فى القرن الثانى والعشرين قبل الميلاد.

٢١ - رمز السلطة: وهو رمز قديم يظهر مرافقاً للإله آن ثم للإله إنليل ثم يظهر مع الملوك. وهو مكون من عصا وبجانبها حلقة دائرية.

٢٢ - رمز بوابة المعبد: الذى يظهر على شكل عمودين مدببى النهاية من خلال قبة صغيرة تعلو كلاً منهما، وهناك نصف حلقة جانبية على ثلثهما الأعلى، وقد ظهر هذا الرمز حوالى «٢٤٧٥» ق. م.

٢٣ - رمز الماء المقدس: وهو إناء سكب الماء المقدس الذى يظهر مثل كأس مخصصة تتدلى على جانبيه ثمرتان وتتبع منه سعة مكونة من أوراق جانبية صغيرة. وربما كان هذا الشكل عبارة عن الكأس والنخلة.

٢٤ - رمز الموقد المقدس: وهو عبارة عن إناء طويل تخرج منه أسنة لهب، وهو أحد رموز المعبد ولكنه أشار فى العصر الأكدي إلى الإله «نسكو» إله النار والإله «نكشزيدا» إله الطب.

## الأساطير السومرية

لعل من الضروري التأكيد على أن هناك الكثير من الأساطير السومرية ما زال مفقوداً، حيث نرى إشارات كثيرة لأساطير لم يُعثر عليها حتى الآن، وبرغم ذلك فإن الأساطير السومرية التي بين أيدينا تعطينا فكرة واضحة عن النظام المثلوجي السومري.

إن تصنيف الأساطير السومرية هو الذي يدلنا على هذا النظام ويعيننا على تلمس شكله وبنائه. وقد اقترحنا تصنيفاً نعتقد أنه يوفر مثل هذه الفرصة أو يفتح طريقاً لها على الأقل، وهو كما يلي:

### ١ - أساطير الخليقة «التكوين» Myths of Gensis:

أ - أساطير نشوء الكون «الكوزموغونيا» Cosmogony.

ب - أساطير نشوء الآلهة «التيوغونيا» Theogony.

ج - أساطير نشوء الإنسان «الانثريوغونيا» Anthropony.

### ٢ - أساطير تنظيم الكون Mythes of Organization:

أ - الأساطير المرتبطة بالآلهة إنليل.

■ أسطورة خلق الفأس.

■ رحلة «نانا» إلى نمر.

■ إيميش وإنتين.

■ لاهار وأشنان.

ب - الأساطير المرتبطة بالإله إنكى.

■ إنكى وتنظيم سومر.

■ إنكى وإريبدو والرحلة إلى نفر.

## ٢ - أساطير تدمير الكون :Myths of Destruction

أ - الطوفان «أسطورة الدمار القادم من العالم الأعلى».

ب - التتين «أسطورة الدمار القادم من العالم الأسفل».

■ التتين كور والآلهة إنكى وننورتا وإنانا.

■ التتين أساج والإله ننورتا.

## ٤ - أساطير إنانا :Myths of Inanna

أ - إنانا والآلهة «آن، إنليل، إنكى».

ب - إنانا ودموزي.

ج - إنانا وملوك سومر «كلكامش، شولكى، شوسين، إيدن داجان، إيشمى داجان».

د - إنانا والإنسان «شوكاليتودا، بليولو».

هـ - إنانا والعالم الآخر.

■ إنانا وجبل إيببىخ.

■ إنانا وكور.

■ هبوط إنانا إلى العالم الأسفل.

## ١- أساطير الخليقة

### Myths of Gensis

لا تسعفنا المدونات السومرية بأسطورة خاصة عن خلق الكون، ولكننا نعرف من مقدمات القصائد والأساطير الأخرى أن الكون في نظر السومريين ظهر من الإلهة السومرية الأم الأولى «نمو» وهى إلهة هيويلية تحركت فيها إرادة الخلق وتصارعت الحركة مع السكون ونتج عن ذلك تكون الكون «آن - كى» الذى يعنى «السماء - الأرض» وهو جبل كونى يعوم وسط مياه «نمو».

وكان السومريون يسمون الزمان الأول الذى بدأ فيه الخلق أوريا، وهذ يعنى أن ثلاثى الخلق الأول عند السومريين كان مكملًا لبعضه، حيث المادة الأولى «نمو» والزمان الأول «أوريا» والمكان الأول «آن - كى».. وبهذا الثالوث التكوينى يتحرك الوجود كله وتصير استعادته الدائمة هى الطقوس والشعائر الدينية محور هذه الطقوس.

إن «نمو» تمثل العماء «كاؤس» أما «آن - كى» فيمثل الكون «كوسموس» وزمن الانتقال من العماء إلى الكون هو الزمن الأول «أوريبيا».

وكانت أعياد رأس السنة السومرية تمثل محاولة لاستعادة الزمن الأول «أوريبيا» ولذلك كانت هذه الأعياد تتضمن استعادة قصة الخليقة من جديد بل وتتضمن ما يشير إلى الخروج من العماء إلى الكون عن طريق عودة العالم إلى الفوضى ثم تدرجه إلى النظام.

وكذلك كان بناء المعابد وتمثيلها بالجبال الكونية وإطلاق تسمية «صلة بين الأرض والسماء» عليها تعنى استعادة خلق المكان الأول، وكانت الزقورات السومرية إحياء لهذا الجبل الكونى «آن - كى»، وقد كان ينظر إليها السومريون

على أنها مركز العالم وسرة الكون، إن مصطلح «دور - آن - كى» الذى كان يشير إلى زقورات نقر ولارسا وأور وغيرها كان يمثل هذا التوجه تماماً وكانت المعابد تبني في الغالب قرب أو فوق المياه تمثلاً للحظة الخليفة الأولى واستعادة لها.

وتستكمل عملية الخلق نفسها عندما يمثل «آن» السماء و«كى» الأرض في الجبل الكونى «آن - كى»، وهما في وضع مضاجعة والتصاق حيث يكون «آن» العنصر الذكري و«كى» العنصرى الأنثوى، وينشأ عن ذلك ولد هما «إنليل» ومعناه «سيد الهواء» الذى يولد بينهما ويكبر حتى يقوم بفصلهما تماماً حيث يرتفع الإله «آن» إله السماء إلى الأعلى وتنخفض الإلهة «كى» إلهة الأرض إلى الأسفل.

ثم يقوم الإله «آن» بإخصاب الإلهة «كى» من جديد عن طريق المطر الذى يساهم في تحريكه الهواء وينتج عن ذلك ولادة الإله «إنكى» وهو إله الماء الذى سيملاً الأرض ويصبح أيضاً إله الأرض مع الإلهة «كى».

وبولادة هؤلاء الآلهة الأربعة يكون الكون بمعناه البدئى قد اكتمل حيث تميز الآلهة «آن، كى، إنليل، إنكى» وأصبح كل منهم إلهاً لواحد من أوجه الطبيعة الأربعة «السماء، الأرض، الهواء، الماء»، وهى العناصر الأساسية الأربعة للكون كله.

وهكذا يستمر انتظام الكون بتفاصيله، حيث يظهر الكون السومرى في النهاية طافياً أو سابحاً فوق بحر هيبولى من الماء تمثله الإلهة السومرية الأم «نمو»، أما الكون نفسه فيتكون من خمسة أقسام أساسية هي:

١ - العالم الأعلى «Anunna» وهو الفضاء الذى يعلو السماء، حيث تسكن الآلهة في مقرها الذى يسمى ب«أنونا» الذى يعنى بالسومرية «بذور الحياة الأميرية» ويصعب تفسيره، ولكنه يشير إلى جموع الآلهة في السماء والأرض ويعتقد أن هذا الاسم هو أصل تسمية «أنوناكى» الأكديّة التي حصرت به آلهة العالم الأرضى ثم العالم الأسفل، و«إيجبجى» الذين يمثلون آلهة السماء أى أن

ال«أنونا» السومري كان يضمهما معاً.

٢ - السماء «An» وهى سطح صلب على شكل قبة يحيط قرص الأرض الذى تحتها، ويرى السومريون أنها كانت مكونة من مادة القصدير لأن معنى كلمة قصدير بالسومرية هو «معدن السماء».

٣ - الفضاء «Lil» وهو الفراغ بين السماء والأرض والذى يمتلأ بمادة اسمها «ليل» أى الهواء والتي تدل على الظلمة، كما أنها تدل على النفس والروح، وتسبح فى هذه المادة الكواكب والنجوم المكونة من نفس مادة الهواء إلا أنها مشرقة ومضيئة.

٤ - الأرض «Ki» وهى قرص مدور منبسط يطلقو على محيط مائى حوله وتحتة، وكان السومريون يرون أن هذا المحيط المائى يمتد من الشمال مثل قوس مائى ويسمونه البحر الأعلى وهو البحر الأبيض المتوسط، ومن الجنوب البحر الأسفل وهو الخليج العربى أما البحر الذى تحت الأرض فهو البحر العميق ويسمى «أبسو» حيث يسكن الإله إنكى.

٥ - العالم الأسفل «Kur»، وهو الفضاء الذى يقع تحت الأرض والابسو وتعيش فيه آلهة العالم السفلى، وتسكنه أرواح الموتى من البشر على شكل طيور متربة، ويتكون العالم الأسفل من نهر كبير يحيط به اسمه «خيبر» ومن بوابات سبع، وهناك فى وسطه قصر الإلهة أريشكيغال والإله نركال.

نرجح أن تكون هناك أساطير خاصة تدور حول ولادة كل سلالة إلهية أو مجموعة آلهة، وإذا عدنا ونظرنا فى شجرة أنساب الآلهة «فى الفصل السابق» فإننا سنتخيل عدد الأساطير التى وصفت ظهور الآلهة ونشوتها، ولكن الأساطير الثيوغونية «الخاصة بنشوء الآلهة» ليست وهيرة العدد إلى الحد الذى يتناسب مع حجم الولادات الإلهية عن بعضها كما نراها فى الشجرة.

إن الأبوين الكبيرين للآلهة هما «إنليل» و«إنكى» وهناك أسطورتان

ثيوغونيتان، كل واحدة ترتبط بأحدهما :

١ - الأسطورة الثيوغونية الإنليبية هي أسطورة «إنليل، وننليل وولادة الإله نانا إله القمر» التي تبدأ بوصف مدينة «نفر» ثم تظهر أم الإلهة ننليل وتسمى «ننبار شكونو وهي الإلهة نصابا إلهة الحبوب والمعرفة، والتي تنصح ابنتها بالا تخلع ثيابها وتسبح في النهر خوفاً من أن يراها إنليل،، لكن ننليل تفعل ذلك فيراها إنليل ويفتن بها ثم يأمر وزيره «نسكو» ليجلبها له في قارية، فيجلبها ويضاجعها في القارب ويبذر في أحشائها بذرة الإلهة القمر «نانا»، لكن مجلس الآلهة عندما يعلم بذلك يعتبر ذلك جريمة اغتصاب ويقرر نفي الإله إنليل إلى العالم الأسفل.

وحين يذهب الإله إنليل إلى العالم الأسفل تتبعه ننليل وهي حامل بابنها القمر، وعلى بوابة العالم الأسفل يجد إنليل حارس البوابة فيتخذ هيأته ويأمره بأن يتواري، ويقف هو مكانه كحارس للبوابة، وعندما تجيء ننليل يقنعها إنليل المتكرر بأنها إذا أرادت أن تتخذ بذرة الإله القمر فإنها لابد لها قبول مضاجعته لكي تلد إلهاً يكون بديلاً عن الإله القمر وعند ذاك يمكنها دخول العالم الأسفل دون أن تضحي بولدها فتقبل بذلك.

ويتكرر هذا الأمر لثلاث مرات، وبذلك تلد الإلهة ننليل أربعة أبناء هم الإله القمر نانا، الإله تركال «مسلامتيا» وهو إله العالم الأسفل، والإله ننازو وهو إله الشجرة والـه الطلـب في العالم الأسفل والإله اليجبيل وهو إله النار السفلى.

وبذلك يبقى الآلهة الثلاثة الأخيرون في العالم الأسفل ويصبح من الممكن تحرر الآلهة الثلاثة الكبار إلى العالم الأعلى وهو إنليل وننليل ونانا، لأن أحكام العالم الأسفل تقضى بأن الآلهة إذا نزلوا إلى العالم الأسفل لا يخرجون منه إلا إذا أتوا ببدائل إلهية عنهم يبقون مكانهم في العالم الأسفل.

إن هذه الأسطورة تلقى الضوء على كيفية ولادة أربعة من الآلهة المهمين في

الشجرة الإنليلية وتحمل في داخلها علاقات سببية دقيقة وهي أسطورة محملة بالرموز والمعاني العميقة.

٢ - الأسطورة النيوغونية الإنكية هي أسطورة «إنكى ونخرساج في دلون» والتي تبدأ بوصف «دلون» واستقرار الإله إنكى والإلهة نخرساج فيها وكيف أن هذه الأرض لم يكن فيها الشر والقبح والشيخوخة والمرض، وكان كل شيء موهراً، إلا المياه المذبة التي تذهب أرضها فتطلب الآلهة من إنكى توفير الماء، ويطلب إنكى من إله الشمس «أوتو» ذلك فيضمل ذلك وتتفجر الينابيع والآبار وتظهر الأموار وتستصلح أرض دلون.. وإكمالاً لخصب الطبيعة هذا يقوم الإله إنكى بإخصاب الإلهة نخرساج التي تلد بعد تسعة أيام تعادل تسعة شهور بدون ألم الإلهة نمنسار «سيدة الخضار والنباتات التي تؤكل». وعندما تكبر نمنسار ويراهما أبوها تنتزه على طول الهور يعجب بها ويضاجعها وينجب منها الإلهة «نمو» وهي «سيدة النباتات ذات الألياف» وتكرر الحادثة مع حفيدته الحرام لينجب منها «ننكورا» سيدة الأصباغ التي يضجاعها فينجب منها «أتو» إلهة النسيج التي يضاجعها بعد إغواءات عدة وينجب منها ثمانية أنواع من النباتات التي يقرر إنكى أن يعطيها أسماء فيقوم وزيره «إسمود» بقطع جزء من كل نبتة، وعندما يتذوقها إنكى يطلق على كل واحدة اسماً.

ويبدو أن هذه النباتات المحرمة «بسبب خطايا إنكى المتكررة مع بناته وحفيدته» كانت نباتات سامة. وبسب ذلك تقوم نخرساج بترك إنكى لمصيره المحتوم، ويفعل السم فعله في جسد إنكى ويصبح إنكى مهدداً بالموت، وعند ذاك يحزن مجمع الآلهة، لكن الثعلب يذهب إلى إنليل ويطلب منه مكافأة مقابل أن يستطيع إقناع نخرساج بالعودة، فيعده إنليل أن يزرع له شجرة «كشكانو» وهي شجرة إنكى المقدسة وأن يصبح مشهوراً.

وينجح الثعلب بإقناع نخرساج في عودتها إلى إنكى الذي أصبح مريضاً بثمانية أمراض بسبب أكله من النباتات السامة المحرمة، وتبدأ بفحصه وتسأله

ما الذى يؤله فيعبد لها ثمانى مناطق فى جسده أمرضتها النباتات الثمانية، فتقوم الإلهة بنخرساج بخلق ثمانى آلهة لكل مرض فى الأعضاء السابقة، وهكذا يشفى الإله إنكى من أمراضه، ثم يقوم بتقرير مصير هذه الآلهة الثمانية لمهمات أخرى بالإضافة إلى دورها الطبى والملاجى الذى أثبت جبرواه وهذه الآلهة هى:

- ١ - آيو: أشفى مرض الرأس وأصبح ملك النباتات.
  - ٢ - نسيكلا: أشفت مرض الفك وأصبحت إلهة «مكان» أى عمان والآلهة الحامية لـ«دلون».
  - ٣ - نكبرى: أشفت الأنف وأصبحت زوجة الإله ننازو فى العالم الأسفل.
  - ٤ - نكاسى: أشفت الفم وأصبح إلهة الشراب أو «الإلهة التى تشبع شهوة القلب».
  - ٥ - نازى: أشفت الحنجرة وأصبحت زوجة الإله نندارا.
  - ٦ - أزيمو: أشفت الذراع وأصبحت زوجة الإله نكشزيدا.
  - ٧ - ننتى: أشفت الضلع وأصبحت إلهة الشهور، وكانت هذه الإلهة مصدر الأسطورة التوراتية حول حواء وخلقتها من الضلع لأنها إلهة الضلع والإلهة التى تحيى «حواء» فى الوقت نفسه.
  - ٨ - إينشاج: أشفى المتون وأصبح إله دلون.
- إن هذه الأسطور تلقى الضوء على علاقة إنكى ونخرساج، كما أنها تصف السلالة النباتية للإله إنكى.. وتتضمن بعض رموزها إشارات عميقة تخص أسرار إنكى.
- إن أساطير خلق الإنسان «الأنثريوغونية» السومرية متنوعة وهى إشارات لدى واسع من التصور المثولوجى حول نشوء الإنسان وأصله.

ولعل الأنثروبوغونيا «خلق الإنسان» الطينة المائية التي تجسدها أسطورة «إنكى ونمو وتنماخ وطين الأبسو» هي الأكثر شهرة بينها، حيث تصف هذه الأسطورة الآلهة الصغار العاملين وهم يضجرون من العمل والإرهاق فيذهبون إلى الإله إنكى عساه يجد حلاً لمعاناتهم فيقوم الإله إنكى بخلق الإنسان وينصح أمه الإلهة «نمو» بأن تشرف هي على هذا الخلق وتساعدتها في ذلك الإلهة تنماخ، أى أن الإله إنكى قرر شكل الإنسان وقرر منحه شيئاً من حكمة إنكى أما ولادته فتركها أولاً لإلهات الولادة السبع وللإلهة تنماخ والإلهة نمو.

وفي حفلة إلهية كبيرة تقوم الإلهة تنماخ بصنع ستة أنواع من الإنسان، لكن إنكى عندما فحصهم وجدهم مشوهين فقرر مصائرهم وحملهم في خدمة الآلهة والملوك، ثم قام إنكى بصنع مخلوق بشري اسمه «أومول» ومعناه «يومي بعيد» وكان يعاني من عدة عاهات أيضاً ليحرج «تنماخ» في كيفية تعيين مصيره، وتفضل «تنماخ» في هذا.

ويبدو أن هذه الأسطورة تبين تناقض إنكى وتنماخ في خلق الإنسان وتعيين مصيره، ولكن مادة الخلق كانت من الطين الذي في مياه الأعماق «لأبسو»، وربما أشارت فكرة التشويه إلى نقص الإنسان الأول ومرضه وعدم تكامله.

أما الأسطورة الأخرى فتوضح الأصل النباتي للإنسان، حيث يقوم الإله إنليل بوضع بدايات البشرية «أى بذورها» في شقوق الأرض وبعدها بدأ البشر بالظهور من هذه الشقوق مثل الحشيش، ونرجح أن تكون أصول هذه الأسطورة بعيدة وربما تعود إلى الألف السادس قبل الميلاد، عندما كان أجداد السومريين في المناطق الشمالية من وادي الرافدين حين تعرفوا «مع نهاية عصر السيوليت» على أهمية الهواء والأمطار في عمليات الزراعة ولذلك اكتسب الإله إنليل «الهواء» آنذاك أهمية استثنائية في خلق العالم والإنسان.

وهناك مقدمة التي تشير إلى الأصل الحيواني للإنسان، فقد خلق على جبل الآلهة «آن - كى» الإنسان مثل حيوان يمشى على يدين ورجلين.

والبشر الأوائل لم يعرفوا أكل الخبز بعد

ولم يعرفوا ارتداء الملابس

وكانوا يسرون على أيديهم وأرجلهم

وكانوا كالخراف يملقون الخشيش

ومن القنوات يشربون الماء.

وتُصور لنا هذه الأبيات الإنسان كأنه حيوان، لكن الآلهة تقوم بعد ذلك بإنزال الإنسان من هذا الجبل الكوني إلى الأرض ليتعلم كيف يكون قادراً على الانفصال عن الحيوانات والاستفادة منها.

أما أسطورة الأصل الإلهي للإنسان فتجسده أسطورة الآلهة لمكا، حيث تشير إلى أن الآلهة بعد أن أتمبهم العمل قال لهم الإله إنليل ماذا تريدون فأجابوه: بأنهم يريدون ذبح آلهة لمكا «وهي آلهة العمل» وفي منطقة «أوزموا» في «نقر» ومن دم هذه الآلهة يصنع الإنسان ليقوم بالعمل بدلاً عن الآلهة، وتشير هذه الأسطورة إلى أن آلهة العمل هذه آلهة ثانوية إضافة إلى أنها تعمل لخدمة الآلهة الكبار وبذلك يحمل دمها فكرة خدمة، الآلهة حيث سيكون الإنسان الذي يخلق من هذه الدماء مشابهاً لها. وبذلك تحل مشكلة عمل الآلهة وتعبهم فالإنسان هنا مجرد خادم وعامل من أجل الآلهة. ويرجح أن تكون هذه الأسطورة ذات أصول أكديّة.

وهناك إشارات إلى أن السومريين عرفوا الأنثروبوغونيا اللوغوسية، أي أن الإنسان خلق بمجرد أن نطق الآلهة وقالوا «ليخلق الإنسان» دون مواد أولية كالطين والماء والبذور والدم، حيث نرد في إحدى قصص كلكامش السومرية عبارة «بعد أن تعين اسم الإنسان» وهناك إشارات أخرى، وهذا يعني أن فكرة الخلق من الكلمة تكمن في التراث السومري عميقة قصية.

## ٢- أساطير تنظيم الكون

### Myths of Organization

#### أ- أساطير تنظيم الكون المرتبطة بالإله «إنليل»

ينضوى تحت هذا النوع من الأساطير ما يخص العمل والفصول وتوزيع وظائف الماشية والحبوب ورحلة القمر إلى نقر حيث مكان أبيه.

في أسطورة الفأس يهدى الإله «إنليل» الفأس للشعب السومري هدية ليعملوا بها ويصلحوا أرضهم ويبنوا مدنهم.

«الفأس والسلة تبنى المدن»

الدار الثابتة الأركان بنتها الفأس

الدار الثابتة الأركان أنشأتها الفأس».

وهي أسطورة الصيف الشتاء خلق إنليل «إيميش» ليرعى الصيف و«إنتين» ليرعى الشتاء وصار إيميش يسمى راعي الآلهة وإنتين فلاح الآلهة، لكن تنافساً حصل بينهما فاحتكما إلى الإله إنليل الذي فضّل الفلاحة والشتاء على الرعى، والصيف.

وهي أسطورة مشابهة يخلق إنليل «لاهار» النعجة ويخلق «أشنان» الفلة والحبوب ليخدما حاجات الآلهة لكنهما يتنافسان ويحتكان إلى إنليل فينحاز إلى أشنان إلهة الحبوب على لاهار إلهة النعجة.

وينظر لهاتين الأسطورتين على أنهما من أدب المناظرات السومري «أدمندوكا»، حيث يتضمن حوارهما مفاخرة وتفاضلاً بينهما.

وفى أسطورة رحلة الإله نانا «القمر» إلى نمر يظهر الإله القمر وهو يستعد لزيارة أبيه الإله إنليل فى مدينة «نمر» فيحمل فى مركبة الهلالى الشكل أصناف الأشجار والنباتات والحيوانات ويتوقف خلال هذه الرحلة فى خمس مدن يقوم فيها الإله الحارس لكل مدينة باستقباله والترحاب به حتى يصل إلى مدينة نمر فيفتح له بواب إنليل بيت إنليل ثم يلتقى بأبيه ويطلب منه أن يعطيه فى النهر المياه وفى الحقل القمح وفى الأهوار المشب والقصب وفى بستان النخيل ومزرعة العنب العسل والشراب وفى القصر العمر المديد، فيقوم الأب بإعطائه ما أراد ثم يعود الإله القمر إلى مدينته «أور».

### ب- أساطير تنظيم الكون المرتبطة بالإله «إنكى»

الأسطورتان الأساسيتان فى هذا المحفل هما أسطورة تنظيم سومر وتعيين الآلهة فيها وأسطورة ترتيلة إريدو.

فى أسطورة تنظيم سومر يقوم الإله «إنكى» بإظهار قدرته على إخصاب الأرض والنباتات والحيوانات فى الطبيعة، وعندما يصل إنكى إلى سومر يقرر مصيرها كما يلى:

«يا سومر: أيها البلد العظيم، يا أعظم بلد فى العالم

لقد غمرتك الأضواء المستديمة، والناس من مشرق الشمس إلى مغربها، هم طوع  
شرائعك المقدمة

إن شرائعك سامية لا يمكن إدراكها

وقلبك عميق لا يمكن سبر أغواره

إن... كالسما لا يمكن بلوغها

الملك الذى تلده يزين نفسه بالخلى الدائمة

الرب الذى تلده يضع التاج على الرأس

ريك هو رب معظم، مع «آن» يجلس في المكان المقدس في السماء  
الملك هو الجبل العظيم، هو الأب «إنليل»

بعدها ينظم إنكي مدينة «أور» التي كانت عاصمة سومر في مراحلها الأخيرة، ثم يقوم الإله إنكي بتنظيم وتقرير مصائر مجموعة كبيرة من البلدان والمواقع والأشياء، فيبارك ملوخا، ويعين الإله «أنبيلولو» لنهرى دجلة والفرات ويملاهما بالأسماك، ويُعين الإله «سيرار» حامياً لمياه الخليج العربي والإله «إشكور» حامياً للقلب الفضى في السماء، ويعين الإله أنكيدو مسؤولاً عن المحراث والحقل والخضار، ويعين الإلهة «أشنان» مسؤولة عن الفلة والحبوب، ويعين الإله «كبتا» مسؤولاً عن الفأس وقالب الآجر ويعين أدوات البناء «كوكن» ويعين الإله «مشدما» بناء الإله إنليل مسؤولاً عنها، ويعين «سموكان» ويعين الإله «مشدما» بناء الإله إنليل مسؤولاً عنها، ويعين «سموكان» ملك الجبل مسؤولاً عن نباتات وحيوانات السهول، ويعين «دموزي» مسؤولاً عن الأسطبلات وزرائب الماشية.. إلخ.

أما الأسطورة الثانية فهي رحلة إنكي من إريدو إلى نضر وتسمى «ترتيلة إريدو» التي تبدأ بمديح الإله إنكي وكيف أنه بنى بيته من الفضة وحجر اللازورد في مدينته «إريدو» وحلاه بالذهب، ولكنه يحتاج بعد ذلك إلى مباركة الإله الأعظم إله سومر «إنليل» الموجود في نضر، ولذلك يهيئ قاربه للسفر ويخرج هو من مياه الأبسو التي فيها مقره المسمى ببيت الغور «أى - أنفورا».

وتصف الأسطورة هذا البيت المبني على ساحل مدينة إريدو بالكثير من الجمال والروعة:

ولا يقوى أحد على مراسك

قفلك أسد مرعب

عوايد سفلك نور من السماء اتزياً بشكل وقاد

ستأثرك من اللازورد، حلين للعواميد

.. ثور متوحش، رافع قرنيه

مدخلك أسد يعترض الناس،

كساء بابك أسد مسلط على الناس.

ثم يصل الإله «إنكى» إلى نفر ويجد «إنليل» وقد أقام حفلاً فخماً له بمناسبة بناء بيته ووصله إلى نفر ودعا إليه الآلهة المظام ويشرب الآلهة نخب إنكى وبيته ثم يقوم إنليل بإطراء إنكى، وقد قام البروفسور أ. هالكنشتاين بتحليل هذه الأسطورة ورموزها وما تحتويه من مضامين.



### ٣- أساطير

### تدمير الكون

### Myths of Destruction

فى أعماق الفناج الأسطورى لأى شعب حى نلمح فكرة الأدوار الكونية وهى تعبر عن نفسها فى أساطير الخلق ثم أساطير بناء الكون ثم أساطير نهاية وتدمير الكون ثم إعادة خلقه من جديد.

وهذا الزمن الدائرى الذى يتجدد دورياً إلى ما لا نهاية يحتوى بعد بدايته على «العصر الذهبى» الذى يكون قريباً من «العصر المثالى» وهو زمن التكوين الأول وبعد العصر الذهبى نرى العصر البنائى الذى يتضمن استعادات منظمة للعصرين المثالى والذهبى لإنعاش لحظات التاريخ المتحضرة التى تستقد طاقاتها مع الزمن لتختتم الدورة الكونية بعصر التدمير الذى يكون عن طريق الطوفان أو الحريق أو انفجار العوالم الباطنية كالعالم الأسفل.

ولعل أنسب ما نصف به هذا المسرى هو الصفة الدائرية التى يتصف بها الزمان الكونى، والحق أننا نشهد تكراراً لا نهائياً للظاهرة نفسها «خلق - خراب - خلق جديد».

وإذا كنا فى القسم الأول قد عالجت أساطير الزمن المثالى وهى أساطير الخلق والتكوين، وفى القسم الثانى قد عالجت أساطير الزمن الذهبى وهى أساطير البناء، وفى هذا القسم سنعالج أساطير التدمير التى نرى أنها فى التراث السومرى تنقسم إلى قسمين أساسيين هما:

سائق من اللازورد، حلين للعواميد

.. ثور متوحش، رافع قرنيه

مدحلك أسد يعترض الناس،

كساء بابك أسد مسلط على الناس.

ثم يصل الإله «إنكى» إلى نضر ويجد «إنليل» وقد أقام حفلاً فخماً له بمناسبة بناء بيته ووصوله إلى نضر ودعا إليه الآلهة العظام ويشرب الآلهة نخب إنكى وبيته ثم يقوم إنليل بإطرء إنكى، وقد قام البروفسور أ. هالكنشتاين بتحليل هذه الأسطورة ورموزها وما تحتويه من مضامين.



## أ- الطوفان «أسطورة الدمار القادم من العالم الأعلى»

عُثر على النص السومري للطوفان في مدينة «نفر» وهو بحالة مهشمة فبعد أسطورة السبعة والثلاثين الأولى المحوّة يظهر الإله «إنكى» وهو يريد إنقاذ البشرية من الدمار، ثمّ يتطرق النص إلى خلق الإنسان على يد الإلهين آن وإنليل والإلهة ننغرساج، ثم تأتي فجوة، بعدها يتحدث النص عن نزول الملكية من السماء إلى الأرض وتوزيع السلطات بين الآلهة ليحكم كل إله في مدينة معينة ويأتي ترتيب المدن متفقاً مع لائحة الملوك والمدن السومرية قبل الطوفان مع ذكر اسم إله المدينة.

ويبدو أن مجلس الآلهة اجتمع لسبب غير واضح وقرر هلاك ذرية الإنسان عن طريق الأعاصير والأمطار التي ستسبب الطوفان وأنه لابد من إسقاط الملكية التي منحها الآلهة للإنسان. وكانت هذه الملكية قد استقرت في مدينة شروباك في ذلك الوقت والتي كان يحكمها ملك حكيم اسمه «زيوسدرا» ومعنى اسمه «ابن جمل الحياة طويلة»، فيقوم الإله إنكى بالاتصال خفية بزيوسدرا «ربما عن طريق الحلم» ويخبره بقرار الآلهة تدمير الأرض عن طريق الطوفان وينصحه بصناعة سفينة تتقذه مع أهله ومن يجب.

ثم يأتي الطوفان ويدمر كل شيء.

«وجاءت كل الأعاصير والعواصف المدمرة

واكتسحت الأعاصير العواصف

وبعد أن اكتسحت الأعاصير البلاد سبعة أيام وسبع ليال وجعلت الأعاصير المدمرة السفينة تتأرجح في المياه العالية وعندما انتهى الطوفان، بزغت الشمس فأنارت الأرض والسماء

«وعندئذ فتح زيوسدرا كوة في الفلك

فدخلت السفينة بأشعتها إلى الفلك

فركع زيوسدرا أمام إله الشمس

ونحر الملك «زيوسدرا» أعداداً كبيرة من الفيران والأغنام».

بعدها يركع زيوسدرا أمام الإلهين آن وإنليل اللذين يقومان بمكافأته وإعطائه الحياة الأبدية أى «الخلود» ويسكنانه فى بلد على البحر، فى «دلمون» وهو الفردوس الإلهى الذى عرفناه.

إن النسخة البابلية للطوفان تعتمد جوهرياً على قصة الطوفان السومرية هذه لكن تفاصيلها تزداد وتتشعب «وهو حال أغلب الأساطير البابلية المبنية على أصل سومرى».

### ب- «التنين» أسطورة الدمار الصاعد من العالم الأسفل

الدمار الذى يأتى من العالم الأسفل لا يشبه ذلك الذى يأتى من العالم الأعلى لسببين، الأول: هو أن دمار العالم الأعلى دمار شامل دورى يبدو وكأنه يخضع لإيقاع كونى هائل تقرره الآلهة «الأدوار الكونية». أما دمار العالم الأسفل فهو دمار جزئى لا إيقاع له ولا يأتى بصورة منتظمة وتتفذه تتانين وعفاريت وشياطين كبرى تقبع فى العالم الأسفل.

أما السبب الثانى: فهو أن الدمار الأعلى يتحول إلى نوع من نهاية عالم قديم بال وبداية عالم جديد نشيط، فهو لحظة موت وحياة فى نفس الوقت، أما الدمار الأسفل فلا يشير إلى ذلك بل يدل على وهلة ارتباك أو هوضى فى قوانين العالم ولحظة عدم توازن، وتخلخل وترنج سرعان ما تعود بعدها الحياة إلى سابق عهدها وتواصل ماضيها، فهو أشبه بالإنذار وقرع أجراس الخطر.

وهناك أسطورتان أساسيتان حول التنين السومرى وهما:

## ١ - التتين كور وأساطيره مع الآلهة:

يوصف التتين «كور» بأنه كائن افغوانى كبير يعيش فى قعر العالم الأسفل الذى كان متصلاً بمياه البحر الأولى، ويبدو أن هذا الكائن كان يسيطر على مياه هذا البحر المالحة أو المعدنية. ولذلك فإنه عندما كان يقتل ترتفع هذه المياه إلى الأرض ويتوقف انسياب المياه العذبة ويصيب الأرض القحط حتى تقوم الآلهة بتدبير الأمر وإعادة الأمور إلى نصابها، وكان العالم الأسفل بأكمله يسمى «كور» أيضاً.

إن أسطورة كور مع إنكى التى تأتى فى مقدمة ملحمة كلكامش وإنكىدو السومرية حول العالم الأسفل. والتى تبدأ بخلق الكون وكيف أخذ كور الإلهة أرشكيغال غنيمة واختطفها إلى العالم الأسفل، لكن الإله إنكى جهز قاربه وتبعه فقام كور برمى الحجارة الصغيرة والكبيرة عليه.. ويبدو أن صراعاً بينهما قد حصل، لكننا لا نعرف نتيجة هذا الصراع رغم أن الأساطير الأخرى تخبرنا بوجود الإلهة أرشكيغال فى العالم الأسفل وزواجها من الإله نركال الذى ولد من تنليل فى العالم الأسفل.

الأسطورة الأخرى حول «كور» و«نورتا» وهى أسطورة طويلة تتألف من أكثر من «٦٠٠» سطر، حيث تبدأ بتراتيل دينية ثم يقوم «شارو» وهو سلاح الإله إنليل المتجسد على شكل مساعد أو وزير بمخاطبة نورتا ويمجده أو يحثه على مهاجمة «كور» وقتله، فيستعد نورتا للقاء «كور». وعندما يلاقيه ينهزم أمامه كالطير.. لكن «شارو» لا يهدأ فيقوم بتحريض «نورتا» ثانية بعد أن يحسن استعدادة فيلاقيه ثانية ويهاجمه ويقوم بذبحه.

وبعد أن يموت كور «الذى كان يسيطر على المياه الأولى» تفقد السيطرة على هذه المياه فتترفع بعنف العالم الأسفل إلى سطح الأرض، وبسبب ذلك

يتوقف انسياب المياه العذبة إلى الحقول والبساتين ويدب اليأس في قلوب آلهة الأرض والماملين فيها والمسؤولين عن إروائها وتهيتها للزراعة ويصبح نهر دجلة ساقية ضحلة لا تحمل المياه النافعة.

يتصدى الإله «نورتا» لهذه المشكلة فيضع أكواماً من الحصى على جثة «كور» ويكدسها حتى تتحول إلى ما يشبه الجدار الذى يشكل سداً يصد تدفق المياه القوية من الأسفل، وترتفع نتيجة لذلك المياه النقية الصافية التى حجبتها مياه «كور» القذرة، فيجمع «نورتا» المياه العذبة ويسلطها على دجلة فترتوى المزارع والحقول وتنتج الأرض الغلة والحبوب وثمار النخيل والأعشاب وتتقدس فى الأهراء والتلال، ويسبب هذا راحة الآلهة فتقوم الإلهة ننخرساج «نماخ» التى تبسو وكأنها أم نورتا بزيارته ورؤية ما فعل، ويتفاخر نورتا بأعماله البطولية ويعين ننخرساج ملكة على الجبل الذى صنعه.

لا شك أن هذا الأسطورة تعكس محاولات السومريين لكبح صعود الملوحة إلى الأرض، وهى بذلك تشير إلى مشكلة تدمير الخصوبة والحياة على الأرض أيضاً.

أما أسطورة «كور وإنانا» فهى واحدة من أساطير إنانا وعلاقتها بالعالم الأسفل، حيث تقرر إنانا مصارعة التين كور رغم تحذير الإله أن لها لكنها تتصدى له وترميه بحريته الطويلة وتضرم به النار وتغرس فأسها البرونزى برأسه وتقتله ثم تطأ بقدميها وتحصل على لقب «قاهرة كور».

هذه الأساطير الثلاثة تظهر صراع الآلهة مع الشعبان المائى للعالم الأسفل الذى يرقد على المياه الهيلولية المالحة الأولى، هى تعبر عن صراع ثلاثة آلهة يمثلون بنسب مختلفة صور الخصب، فالإله إنكى إله الخصب والحياة والإله نورتا إله العاصفة الذى له علاقة بالمطر والإلهة إنانا أخذت صورة الخصب

أيضاً، فهي أساطير صراع بين الملوحة والعذوبة وبين الجذب والخصب.

## ٢ - التتين أساج ونورتا:

تكاد هذه الأسطورة أن تكون نسخة محورة من أسطورة «كور ونورتا»، حيث يظهر لنا «أساج» بمثابة الوزير المساعد لـ«كور» وبذلك فإنه يقوم بالقتال نيابة عنه، ومثل ذلك يظهر «شارو» الوزير المساعد والسلاح القوي لـ«نورتا» والذي يحثه على قتال «أساج» ويقوم الصراع بين أساج ونورتا فيهزم نورتا أولاً ثم ينتصر على أساج. فتقيص مياه كور من مكانه ويقيم نورتا الجبل الحجري كسد بين هذه المياه وبين سومر، لكن هذه الأسطورة تغلو من مباركة تنخرساج لعمل نورتا، وتختتم الأسطورة بمباركة نورتا لأعماله البطولية ومدحها.



## ٤ - أساطير إنانا

### Myths of Inanna

تتفرد إنانا «إلهة الحب والجمال وسيدة كوكب الزهرة وإلهة الحرب» بعدد كبير من الأساطير والقصائد والتراثيل.. التي تشكل صفحة مهمة من المثلوجيا والأدب السومري.

ويمكننا تقسيم أساطير «إنانا» السومرية إلى خمسة أقسام على أساس صلة إنانا بـ«الآلهة، دموزي، ملوك سومر، الإنسان، لعالم الأسفل، حيث يوفر لنا هذا التقسيم نوعاً من التناسق مع موضوعات إنانا التي نحتاج برأينا إلى كتاب منفصل.

### أ- إنانا والآلهة العظام

كانت علاقة إنانا بالإله «آن» مثار جدل بين باحثي السومريات وقد اتفقت الآراء على أن إنانا هي ابنة الإله نانا «القمر»، ولكنها بسبب المكانة العظيمة التي حازت عليها ارتبطت بالإله آن في بعض الأساطير كزوجة أو عشيقة، فقد روت أسطورة مدونة باللغتين السومرية والأكدية اسمها «السيدة المتعالية التي هي وحدها العظيمة»، إن الإله آن رفع إنانا، على ضوء طلب الآلهة العظام، إلى مرتبة قرينته «أنتوم» المعادلة لرتبته هو وجعل منها نجمة السماء «لزهرة» وزودها بالإشارات الإلهية المناسبة، ثم منحها الإله إنليل السيادة على الأرض. ويبدو أن الإلهة «إنانا» تحالفت، برغم ذلك، مع أخيها إله الشمس «أوتو» ومع أبيها إله القمر «نانا» وكونوا ثالوثاً كوكبياً مضاداً لإله السماء «آن»، لكنها عندما شعرت بفضل محاولتها تراجعت عن ذلك ووقفت في نهاية الأسطورة مع «آن» وهي تحلم بسيادة السماء.

أما الإله إنليل فلا ترتبط الإلهة إنانا معه بأسطورة معينة سوى ما ذكر في الأسطورة السابقة، ولكنها ترتبط معه بصلة نسب واضحة فهي حفيدته في شجرة الأنساب.

ولعل أشهر أسطورة لإنانا مع الآلهة العظام هي أسطورتها مع الإله إنكى «أسطورة النواميس المقدسة - مى» ويرى صموئيل نوح كريم أن هذه الأسطورة «تتسم بأهمية كبيرة بالنسبة لدراسة تاريخ التطور الحضارى، ذلك لأنها تضمنت قائمة ورد فيها ما يزيد على مئة مرسوم مقدس لتنظيم جميع المنجزات الثقافية التى وضعها الكتاب والمفكرون السومريون، وهذه القائمة على ما تضمنته من تحليل سطحي، قل أو أكثر، فإنها تؤلف السدى واللحمة فى نسيج الحضارة السومرية».

تبدأ الأسطورة بتطلع إنانا لمزيد من الرخاء والرفاهة لمدينتها «أوروك» وتقرر الذهاب إلى مدينة «إريدو» وهى الموطن القديم للحضارة السومرية ومدينة الإله «إنكى» وتذهب إلى الآبسو موطن إنكى فيها، حيث يراها إنكى هناك ويقف مذهولاً بجمالها ويستدعى رسوله «إسمود» ويأمره بأن يقدم لها كعك الشعير مع الزبد والماء المبرد وخمرة التمر فيفعل إسمود ذلك، ويجلس الإلهان مع بعضهما ويسكران، وتحدث إنانا الإله إنكى إن كان يستطيع تسليمها النواميس الإلهية المقدسة فيسلمها لها واحدة بعد الأخرى، بعد أن يفرق فى سكر الخمرة وسكر مفاتها.

وتأخذ «إنانا» النواميس المقدسة «مى» وتضعها فى زورقها المسمى «زورق السماء» وتبدأ بالرحيل على ساحل إريدو إلى أوروك وحين يفتيق إنكى من سكرته يعرف ما حصل فيأمر وزيره «إسمود» بأن يتبعها على مركب ويأخذ معه مخلوقات الدابنكم» ليعودوا بالنواميس، وحين يهجم هؤلاء على زورقها تأمر إنانا وزيرتها «ننشوير» التى تدعوها «ملكة الشرق» بإنقاذ الزورق من هذه المخلوقات فتطلق نشوبير صرخة مدوية تتراجع فيها هذه المخلوقات وتهزم،

وتمضى إنانا بزورقها مارة بعدة موانئ بين إريدو وأوروك ويجهز إنكى حمس حملات أخرى تقودها كائنات «أورو، لاخاما، كوكال كال، أونونون، أتورنكال» وتهزمهم تنشوير حتى يصل الزورق بسلام إلى بوابة ننكولا في أوروك فتعم أوروك الأفراح، ويعلم إنكى بذلك فيرسل وزيره إلى أوروك ثم يذهب هو بنفسه إلى أوروك ليبارك حصول إنانا على نواميس «المى» التى تفرغ من زورق إنانا لتحفظ بها أوروك، ويؤاخى إنكى بين إريدو وأوروك.

وتشير هذه الأسطورة إلى انتقال الحكم والملوكية من إريدو إلى أوروك.

إن المتفحص فى علاقة إنانا مع الآلهة العظام «آن، إليل، إنكى» يلاحظ طموح الإلهة إنانا فى الحصول على مزيد من السلطات الإلهية ورغبتها فى السيطرة على سلطات السماء التى يمثلها «آن» أو سلطات السيادة على الأرض التى يمثلها «إليل» أو سلطات النواميس الإلهية المقدسة التى يمثلها «إنكى». ويمكننا أن نتخذ من هذه الملاحظة مفتاحاً لحل السبب الذى دعا إنانا إلى غزو العالم الأسفل والهبوط إليه، وهو اللغز الذى حير العلماء والباحثين، ويطيب لنا أن نقول إن محاولات إنانا فى السيطرة ونزعاتها الطموحة، بل وطمعها فى الهيمنة على كل شئ، كانت وراء هبوطها للعالم الأسفل، فبعد أن غزت السماء والأرض وسرقت النواميس المقدسة، وكادت تفشل فى كل محاولاتها كان لابد أن تفكر فى غزو العالم الوحيد الذىبقى موحداً أمامها، وبذلك غزته طمعاً فى السيطرة عليه، وليس حياً فى إنقاذ دموزى أو بعث الأموات أو تحرير سجناء العالم الأسفل كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين.

وهكذا بعد أن هددت ملك الآلهة العلويين العظام ذهبت لتهدد ملك إلهة العالم الأسفل «أرشكيغال» وهو ما سنبحثه فى أساطير إنانا والعالم الأسفل.

## ب- إنانا ودموزى

شغلت أساطير إنانا ودموزى العالم القديم بأكمله، وكانت نواة لكل أساطير

الحب والجمال عند الأمم الأخرى، وكان للعلاقة الخاصة بين إنانا ودموزى فى وجهيها المفرح والمحزن الأثر الكبير فى شيوع قصص الحب التراجيدى والداعر عند أشهر عشاق التاريخ والأسطورة فى العالم القديم، بل أننا لنظن أن الطقوس التى رافقت أسطورة إنانا ودموزى كانت فى وجهها الفرغ والنشوان أصلاً لفن الدراما الكوميديّة وهى وجهها النحر والكارثى أصلاً لفن الدراما التراجيدية، وهو ما حصل فى ايونان استمراراً لتقاليد الحب الداعر والدامى التى بدأت فى سومر مع إنانا ودموزى، والتى كانت مستمرة منذ النيوليت والكالكوليت حيث تظهر اختتام عثر عليها فى تبه كورا بمض مظاهر الزواج المقدس.

ولعلنا نمسك سراً ونحى نعثر على الجوهر الخفى الذى دعا إنانا لتوريط دموزى فى الذهاب إلى العالم الأسفل بل ولدفعه إلى مصيره المحتوم كما تقول الأسطورة، وذلك إن تفحصنا لشجرة الآلهة السومرية دعانا للتوقف عند حالة نادرة وحيدة وهى زواج إله ذكر من سلالة إنكى «هو دموزى» لإلهة أنثى من سلالة إنليل «وهو ما ناقشناه سابقاً» فى حين أن القاعدة هى زواج بنات إنكى من ذكور إنليل سواء كانوا أبناء أم أحفاده. لأن سلالة إنليل كانت بصفة عامة ذات نزعة ذكورية ولا بد للذكور فيها من الزواج من إناث أغلبهن من سلالة إنكى، أما زواج إنانا الإنليلية النسب من دموزى ابن إنكى فعالة وحيدة.. كان لا بد لها أن تنتهى بمصير مريك، وقد تحقق ذلك عندما قادت إنانا دموزى إلى العالم الأسفل، وبسبب من جرمه العظيم ومن طبيعة دموزى التى تشوب ألوهيتها صفات بشرية لم يستطع هذا الإله التحرر من العالم الأسفل أو أنه تحرر لمدة بسيطة ليُميد إيقاعاً دورياً فى الهبوط والصعود إلى العالم الأسفل.

تتقسم أساطير إنانا ودموزى إلى قسمين رئيسيين الأول مفرح ونشوان يعالج قصة الحب بينهما ثم زواجهما المقدس والثانى حزين وتراجيدى يعالج قصة موت دموزى ونزوله إلى العالم الأسفل.

## ١ - أساطير وقصائد الحب بين إنانا ودموزى:

يمكننا ترتيب هذه الأساطير والقصائد حسب تسلسل المعنى الذى تقدمه، ولذلك نرى أن القصيدة الأسطورية التى تدور حول المنافسة بين دموزى «الإله الراعى» وإنكمدو «الإله الفلاح» لخطب ود إنانا يمكن أن تكون فاتحة هذه الأساطير والقصائد .

وتبدأ هذه القطعة حين يخاطب الإله الشمس «أوتو» أخته «إنانا» حول الكتان الذى يذر بذوره فى الأرض، وكيف أنه عندما يشمر سيجلبه لها من الثمرة فتسأله إنانا «أخى، بعد أن تجلب لى الكتان من سيجلبه لى» وتستمر سلسلة الأجوبة والأسئلة بينهما حتى يقول لها أوتو بأنه سيجلب لها ملء العرس، فتسأله من سينام معها بعد ذلك، فيقول لها إنه دموزى هو الذى سينام معها فترفض ذلك وتقول له إن إنكمدو هو رجل قلبها فينصحها بأن دموزى هو الأفضل، وتبدأ سلسلة حوارات مفاضلة بين دموزى وإنكمدو أمام إنانا حتى يتأكد لها بأن دموزى هو الأجدر، ويكاد دموزى وإنكمدو يقتتلان، ثم يتصالحان ويدعو دموزى إنكمدو إلى حفلة العرس. ويعد دموزى إنانا أن يجلب لها هدية العرس من حنطة وعدس وغيرها .

وفى قصيدة أخرى تظهر إنانا وهى تتفاخر بأصلها وتهين دموزى فيقول لها دموزى:

«إنانا كُفَى عن المساجلة

إن أبى، إنكى، ليس أدنى محتداً من أبيك نانا

وأسمى سرتور ليست أدنى محتداً من املك نينكال

اختى كشتن أنا مثل أختك

فلنتفاهم يا مليكة القصر .

ثم يذوب الخلاف بينهما وتطلب منه أن يملأ سطح أرضها وآبارها بالماء وأن يحرق الحجر الذي تلف به جسدها المقدس، ثم تنفزل به وخصوصاً بلحيته اللازوردية.

في قصيدة أخرى وبعد أن تنهيا أسباب اللقاء كاملة بينهما تختار إنانا دموزى الإلهية البلاد، وهذا يشير إلى تحول مهم في وظيفة دموزى، فقد كان إلهاً للرعى والإسطبلات ولكنه أصبح إلهاً لأوروك، وبذلك تحولت مهنته من راعى الأغنام والأبقار إلى راعى الناس وملكهم.

وفي قصيدة أخرى تلتبس إنانا موافقة أبيها القمر «نانا» فبعد أن تتزين إنانا بكامل زينتها وتضع عليها الحلى والأحجار تخرج لترى دموزى واقفاً لها على باب حجر اللازورد «باب جيبار» فتُرسل عند ذاك رسالة إلى أبيها تخبره فيها بأنها تريد الزواج من دموزى:

سوف آخذ إلى هناك رجل قلبى

سوف آخذ إلى هناك أما أسمى كال أنا،

سوف يضع يده بىدى

ويضم قلبه إلى قلبى

وضعه اليد باليد - ينعش الفؤاد

ضمه القلب إلى القلب - لذته بالغة الحلاوة.

ثم في قصيدة أخرى، تلتبس إنانا موافقة أمها نكالك بعد أن يأتى دموزى إلى بيتها حاملاً هداياه من اللبن والقشدة والجمعة ليطلب يدها، فتبدى إنانا تردداً هي قبول مجيئه لكن أمه تحثها على الإذن له بالدخول، ثم تقوم الإلهة إنانا بالتحضير لاستقبال دموزى فتقوم بتزيين جسدها وملابسها وتفتح له الباب وتعانقه.

وهناك قصيدة تصف اللقاء السرى بين إنانا ودموزى، حيث يختليان سرّاً تحت ضوء القمر، ولأنها إلهة لعوب، فإنها فجأة تحاول التملص منه وتطلب أن تعود إلى البيت خوفاً من أمها، لكن دموزى يعرف كيف يتعامل معها فيقول لها «سوف أقتلك كيف تكذب النساء» وينصحها بأن تقول لأمها بإنها كانت تفرح مع صديقتها بالفناء والرقص. وتستمر القصيدة وتتحدث عن جارتها التى تتحدث لصلحة دموزى أمام أمها، وكيف أنها سوف ترش الأرضية لاستقباله، وكيف أنها قالت بأن دموزى يليق بحضن إنانا المقدس، وتطلق الجارة نبوءتها بأن دموزى سيصبح صهر نانا.

وهناك عدد من قصائد وأناشيد الزواج المقدس بين إنانا ودموزى يصل عددها إلى اثنتى عشرة قصيدة تمثل أعذب وأقدم قصائد الحب فى التاريخ القديم، وهى مازالت إلى يومنا هذا محتفظة بمديبتها وطراوتها وتدور القصائد حول مراحل أو أوجه من الحياة التى يحيها دموزى وإنانا أثناء وبعد الزواج المقدس.

يهيئ الكهنة «لابسو الكتان» الهيكل ويفسلونه بالماء ثم تدخل إنانا إلى المعبد وتجلس على عرشها أو فراشها المخصب وبعدها يتقدم دموزى نحوها وتعهده إنانا بأنها ستحقق الرفاه للبلاد والناس وسيسود العدل فيطلب منها دموزى أن توزع الشراب والطعام.

وفى معبد إنانا يقوم إله النار «ألجيبييل» بتطهير الفراش المخصب للإلهين ويزينه بحجر اللازورد ويلتمس من إنانا لتبارك دموزى، ثم تقود وزيرة إنانا «ننشوبر» الإله دموزى إلى حضن عروسه راجية أن تباركه وتبارك حكمه لبلاد سومر وما جاورها، وأن يزيد زواجهما خصوبة التربة والأرحام والوفرة للجميع.

وفى قصيدة أخرى نتعرف على طقس المضاجعة ونشيد النكاح، حيث تكون إنانا قد استجمت وارتدت ملابسها ثم تعرض نفسها له وتطلب منه مضاجعتها، وما أن يتم ذلك حتى يتدفق من حضن دموزى «ماء القلب» الذى هو

«منى» دموزى:

«وبمجرد أن تدفق من حوض الملك «ماء القلب»

فعلى جوانبه انبثقت الزروع، وعلى جوانبه نبت الحب:

وبقربه زحرت ينمو نباتها السهوب والروج!

بينما فى بيت الحياة، فى القصر الملكى،

ركنت قرينته إلى جانبه تملأ قلبها البهجة،

فى بيت الحياة، فى القصر الملكى

بقيت إنانا إلى جانبه مكتملة البهجة».

وهناك قصائد أخرى عن سعادة إنانا وهى نائمة قرب دموزى وعن موسيقى مخضنة الحليب التى تجعل إنانا تتهيج وتفرح، وعن إطفاء القمر والتجوم من قبل إنانا «بعد أن أطفئ القمر والنجوم، وأسحب المزلاج.. تعال». وعن الرجل العسل الذى حلقات شعره الجميلة مثل الخس الذى ينمو قرب الماء، وقصيدة عن صدر إنانا المرتفع وقصيدة عن دخول إنانا إلى حديقة دموزى حيث أنتجت له من خصبها الخضار والحب، وقصيدة يمازح فيها دموزى شقيقته كشتن أنا حين يشاهدان مسافرات الجداء والحملان، وبلبال «قصيدة حوارية» حول عودة دموزى إلى القصر بعد المضاجعة وأخيراً القصيدة التى نلمح فيها تهديد إنانا لدموزى رغم ما فيها من الغزل والجنس حيث تقول إنانا:

«يا ابن الملك، أى -أخى ياذا الوجه الجميل -:

لقد أنقذت حياتك، لقد أنقذت حياتك

ولكن ما أنت أصبحت هدفاً لنصير فى منتهى الفسادة!

أنقذت لك حياتك خارج أسوار المدينة، أى أخى

ولكن، ها أنت أصبحت هدفاً لمصير في منتهى القساوة!

أنت الذى لم يستطع العدو بذاته رفع يده ضده،

ها أنت أصبحت هدفاً لمصير في منتهى القساوة.

وتظهر لنا هذه الإشارة معلومة أخرى، إذ يبدو أن دموزى كان قد تعرض إلى الموت على يد أعداء خارج أسوار المدينة لكن إنانا أنقذته.. ويمكن أن تكون هذه الحادثة سبب حبهما ثم زواجهما، ولكنها بعد حين هجرت دموزى وكأنها قد أفاقت، وكان لابد لدموزى أن يواجه المصير من جديد، وكأنها أجلت مصيره لتتمتع معه ثم تعيده إلى هذا المصير خصوصاً أن من صفات إنانا اللهو والعبث والنزوة.

وهناك إشارة أخرى تظهر في نفس القصيدة تدل على مضمون آخر:

«يا أخى، أنا بدون شك شبيت لك مثل هذا المصير

القاسى، يا أخى، ياذا الوجه الجميل

لقد وضعت يدك اليمنى على فرجى

وكانت يدك اليسرى تداعب شعرى

ولمك كان ينضغط على فمى

وعلى فمك كانت شفتاى مضغطتين

ولهذا السبب، أصبحت هدفاً لمصير في منتهى القساوة!

هذا ما سيكون يا «ملتهم» (؟)، النساء، يا أخى».

وهذا سبب إضافى لمصير دموزى المهلك حيث تعترف إنانا أنها كانت السبب في هذا المصير عندما أغوت دموزى بجسدها واندفع دموزى ليمارس معها حباً جسدياً شهوانياً على طريقة البشر وكان يجب أن يبقى محافظاً على

## المستوى الإلهي للعلاقة.

لكننا نتذكر أن الآلهة كانت تمارس حباً جسدياً شهوانياً «كما في أساطير إنليل ونليل، وإنكى وتنخرساج»، ولذلك نرى أن هذه الإشارة تحمل في داخلها معنى آخر وهو أن إنانا كانت إلهة بينما لم يكن دموزى كذلك.

فهل كان دموزى بشراً.. وهل كان هذا هو سبب موته؟

يمكننا القول إن دموزى كان بشراً ولكنه تأله، فهو إنسان مؤله، في حين ذكرت الأساطير بأنه ابن إنكى وقد كان الإنسان يوصف أيضاً بأنه ابن إنكى، ولأن إنانا تمرف أصله، فإنها ندعوه لأن لا ينسى ذلك ويمارس الحب معها كما يمارسه الآلهة فيما بينهم، حتى لو أغوته هي ودعته إلى ذلك.

لقد كانت إنانا تريد منه أن يبقى خارج الشهوة، وأن يمارس الحب معها دون مشاعر حسية ملتبة، كانت تريد ألا تقع هي في أتون هذا الحب الجسدي العارم.. لأنها ببساطة لم تذقه مع الآلهة.. بل ذاقته مع دموزى «الإنسان المؤله».. وكان هذا يدفعها للتفكير بعد ممارسة الحب بأن تتخلص من هذا النوع الحقيقي من الحب، والنوع الملموس.. وهكذا فكرت بالتخلص من دموزى كما سنرى.. ولكنها ندمت أيما ندماً بعد ذلك، فقد كادت تموت من البكاء على حبيبها الذي أضاعته في لحظة غضب أو عمام.

إنه لم يدعها تفكر في الوهيتها عندما كان يمارس الحب معها فهو «ملتهم النساء» كما تصفه، قد كان ينسيتها الوهيتها التي كانت تجرى في عالم المثل لا في عالم الواقع.

## ٢ - أساطير ومراثي دموزى:

بعد أن هبطت إنانا إلى العالم السفلي للاستيلاء عليه وعوقبت بالموت ثم أعيدت للحياة، كان شرط ملكة العالم السفلي لكي تعود إنانا إلى العالم الأعلى أن تجيء ببديل عنها، فاختارت دموزى بديلاً لأنه لم يتأثر بما حصل لها وهي

فى العالم الأسفل وتصف القصيدة كيف رأت إنانا دموزى وهو يجلس على العرش العظيم مرتدياً ملابس الزاهية حيث أمرت شياطين «الكالا» المرافقين لها بالقبض عليه بدلاً عنها وحبسها طلب دموزى من «أوتو» أن يحول ذراعيه إلى ذراعى أفعى وقدميه إلى قدمى أفعى «أى أن يصبح كالحية لا يمسك به» فيتحقق له ذلك ويهرب باتجاه بيت اخته كشتن أنا.

وقبل أن يصل دموزى إلى بيت اخته كان يرثى نفسه بسبب تعرضه لهذا المصير، ثم من شدة تعب نام وحلم حلماً مفزعاً فقد رأى الأسل ينمو حوله بفزارة ورأى قصبة ثائية المنبت اختفى فرعها الأول ثم الثانى ورأى الماء أهرق فوق موقده المقدس ورأى مخضته تتمزق وكأس شرابه يهوى وعصاه تختفى والنسر يخطف حملاً وعزانه تجر لحاها اللازوردية على التراب ورأى حظيرة غنمه تصفر فيها الرياح.

ولما أفاق دموزى من حلمه قص حلمه هذا على اخته ففسرت له كل مشهد بدقة وكان مجمل حلمه يقول بأنه سيموت.

بعدها يقوم دموزى واخته وصديقه بالصعود إلى التل والنظر إلى الطريق وإذا بهم يرون شياطين الكالا قادمين ويحملون خشبة لتقييد الرقبة، فتتصحح اخته بالاختباء وتمعه مع صديقه بأن لا يخبرا الكالا عنه، وحين وصل هؤلاء أغروا اخته ثم عذبوها لكنها لم تخبر عن مكانه، لكن صديقه أغرى بالحبوب كهدية فأهدى الشياطين إليه فقبصوا على دموزى الذى كان يصرخ «شقيقتى أنقذت حياتى.. صديقى سبب موتى» وتذكرنا هذه القصة بخيانة يهوذا للمسيح.

وحيث أحاط الكالا به وضربوه رفع دموزى يده إلى «أوتو» ليحويه إلى غزال، فاستجاب له أوتو وهرب إلى بيت المجوز «بيللى» فالتجأ إليها وصبت له الماء ليشرب والطحين ليأكل ثم غادرت المجوز البيت «ويبدو أنها أهدت شياطين الكالا لمكانه» ويذكر هذا المقطع بالعشاء الأخير للسيد المسيح كما

سنرى، وحين هجم عليه الكالا هرب منهم إلى حظيرة أخته فلحقوه هناك، وحين رأتهم كشتن أنا بكت وخمشت عينيها وفمها وفخذيها، بينما كان الكالا يتسلقون سياج القصب وجدوا دموزى وصربوه وحطموا حظيرته بما فيها، وخلعوا عن جسده رداء الدمى» وهو رداء النواميس الإلهية المقدسة، وخلعوا تاجه المقدس «لتذكر المسيح» وسقط صولجانه المقدس على الأرض وخلعوا نعليه المقدسين ومضى عارياً معهم.

هكذا ذهب معهم إلى العالم الأسفل بدلاً عن إنانا.

ومن هنا تبدأ مراثى إنانا، فقد أفاقت من وهمها، وحلت الفاجعة بأوروك وساد الحزن كل شيء، وأقيمت المناحات في المدينة فبكت إنانا بكاء مرأً على زوجها وبيتها ومدينتها، وبكت معها أمه وأخته «لتذكر المسيح»، وحين تلتقى أخته مع زوجته لا يعرفان مكانه ومن أين ذهب للعالم الأسفل وعند ذلك تظهر الذبابة وتحوم فوق رأس إنانا وتقول «إذا أخبرتك أين هو دموزى ماذا ستقدمين لى» فترد إنانا «إذا أخبرتني سأجعلك تترددين على حانات البيرة والخانات حيث تسمعين أحاديث الحكماء وأغاني المغنين» فتقول الذبابة بأنه هناك على مشارف البرية فتذهب أخته وزوجته إلى هناك ويجدونه في آخر لحظات هبوطه إلى العالم الأسفل فتمسك إنانا بيديه وتقول له:

«ستمضى في العالم الأسفل

نصف السنة

وشقيقتك، حسب إرادتها،

ستمضى النصف الآخر

في اليوم الذي ستدعى أنت،

فى ذلك اليوم سوف يأخذونك .

فى اليوم الذى تستدعى كشتن أنا

فى ذلك اليوم سيطلق سراحك

إنانا أسلمت دموزى إلى يدى الأبدية .

وهكذا ينزل دموزى إلى العالم الأسفل مستسلماً لمصيره حيث يبقى نصف السنة الشتوى هناك، ثم يخرج مع بداية الربيع ويقضى نصف السنة الآخر حيث تكون أخته فى العالم الأسفل بديلاً عنه .

واستمراراً لهذه القصة الحزينة نكملها بأسطورة العجوز بليلى «بليلو» التى تذكرنا بفكرة «العشاء الأخير» فى المسيحية، حيث تبدأ الأسطورة بوصف خطيرة دموزى وما حرى لها ثم تحضر الإلهة إنانا إلى الحظيرة وتقوم بجمع لأغنام المشتتة لدموزى وتصوغ مرثية لدموزى تدعوه فيها أن يبعث وأن يقوم من رقاده .

ثم تصادف فى ذلك المكان عائلة بليلى «التى غدرت بدموزى» وجعلته ينشغل بالماء والطحين ووشت به عند لكالا . وابنها جرجير الذى هو لص ماشية وحيوب وحفيدها «سرو» الفتى الذى لا أصدقاء له، ولأن إنانا تعرف ما فعلت العجوز فقد صبت جام غضبها على هذه العائلة وقتلت العجوز وحولت جلدتها إلى قرية ماء بارد، وجعلت ابنها إلى جانبها يصرخ، وجعلت حفيدها يجوب أرجاء القفر ويسكب الماء ويرش الطحين ثم يقيم محلين للراحة .

ويبدو أن إنانا فعلت ذلك لى تبقى ذكرى «العشاء الأخير» لدموزى المكون من «الماء والطحين» ماثلة فى هذه العائلة وهى هذه الصعراء، وأن يقدم الحفيد الماء والطحين استذكراً لدموزى .

ومن المؤكد أننا لمحا فى أكثر من مكان فى تراجيديا دموزى ومراثيه ما يذكر بقصة السيد المسيح . ولنا وقفة مطولة عند هذا الموضوع فى المستقبل .

## ج- إنانا وملوك سومر

انعكست أسطورة وأناشيد وطقوس الزواج المقدس بين إنانا ودموزى على أعياد رأس السنة السومرية، واتخذ الملوك من الكاهنات العلويات نظيرات لإنانا، وظهرت قصائد حب مذهلة وصلتنا منها لأربعة ملوك هم شولجى الملك الثانى لأور «٢٠٩٣ - ٢٠٤٦» ق.م، والملك شوسين الملك الرابع لأور «٢٠٣٦ - ٢٠٢٨» ق.م، والملك إيدين - داجان ملك مدينة إيسن «١٩٧٤ - ١٩٥٤» ق.م والملك إيشمى داجان ملك مدينة إيسن «١٩٥٣ - ١٩٣٥» ق.م.

وأغلبها يشبه النصوص الأصلية بين إنانا ودموزى.

وانفرد الملك السومرى كلكامش الذى سبق هؤلاء جميعاً بأسطورتين خاصتين مع إنانا هما أسطورة الثور السماوى، وأسطورة شجرة الخولبو «الخلاف».

فى أسطورة الثور السماوى المذكورة فى إحدى قصص كلكامش السومرية تعرض إنانا نفسها على كلكامش فيرفض فتتوسل إنانا إليه آن ليسلط على كلكامش ومدينته الثور السماوى فيفعل ذلك ويتصدى كلكامش للثور السماوى ويصرعه.

أما فى أسطورة شجرة الخولبو فإن إنانا التى تفرس هذه الشجرة فى حديققتها أملاً فى أن تصنع منها كرسيّاً وسريراً، تفاجأ بأن الشجرة بعد أن تنمو مسكونة بطائرة الصاعقة «زو» على أغصانها، وبالشيطانة «ليليث» فى داخلها وبالحية فى قاعدتها فتشكو ذلك إلى أخيها الذى يقترح أن يستجد بكلكامش الذى يقتل الحية ويجعل ليليث وزو يقران منها، ثم يصنع الكرسي والسرير لها وفى مقابل ذلك تقوم إنانا بصناعة طبل الدبكو ومضربة الدمكو لكلكامش من أغصان الشجرة ليستمتع بعزفها.

## د- إنانا والإنسان

تروى أسطورة «إنانا وشوكاليتودا» قصة نزولها من العالم الأعلى لترتاح

وتقام في بستان الفلاح شوكاليتودا الذي يفتن بجمال جسدها فيقوم بمضاجمتها وهي نائمة، وحين تستيقظ إنانا وتشعر بما حصل لها تسلط ثلاث كوارث على الأرض لكي تمثر على الفلاح، الأولى إغراق آبار الأرض بالدم، والثانية إطلاق الرياح المدمرة على الأرض، والثالثة سد طريق البلاد بالماء أو بتفجير أعماق العالم الأسفل، وكان الفلاح في كل مرة يختبئ هرباً من انتقامها ثم يلجأ إلى إنكي الذي تتوسل إليه إنانا لكي يسلمها الفلاح، وحين يسلمه لها تصعد به إلى أعالي السماء وتحوله إلى نجم سماوى. وتصبح ذكراه كما وعدت إنكي على لسان الرعاة وفي قصائد الشعراء تردد في القصص وتروى أسطورة «بيلولو» المشابه لشوكاليتودا أن بيلولو تحول إلى قزم ظل يصغر ويصغر حتى لم يعد له أى وجود واضح.

تبين هاتان الأسطورتان الانتقام الذي وجهته إنانا لمن اعتدى عليها من الناس، وربما لمن اعتدى عليها من الآلهة الصغار، إذا إن هناك رأياً في اعتبار شوكاليتودا وبيلولو آلهة صغار!!

### هـ- إنانا والعالم الأسفل

تحدثنا عن إنانا وكور، أما إنانا وجبل إيببيخ الذي يبدو وكأنه جبل عدو أو شرير، حيث يرفض الخضوع لسلطان إنانا «وكانه مثل عفاريت الأساكو».

أما الأسطورة الكبيرة فهي أسطورة هبوط إنانا إلى لعالم الأسفل التي نتصح بالرجوع إلى نصها في العديد من المراجع التي تبحث في الأساطير.

والخلاصة المركزة للأسطورة تتمثل في رغبة الإلهة إنانا بالسيطرة على العالم الأسفل وحين تهم بالذهاب إلى هناك يطلب منها حارس أبواب العالم الأسفل أن تمتثل لقوانين هذا العالم وأن تخلع في كل باب من أبوابه السبعة شيئاً تلبسه.. وهكذا عندما تدخل الباب السابع تجد نفسها عارية، وحين تصل إلى عرش أختها الإلهة أرشكيغال ملكة العالم الأسفل تنظر هذه إليها نظرة

الموت، هتموت إنانا وتعلق جثتها على عمود منتصب.

وكانت إنانا قد أوصت حكامها الأربعة «ومنهم دموزى» أنها إذا غابت لأكثر من ثلاثة أيام فعليهم أن يحزنوا ويمرغوا أنفسهم بالتراب وطلبت من وزيرتها نشوبير أن تذهب إلى الآلهة «إنليل، نانا، إنكى» ليخلصها أحدهم من الموت، فتقوم نشوبير ووزيرتها الأولى بهذا العمل لكن إنليل ونانا يرفضان مساعدتها أما إنكى فيقوم بصنع كائنين من الطين الذى تحت أظافره، وهما كائنان خنثيان يدخلان إلى العالم الأسفل يحملان طعام الحياة وماء الحياة، وحين ينزل الكائنان إلى هناك ينشران الطعام والماء على جثة إنانا ستين مرة فتستيقظ من موتها، ولكنها لكى تخرج كان يجب عليها أن تقدم بدلاً عنها كما تقضى قوانين العالم الأسفل، وهكذا تخرج إنانا بصحبة جند العالم الأسفل «الكالو» لكى تأتى بديلها.

وحين تذهب إلى مدنها الأربع تجد أن حكام هذه المدن قد حزنوا من أجلها ووضعوا التراب على رؤوسهم إلا دموزى الذى كان يلبس الملابس الزاهية ويعتلى على عرشه ولذلك تختاره بدلاً عنها وتأمر العفاريت المصاحبة لها بأخذه إلى العالم الأسفل.

عند هذا الحد تنتهى أسطورة النزول لكن هناك نصاً آخر يحكى لنا مصير الإله دموزى وجد موزعاً على «٢٨» لوحاً وكسرة تشكل ما تحدثنا عنه فى «أساطير ومراثى دموزى» التى تكمل بقية قصة نزول إنانا إلى العالم الأسفل.



## من الأساطير السومرية أساطير الطوفان

تدور أساطير الطوفان - البابلية والسومرية - حول غضب الآلهة على بنى الإنسان، واتخاذها قراراً بتدمير البشرية دماراً شاملاً، لأنها لم تصن ما منحها الآلهة إياه، بل أخذت تشر الفساد فى الأرض، إلا أن الآلهة - وفق هذا المعتقد - أو بعضهم قد أشفقوا على الجنس البشرى من هذا الفناء، ورأوا أنه من الحكمة البقاء على الصالح منهم دون الطالح، فما كان إلا أن اختاروا أحدهم - وهو بالطبع أشدهم ورعاً - وأوكلوا له مهمة إنقاذ الجنس البشرى، فكان هذا المنقذ هو «زيوسدر» عند السومريين، أو «أوتو - نيبثتم» و«أترا - حاسس» عند البابليين، وسوف نعرض لكل أسطورة من هذه الأساطير.

### أسطورة الطوفان السومرية «زيو - سدر»

لم يصل إلينا عن الطوفان باللغة السومرية سوى نص واحد مدون فى لوح طينى، وقد عثر عليه فى خرائب مدينة «نقر» السومرية، إلا أن هذا اللوح قد وجد فى حالة سيئة، ورغم ذلك فإننا نستطيع أن نعلم الخطوط العريضة لهذه الأسطورة.

وتعرف هذه الأسطورة بين الباحثين باسم ملحمة أو قصة «زيوسدر»، ويعنى اسمه «خالد» أو «ذو الحياة الطويلة»، مثل الاسم البابلى لبطل الطوفان فى ملحمة جلجامش، أى «أوتو - نيبثتم» والذى قابله جلجامش - كما أسلفنا - فى رحلة بحثه عن الخلود.

وتبدأ القصة - كما وردت فى النص - بمقدمة قصيرة - ناقصة - تروى

طرها من قصة الخلق - كما تعرضنا لها سلفاً - حيث الآلهة «آن» و«إنليل» و«إنكى» والإلهة «ننخرساج» خلقوا البشر والحيوانات، ثم أنزلت الملوكية بعد ذلك من السماء إلى الأرض، وقدرت الأقدار والمصائر، وأسست المدن الخمس، وحلت فيها الملوكية، وهى: «دو» و«باد - بيرا» و«لرك» و«سبار» و«شروباك»، ويعقب ذلك انخرام فى النص، يبدو أنه قرار الآلهة بتدمير البشر عن طريق الطوفان، ثم يستقيم النص عند نوح «إنانا» لحزنها على تدمير البشر، فتتخذ الآلهة قراراً بإنقاذ البشر من هذا المصير المأساوى، واختاروا لذلك «زيوسدر» - الملك الصالح الذى يخاف الآلهة - ليكون هو منقذ الجنس البشرى من هذا القضاء، وهى نهاية الأسطورة يمنحه الإلهان «آنو» و«إنليل» الخلود حيث يدخلانه فى مجمع الآلهة، وينقلانه إلى أرض «دلمون» التى تشكل «الفردوس السومرى».

وسنعرض النص بداية من الفقرة التى تحزن فيها «إنانا» لاتخاذ الآلهة قرار الطوفان، ومن ثم تخفيف الآلهة من وطأة هذا الطوفان:

لقد ناحت «إنانا» المقدسة من أجل الناس.

وفكر «إنكى» فى الأمر ملياً.

وهو آنو، و«إنليل» و«إنكى» و«ننخرساج».

وأقسم آلهة الكون باسم «آنو» و«إنليل».

وفى ذلك الحين كان يحكم الملك «زيوسدرا» الممسوح بالزيت.

وكان تقياً ورعاً يكفر من الدعاء والتضرع.

كان يقوم على الدوام خاشعاً.

ولم يكن ما سمعه حليماً.

سمع «زيوسدرا» وهو واقف إلى الجانب الأيسر من الجدار:

وأريد أن أكلّمك فاستمع لكلامى.

وتفهم قولى وإرشادى :  
ستهب عاصفة الطوفان وتجرف المدن والمنازل .  
وأن تدمير نسل البشرية .  
هو القرار المحتوم من مجمع الآلهة .  
إنه القرار الذى أصدره «آنو» و«إنليل» و«ننخرساج» .  
تجمعت كل الرياح والعواصف المدمرة .  
وجرف عباب الطوفان جميع المدن .  
وبعد أن ظل الطوفان يجرف البلاد طوال سبعة أيام وسبع ليال .  
وجرفت العواصف المدمرة السفينة الضخمة وسيرتها فى المياه العالمية .  
أشرقت الشمس وأضاءت الأرض والسماء .  
وأحدث «زيو سدراء» فتحة فى السفينة .  
ودخلت إشعة الشمس إلى السفينة العظيمة .  
وسجد الملك «زيو سدراء» على الأرض أمام الإله «أوتو» .  
وقرب الملك عدداً كبيراً من البقر والضأن .  
وأخذ يدعو بحق السماء والأرض السفلى .  
وتوسل إلى «آنو» و«إنليل» بالسماء والأرض السفلى .  
وأخرجت الحيوانات وتجمعت من الأرض .  
وسجد الملك «زيو سدراء» أمام «آنو» و«إنليل» .  
للذين منحاه الحياة الخالدة مثل الآلهة .

وحافظ الملك وزيو سدراه على ذرية البشر من الفناء.

لقد أسكناه في أرض عبر البحار، في المشرق، في أرض «دلون».

### أسطورة الطوفان البابلية «أوتو - نيشتم»:

ذكرنا في الفصل أسابق - ملحمة جلجامش - كيف أن جلجامش - في

رحلته للبحث عن الخلود، قد تقابل مع «أوتو - نيشتم»، وفي هذا اللقاء نجد أنه

قد أطلع جلجامش على سر الطوفان وهو ما سنعرض له الآن.

قال جلجامش لـ «أوتو - نيشتم» الماصي:

«كلما نظرت إليك يا أوتو - نيشتم».

وجدت هيتك غير محتلفة، فأنت مثلي لا تختلف عني.

أجل، أنت لم تبدل بل إنك تشهني.

وبراك قلبي كاملاً كالطفل على أمة القتال.

فأخبرني: كيف دخلت مجمع الآلهة وحصلت على حياة الخلود؟

فقال «أوتو - نيشتم» لجلجامش:

يا جلجامش سأكشف لك عن سر خفي.

سأبوح لك بسر من أسرار الآلهة.

«شروباك» مدينة أنت تعرفها.

التي تقع على شاطئ نهر الفرات.

لقد شاخت المدينة والآلهة في وسطها.

فمزّم الآلهة العظام وقتلوا على إحداث الطوفان

تشااوروا فيما بينهم وكان معهم أبوهم «أنو».

و«إنليل»، البطل، مستشارهم.  
 و«ننورتا» مساعدتهم، ووزيرهم.  
 و«نوكي» حاجيتهم ورسولهم.  
 وكان حاضراً معهم «نن» - إيكى - كور، أى «ايا».  
 فنقل هذا «يعنى ايا» كلامهم إلى كوخ القصب وخاطبه:  
 «يا كوخ / يا كوخ القصب / يا جدار، يا جدار.  
 اسمع يا كوخ القصب والفهم يا حائط.  
 أيها الرجل «الشروباكى»، يا بن «أوبار» - توتو».  
 قوض البيت وابن لك فلكا.  
 تخل عن مالك وانشد النجاة.  
 انبذ الملك وخلص حياتك.  
 واحمل فى السفينة بذرة كل ذى حياة.  
 والسفينة التى ستبنى.  
 عليك أن تضبط مقاسها.  
 ليكن عرجها مساوياً لطولها.  
 وغطها بسقف مثل سقف «أبسو».  
 ولما وعيت ذلك قلت لربى «ايا».  
 «سمعا يا سيدى، سأنقذ ما أمرتنى به.  
 ولكن ما عسانى أن أقول للمدينة؟  
 ويتم ساجيب الناس والشيوخ».

ففتح «ايا» فاه وقال لى: أنا عبده:  
«قل لهم هكذا: إني علمت أن إنليل ييفضنى.  
فلا أستطيع العيش فى مدينتكم بعد الآن.  
ولن أوجه وجهى إلى أرض إنليل وأسكن فيها.  
بل سأنزل إلى الدابسو».  
وأعيش مع «ايا».  
وأنتم سيمطركم «ايا» بالوفرة والفيض.  
ومن مجاميع الطير، وعجائب الأسماك.  
وفى الماء سيمطركم الموكل بالزرايع بمطر من قمح».  
ولما نورت أولى بشائر الصباح تجمع البلد حولى.  
حملوا إلى أضاحى الأغنام العالية.  
وأحضروا إلى أضاحى من ماشية مراعى البرارى.  
.. «تشوه فى سطين».  
جلب إلى الصغار منهم القار.  
وحمل الكبار كل الحاجات الأخرى.  
وفى اليوم الخامس أكملت هيكल السفينة.  
وكان سطح أرضها «ايكو» واحداً وعلوا جدرانها مائة وعشرين ذراعاً.  
وطول كل جانب من جوانب سطحها الأربعة مائة وعشرون ذراعاً.  
حددت شكلها الخارجى هكذا:  
جعلت فيها ستة طوابق وسفلية».

وبهذا قسمتها إلى سبعة طوابق.  
 وقسمت أرضها إلى تسعة أقسام.  
 وحشوتها وغرزت فيها أوتاد الماء.  
 ووضعت فيها المرادى وجهازها بالمؤن.  
 سكبت ستة «شارت» في الكرة.  
 سكبت أيضاً ثلاثة شارت من القطران.  
 وجلب حاملو السلال ثلاثة «شارت» من السمن.  
 بالإضافة إلى شار واحد من السمن لحشو أوتاد الماء.  
 و«شارين» من السمن اختزنهما الملاح.  
 ونحرت البقر وطبختها للناس.  
 ونحرت الأغنام كل يوم.  
 وقدمت عصير الكرم والخمر الأحمر والأبيض والسمن.  
 إلى الصناع ليشربوها بكثرة كماء النهر.  
 ليقيموا الأعياد كما في أيام رأس السنة.  
 ومسحت يدي بسمن الزيت.  
 وتم بناء السفينة في اليوم السابع.  
 وكان إنزالها «إلى الماء» أمراً صعباً.  
 فكان عليهم أن يبدلوا ألواح القاع في الأعلى وفي الأسفل.  
 إلى أن غطس في الماء ثلثاها.  
 وحملت فيها كل ما أملك.

وكل ما عندي من فضة حملته فيها .  
وحملت فيها كل ما عندي من ذهب .  
وحملت فيها كل ما كان عندي من المخلوقات الحية .  
أركبت فيها جميع أهلي وذوي قرباي .  
أركبت فيها حيوان الحقل وحيوان البر .  
وجميع الصناع أركبتهم فيها .  
وحارب لي الإله «شمش» موعداً معيناً حيث قال :  
«حينما ينزل الموكل بالعواصف في المساء مطر الهلاك .  
فادخل في السفينة وأغلق بابك» .  
وحل أجل الموعد المعين .  
وفي الليل أنزل الموكل بالعاصفة مطراً مهلكاً .  
وتطلعت حالة الجو فكان مكفهرًا مخيفاً للنظر .  
فولجت في السفينة وأغلقت بابي .  
وأسلمت قيادة السفينة إلى الملاح وبوزر - آمودي .  
أسلمته الهيكل العظيم بكل ما فيه من ثروات .  
ولما ظهرت أنوار السحر .  
علت من الأفق البعيد غمامة سوداء .  
وفي داخلها أُرعد الإله وأدب .  
وكان يسير أمامه «شلات» و«خانيش» .  
وهما ينذران أمامه في الجبال وفي السهول .

ونزع الإله «إيراكال» الأعمدة .  
ثم أعقبه الإله «ننورتا» الذى فتح السدود .  
ورفع الدانوناكيء المشاعل .  
وجعلوا الأرض تلتهب بوهج أنوارها .  
وبلغت رعود الإله «أدد» عنان السماء .  
فأحالت كل نور ظلمة .  
وتحطمت الأرض الفسيحة كما تنحطم الجرة .  
وظلت زوايع الريح الجنوبية تهب يوماً كاملاً .  
وازدادت شدتها حتى عطت الجبال .  
وفتكت بالناس كأنها الحرب العوان .  
وصار الأخ لا يبصر أخاه .  
ولا الناس يميزون فى السماء .  
وحتى الآلهة ذعروا من عباب الطوفان .  
فابتعدوا وصعدوا إلى سماء «أنو» .  
وانكمشوا كالكلاب الخائفة ورضوا فى أسى .  
فصرخت «عشتار» كالمرأة فى مخاصها .  
انتحبت سيدة الآلهة وناحت بصوتها الشجى نادية :  
«وا حسرتاه» ! لقد عادت إلى طين تلك الأيام القديمة .  
لأننى نطقت بالشر فى مجمع الآلهة .  
فماذا دهانى إذ نطقت بالشر .

لقد سلطت الدمار على الخلق .  
دمار من أعطيتهم أنا الميلاد .  
لقد ملأوا ليم كبيض السمك .  
وبكى معها آلهة الدانوناكي .  
جلسوا يتذبذبون وينوحون .  
وقد يستشفاهم .  
سنة أيام وسيع أمسيات .  
وزوابع الطوفان تعصف وقد غطت الزوابع الجنوبية البلاد .  
ولما حل اليوم السابع خفت وطأة الزوابع .  
وكانت قبلها كالجيش المخارية .  
ثم هذا البحر وسكنت العاصفة وغيض عباب الطوفان .  
وتطلعت إلى الجو، فوجدت السكون عاماً .  
ورأيت البشر وقد عادوا جميعاً إلى طين .  
وكالسقف كانت مياه الغدران مستوية .  
فتحت كرة طاقتي فسقط النور على وجهي .  
سجدت وجلست أبكي .  
فانهمرت الدموع على وجهي .  
وتطلعت إلى حدود سواحل البحر .  
فرأيت جزيرة وهي تعلو مئة وأربعين ذراعاً .  
واستقر الفلك على جبل ونصير .

أمسك جبل «نصير» بالسفينة ومنعها من الحركة .  
 ومضى يوم ويوم ثانٍ والجبل ممسك بالسفينة فلم تجر .  
 ومضى اليوم الثالث والرابع والجبل ممسك بالسفينة .  
 ومضى اليوم الخامس والسادس والجبل ممسك بالسفينة .  
 ولما حل اليوم السابع .  
 أخرجت حمامة وأطلقتها فى السماء .  
 طارت الحمامة ولكنها عادت .  
 رجعت لأنها لم تجد موضعاً تحط فيه .  
 وأخرجت السنونو وأطلقته .  
 ذهب السنونو وعاد لأنه لم يجد موضعاً يحط فيه .  
 ثم أخرجت غراباً وأطلقته .  
 فذهب الغراب ، ولما رأى المياه قد قرت وانحسرت .  
 أكل رحام وحط ولم يعد .  
 عند ذلك أخرجت كل ما فى السفينة إلى الجهات الأربع .  
 وقربت قرباناً .  
 وسكبت الماء المقدس على قمة الجبل .  
 ونصبت سبعة وسبعة قدور للقربانين .  
 وكدست أسفلها القصب وخشب الأرز والآس .  
 فتنسم الآلهة شذاها .  
 أجل تشمم الآلهة عرفها الطيب .

فتجتمع الآلهة على صاحب القربان كأنهم الذباب .  
ولما حضرت الإلهة العظيمة «عشتار» .  
رفعت عقدها الذى صنعه «أنو» وفق رغباتها وقالت :  
«أيها الآلهة الحاضرون ، كيما لا أنسى هذا العقد اللازوردى .  
الذى يزين عنقى .  
فإنسى لن أنسى هذه الأيام قط وسأذكرها دوماً .  
تقدموا جميعاً وقربروا من هذه الذبيحة .  
إلا «إنليل» وحده لن يقترب .  
لأنه سبب الطوفان دونما ترو .  
وأسلم شعبى للدمار» .  
ولما أن جاء «إنليل» وأبصر الفلك غضب .  
وامتلأ حنقاً على آلهة «الايكيكى» ، وقال :  
«عجبا ، كيف لمحت نفس واحدة ،  
وكان المقدر ألا ينجو بشر من الهلاك ؟  
ففتح الإله «نورتا» فاه وقال مخاطباً البطل «إنليل» :  
«من ذا الذى يستطيع أن يدير مثل هذا الأمر غير «ايا» ؟  
أجل ، إن «ايا» هو الذى يعرف خفايا الأمور» .  
وعندئذ فتح «ايا» فاه وقال مخاطباً «إنليل» البطل :  
«أيها البطل ، أنت أحكم الآلهة .  
فكيف لم تترو فأحدثت عباب الطوفان ؟

حمل الخطي زور خطيئته .  
 وحمل المعتدى إثم اعتدائه .  
 ولكن ارحم «الخطي والمعتدى» لنلا يهلك .  
 وتشدد «في عقابه» لنلا يمعن في الشر .  
 ولو أنك بدلاً من إحداثك الطوفان .  
 سلطت السباع على الناس فقللت من عددهم .  
 ولو أنك بدلاً من إحداثك الطوفان .  
 سلطت الذئاب فقللت من عدد الناس .  
 وبدلاً من الطوفان لو أنك أحللت القحط في البلاد .  
 وبدلاً من الطوفان لو أن «أيرا» فتك بالناس .  
 أما أنا فلم أفسد سر الآلهة العظام .  
 ولكنني جعلت «أترا - حاسس» يرى رؤيا .  
 فأدرك سر الآلهة .  
 والآن تدبر أمره وقرر مصيره .  
 ثم صعد «إنليل» فوق السفينة .  
 وأمسك بيدي وأركبني معه في السفينة .  
 وأركب معي أيضاً زوجي وجعلها تسجد بعجانبي .  
 ووقف بيننا ولمس ناصيتينا وباركنا قائلاً:  
 «لم يكن «أونو» - نيشتم» قبل الآن سوى بشر .  
 ولكن منذ الآن سيكون هو وزوجه مثلنا نحن الآلهة .

وسيعيش «أوتو» - نبشتم» بعيداً عن دهم الأنهار».

ثم أخذوني بعيداً وأسكنوني في دهم الأنهار».

### أسطورة «أترا» - حاسس»

هذه الأسطورة أو الملحمة عبارة عن قصيدة بابلية مطولة نوعاً ما، إذ يبلغ عدد أبياتها نحو ١٢٠٠ بيت موزعة على ثلاثة ألواح، ويرجح أن يكون اسم «أترا» - حاسس» صفة مركبة تعني المتناهي في الحكمة»، وهي ذاتها صفة لبطل الطوفان «أوتو» - نبشتم».

وتبدأ الرواية بمقدمة تصف حياة الآلهة قبل خلق الإنسان، ثم اتخذهم قراراً بخلق من يعينهم ويوفر لهم حاجاتهم، وبعد ذلك تعرض الرواية كيف كثر عدد البشر حتى أن ضوضاءهم وضجيجهم أزعج الإله «إنليل» بحيث إنه حرم من النوم والراحة، فقرّر أن يسلط عليهم الطاعون حتى يقلل من عددهم، ويظل يسلط عليهم الآفات حتى ينزل عليهم عقاباً شديداً وهو الطوفان، وسنبدا بعرض نص الملحمة بداية من اللوح الثاني:

لم تكن تمضي ستمائة وستمائة عام.

حتى اتسعت البلاد وتكاثر الناس.

وصارت البلاد تجار وتخور كالشور.

فانزعج الإله بضوضائهم وصخبهم.

لقد سمع «إنليل» صخبهم وضجيجهم.

لخاطب الآلهة العظام وكلمهم قائلاً:

«إن ضوضاء البشر قد ثقلت علي فلا أحملها.

لقد حرمتني ضجيجهم النوم.

فلتنقطع المزن عن الناس .  
 ولتحل الندرة فى النباتات .  
 حتى لا تكفيهم سد جوعهم .  
 وليحس الإله دأده أمطاره .  
 ولينقطع ارتفاع مياه العمق من الأسفل .  
 ولتهب الرياح اللافة فتحرق الحقول .  
 ولتكاثف السحب ولكن ليمتنع مطول الأمطار .  
 ولتنقص الحقول من غلالها .  
 ولتوقف الإلهة «نسابا» نتاج ثدييها .  
 ولتزل الأفراس من بينهم .  
 باقى الأسطورة مخرومة، وحينما يصبح النص واضحاً، تبدأ أوامر الإله «إيا» «إنكى» على الوجه الآتى:

وليعلم المادون بأصوات عالية فى البلاد:

لا تبجلوا آلهتكم .  
 ولا تصلوا لآلهتكم .  
 بل اقصدوا باب الإله دأده .  
 وخذوا معكم رغيف خبز إليه .  
 ولعل قرابين السمس ستره .  
 فيخجل من قرابينكم ويرفع يده عنكم .  
 ولعله سينزل طلا وضبابا فى الصباح .

وينزل الطل خلسة في السماء .

فتنتج الحقول الغلال خلسة .

لقد أقاموا في المدينة معبداً للإله «أدد» .

ولم يبجلوا آلهتهم .

ولم يصلوا لآلهتهم .

بل قصدوا باب «أدد» .

وقدموا إليه رغيفاً من الخبز .

وسر بقریان طعام السمسم .

واستحى مما قدم له وكف عن الأذى .

وفي الصباح حل الضباب .

وأمطر طلاً في المساء خلسة .

وتنتجت الحقول الغلال خلسة .

ونعرض الآن للوح الثالث الذي يتضمن رواية الطوفان، وتبدأ بسؤال «أترا -  
حاسس» لإنكى عن تفسير الرؤيا التي رآها في منامه، فيقوم «إنكى» بتفسيرها  
ويخبره بما عليه أن يفعل حتى ينجو بحياته .

فتح «أترا - حاسس» فاه .

وخاطب سيد قائلأ :

«عبر لى عن معنى الرؤيا .

حتى أعرف مغزاها ونتيجتها» .

ففتح إنكى فاه ، وقال مخاطباً عبده :

وأنت تريد أن تعرف مغرى الرؤيا .  
فانتبه إلى المعنى الذى سأبلغك به :  
يا حائط / اسمعنى يا حائط .  
يا كوخ القصب ، تفهم كلماتى .  
انقض بيتك وابن لك فلكا .  
انبذ المال وانح بحياتك .  
والسفينة التى ستبنى .  
«الأسطر ٢٦ إلى ٢٨ مخرومة»:  
سقمها واحكم بناءها كمياء الأيسو .  
بحيث لا ترى الشمس دخلها .  
واحكم سقمها من الأعلى والأسفل .  
ولتكن حبالها متينة قوية .  
وليكن القبر ثخيناً لتكون السفينة قوية .  
أنا سأمطركم بوافر من الطيور والأسماك .  
لقد فتح «أترا - حاسس» الساعة المائة وملاها .  
لقد بلغه بوقوع الطوفان لليلة السابعة .  
انصاع «أترا - حاسس» للأمر .  
وجمع الشيوخ عند بابه .  
وفتح «أترا - حاسس» فاه وخاطب الشيوخ قائلاً:  
«إن إلهى على خلاف مع إلهكم .

إن إنكى، وإنليل، غاضب أحدهما على الآخر.  
لقد أخرجانى وطردانى من بيتى.  
ولأننى أخص إنكى بالمبجل.  
فإنه أخبرنى بالأمر.  
ولذلك فلن أستطيع العيش فى مدينتكم.  
ولا أستطيع أن أضع قدمى على أرض إنليل.  
«عدة أسطر مخرومة تتضمن جمع العمال والنجارين وتهيئة المواد  
لصنع السفينة»:

.....

كل ما عليك ... ..

ومن الحيوانات الطاهرة.....

والحيوانات السمينة....

وأطياف السماء... والماشية وحيوان البر.. اجمعها فى السفينة.

دعا الناس.... إلى وليمة.

واركب عائلته فى السفينة.

أكلوا وشربوا.

وكان يدخل ويخرج على الدوام.

ولا يستطيع الجلوس ولا النوم.

لأن قلبه قد تحطم، وصار يتقيا الحرارة،

وتبدلت هيئة الحجر.

وأرعد الإله «أدد» في السحاب .  
وحالماً سمع «أترا - حاس» صوت «أدد» .  
أحضر القير ليسد بابه .  
ويعد أن أغلق بابه .  
كان «أدد» لا يزال في السحاب .  
وازدادت الرياح في شدة هبوبها حينما استيقظ .  
فقطع المرساة وأطلق السفينة .

... ..

«عدة أسطر مخرومة»:

وصار الطائر «أتروا» يمزق السماء بمخلبه  
لقد حطم صوته .. كما تحطم الجرة  
..... وجاء الطوفان  
وفتك في شدته بالناس كالحرب العوان  
وصار الأخ لا يرى أخاه  
ولم يكن الناس ليميزوا من هول الهلاك  
وخار عباب الطوفان كالثور الوحشي  
وكان صوت الطوفان كنهيق الحمار  
وغطي الناس الظلام الدامس ، ولم تظهر الشمس

.....

«عدة أسطر مخرومة»

استشاط «إنكى» غضباً  
وهو يرى أبناءه يسحقون ويهلكون  
«ونتو» السيدة العظيمة  
يبست شفتها من الحرارة  
والدأنوناكى، الآلهة العظام  
جلسوا وهم عطشى وجياع  
وبكت الآلهة وهي تشاهد الكارثة  
وقالت الحكمة «مامى»، قابلة الآلهة:  
«ليعم الظلام النهار، وليعم البؤس والشقاء  
وأنا فى مجلس الآلهة  
ماذا دهانى أنى قررت معهم الهلاك والدمار  
لقد تجاوز إنليل المدى فى الشر والهلاك  
ومثل شيطان «تريرو»، أمر بالشر والدمار  
وأوقعت الأذى بنفسى عندما أصفيت إلى ضروائهم  
وإن فريتى - وقد قطعت عنى - غدت كالدهاب  
وأنا أصبحت كالساكنة فى بيت الندب والبكاء  
فلا يسمع نحيبى وعويلى  
فهل سأرقى إلى السماء  
وكأنى سأعيش فى بيت الكنز؟  
إلى أين ذهب كبيرهم «أنو»؟

وآنوه الذى يطيع أمره أبناؤه الأقداس.  
 إنه الذى لم يترو فأحدث الطوفان  
 وأسلم الناس إلى الهلاك والفناء  
 «عدة أسطر مخرومة»  
 لقد ملأوا النهر كأنهم اليعاسيب  
 صاروا كالأرماث الطائفة فى النهر  
 لقد شاهدتهم وبكى من أجلهم  
 أجل، انتحبت من أجلهم  
 حتى استنفذت رثائى وندمى من أجله  
 لقد ناحت ومنتوه بكل حرارة عاطفتها  
 وبكى الآلهة معها من أجل البلاد  
 لقد ملكها الحزن وأصابها الظمأ إلى الجمعة  
 وحينما جلست جلسوا معها ليكون  
 وملأوا الخوض كأنهم الغنم  
 ويبست شفاهم من شدة الظمأ  
 وحل بهم الضعف والشلل من شدة الجوع  
 وطول سبعة أيام وسبع ليال  
 عم الطوفان والزوايع  
 «نحو ٢٧ سطرأ مخرومة، ونحو ٢٩ سطرأ من الحقل التاسى»  
 .... إلى الرياح الأربع

وجهاز الطعام...  
وشم الآلهة طعام الوليمة  
فتجمعوا كالذباب على القرايين  
نهضت «نتوء»، وهى غاضبة على الجميع فقالت:  
إلى أين ذهب «آنوه» كبير الآلهة؟  
هل حضر «إنليل» إلى البخور والقرايين؟  
إنهما اللذان لم يترويا فأحدثا الطوفان  
وسلطا الدمار على الناس،  
لقد أرادا الهلاك الشامل؟  
والآن غدت وجوههم النظيفة كدرجة مغبرة  
ثم أمسكت بالذباب الكبير  
وهى التى صنعها لها «آنوه» وكانت تحملها  
وقالت: إن حزنه حزمى، والآن قرر مصيرى  
ليخلصى من هذا الحزن والغم  
وليكن هذا الذباب أحجار اللازورد التى فى عنقى  
لأتذكر بها كل يوم وإلى الأبد.  
شاهد البطل «إنليل» السفينة  
واستشاط غضباً على آلهة الدايككى، وقال:  
نحن آلهة الدانوناكى، العظام  
لقد قررنا وأقسمنا بذلك

فكيف نجا بعض الأحياء؟ !  
 وكيف سلم الإنسان من الهلاك  
 ففتح «أنو» فاه وخاطب «إنليل» قائلاً:  
 من غير إنكى من يستطيع أن يفعل ذلك؟  
 أنا لم أفسد سر القرار  
 ففتح إنكى فاه وخاطب الآلهة العظام قائلاً:  
 ولقد فعلت ذلك حقاً بمحضركم  
 أنا المسؤول عن نجاح الحياة،  
 «عدة سطور مخرومة»  
 فليعاقب المذنب بوزر ذنبه  
 وكل من يخالف أوامرك  
 ففتح «إنليل» فاه وخاطب «إنكى» قائلاً:  
 هلم ! احصر «ننتو» إلهة الولادة  
 أنت وهى قد حضرتما الاجتماع  
 .....

وهنا ينخزم النص، ولكن الأسطر القليلة الباقية تنتهى بها الملحمة بخلق  
 الإلهة «ننتو» صنفٌ ثالثاً غريباً من البشر هو جنس الإناث اللواتى لا يحملن،  
 وخلق أنواع من الشياطين.



## أسطورة إنانا ودموزى

### من هو «دموزى»

سبق وتعرفنا على «إنانا» (عشتار عند الأقوام السامية) فى الفصل السابق، والآن نلقى بعض الضوء على «دموزى» الذى عرف فى «المهد القديم» باسم تموز.

دموزى هو إله الحظائر والرعى فى سومر، وينتسب إلى شجرة الإله «إنكى» ويجب عدم الخلط بين «دموزى» وبين «دموزى أبسو» الذى هو الابن البار لمياه الأعماق، أى أنه إله مائى، و«دموزى إشكمال إنا» الذى هو قوة إخصاب النخيل وهو إله نباتى، فى حين أن دموزى الذى نعينه هو الإله الراعى الذى يرتبط بالماشية، عبد هذا الإله فى مدينة «باد - تيبيرا» كإله للخصب وتجديد الحياة وهذه الصفات تعود لإنكى، ولكن صفات الخصب وأشكال دموزى السابقة اختلطت مع بعضها حتى صار هذا الإله يلقب بعدة ألقاب مثل «الثور الوحشى»، الخصب فى عناقيد التمر، محرك الأجنة فى الأرحام، منتج الحليب فى الثدياء».

ويعتقد الباحثون أن أصل الإله دموزى هو أصل بشرى حيث حكم مدينة «باد - تيبيرا» قبل الطوفان ثلاثة ملوك كان ثالثهم هو «دموزى الراعى» ولهذا الملك - أو الإله - حكاية تراجيدية - سنعرض لها فى هذا الفصل - مع «إنانا» سببت له كل هذه الشهرة وتناقلت الأجيال قصته، حتى نقل إلينا كإله عاشق للإلهة إنانا - وكان رمز الإله دموزى على شكل جذع نخلة يعلوها رمز الألوهية المكون من ثمانية أشعة.

أوتو يقنع إنانا بالزواج من دموزى

أوتو هو أخو إنانا، وهو إله الشمس، هذا الجزء من الأسطورة يتعلق بصنع مخدع الزوجية الخاص بالإلهة «إنانا»، وإقناع أوتو للإلهة إنانا بالزواج من دموزى «الراعى» وأن تلتفت عن «إنكىمدو»، الفلاح، وهذا الجزء يدور فى صورة حوار بين «أوتو» و«إنانا» على النحو التالى:

أيتها الملكة العظيمة، الكتان المصقول الفاخر.

إنانا، الكتان المصقول الفاخر.

شقيقتى، أنت عندك ما بكفيك من الأشجار الباسقة.

سوف أعزق من أجلك، وأعطيك النبات.

شقيقتى لسوف آتيك بالكتان المصقول.

أى شقيقتى، بعد أن تكون آتيتنى بالكتان المصقول.

من سوف يمشطه لى؟ من سوف يمشطه لى؟

ذلك الكتان، من سوف يمشطه لى؟

أى شقيقتى، لسوف آتيك به ممشوطاً.

إنانا، سوف آتيك به ممشوطاً.

من سوف يغزله لى؟ من سوف يغزله لى؟

ذلك الكتان من سوف يغزله لى؟

أى شقيقتى، لسوف آتيك به مغزولاً.

إنانا، لسوف آتيك به مغزولاً.

أى شقيقتى، بعد أن تكون آتيتنى به مغزولاً.

من سوف يوشيه لى، من سوف يوشيه لى؟

ذلك الكتان، من سوف يوشيه لى؟

أى شقيقتى، لسوف آتيك به موشى.

إينانا، لسوف آتيك به موشى.

أى شقيقتى، بعد أن تكون آتيتنى به موشى.

من سوف يبرمه لى؟ من سوف يبرمه لى؟

ذلك الكتان، من سوف يبرمه لى؟

أى شقيقتى، لسوف آتيك به مبروماً.

إينانا، لسوف آتيك به مبروماً.

أى شقيقتى، بعد أن تكون آتيتنى به مبروماً.

من سوف ينسجه لى؟ من سوف ينسجه لى؟

أى شقيقتى، لسوف آتيك به نسيجاً.

إينانا، لسوف آتيك به نسيجاً.

أى شقيقتى، بعد أن تكون آتيتنى به نسيجاً.

من سوف يدبعه لى؟ من سوف يدبعه لى؟

ذلك الكتان، من سوف يدبعه لى؟

أى شقيقتى، لسوف آتيك به مدبوغاً.

إينانا، لسوف آتيك به مدبوغاً.

هنا فقط نعلم الغرض من هذا الحوار، وذلك حين تطرح إنانا «أو إينانا»

لسؤال الذى يدور فى رأسها :

أى شقيقى ، بعد أن تكون آتيتنى به مذبوحاً .

من سوف ينام فى الفراش معى ، من سوف ينام فى الفراش معى ؟

عن ذلك استساؤل يجيب «أوتو» بلا تردد، إنه «دموزى» الذى سوف يكون  
زوجاً لها :

معك سوف ينام فى الفراش ، سوف ينام فى الفراش

معك زوجك سوف ينام فى الفراش

أوشوم جال - أنا سوف ينام فى الفراش معك .

كولى - إنليل سوف ينام فى الفراش معك .

هو الذى طلع من الرحم الخصيب ، سوف ينام فى الفراش معك .

البنة التى أنجبت ملكاً ، سوف تنام فى الفراش معك .

لكن «إنانا» تعترض وتمضل الفلاح على الراعى :

يل رجل قلبى هو .

رجل قلبى هو .

الذى فار بقلبى هو .

الذى لا يحرق - ومع ذلك - العنابر عارمة .

الحب يجلب بانتظام إلى المخازن .

الفلاح - حبه يملأ جميع العنابر .

يلح «أوتو» على شقيقته «إنانا» أن تتزوج من الراعى «دموزى» دون الفلاح .

أى شقيقتى ، تزوجى من الراعى .

أى إبنانا العذراء، لم أنت راغبة عنه؟

قشدته طيبة، ولبنه طيب.

الراعى - ما لمس - بيده - شيئاً إلا سطم

أى إبنانا، تزوجى من الراعى، الذى يتزين بحجر «أوتو» وحجر «شويا» لم أنت

راعبة عنه.

قشدته الطيبة سوف يأكلها معك، هو، الملك الحامى، لم أنت راغبة عنه؟

لكن إنانا نظل على عنادها:

أنا الراعى لن أتزوج.

لن أرتدى ملابس الخشنه

لن أقبل صوفه الخشن.

أنا، العذراء - الفلاح سوف أتزوج.

الفلاح الذى يزرع نباتاً كثيراً.

الفلاح الذى يزرع حباً كثيراً.

**دموزى يدافع عن نفسه**

اشتد الكلام بين «أوتو» و«إنانا» فقررا الذهاب إلى الراعى دموزى والتكلم

معه وإعلان رأى إنانا أمامه فذهبا إليه وتكلما فى الأمر، حينها قال دموزى -

مدافعاً عن نفسه - بغضب وحده، وموضِعاً لها أن الفلاح لا يمتاز عنه فى

شئ، بل إنه الأفضل والأجدر بالزواج منها:

«الفلاح، أكثر مما أنا، الفلاح أكثر مما أنا.

الفلاح، ماذا يملك أكثر مما أملك؟

إذا هو أعطانى طحينه الأسود

أعطيه ، الفلاح - نعجتى السوداء .  
 وإذا أعطانى طعينه الأبيض  
 أعطيه ، الفلاح نعجتى البيضاء  
 وإذا سكب لى جمعه الأصلية .  
 أسكب له - الفلاح - لبن ، كسيم .  
 وإذا سكب لى جمعه المتقة .  
 أسكب له ، الفلاح - لبنى المخيض .  
 وإذا سكب لى جمعه المزيج  
 أسكب له ، الفلاح ، لبنى النباتى  
 وإذا هو أعطانى من حلوى نبات حلحلة .  
 أعطيه ، - الفلاح - من لبن إتردا .  
 وإذا أعطانى خبزه الفاخر .  
 اعطيه الفلاح ، حبلى العسلى .  
 وإذا أعطانى فوله الصغير .  
 أعطيه ، - الفلاح - حبلى الصغير .  
 مما أكلت ، مما شربت .  
 أستطيع أن أترك له فائض القشدة .  
 أستطيع أن أترك له فائض اللبن .  
 أكثر مما أملك ، الفلاح ماذا يملك أكثر؟ .

يبدو أن كلام «دموزى» قد ترك أكبر الأثر فى نفس «إنانا»، بعد أن أقتعها بكرمه وسخائه، وأنه يعطى أكثر مما يأخذ، ولذلك نرى أن إنانا قد عدلت عن رأيها، واختارت «دموزى»، تقول نصوص الأسطورة واصفة حال «دموزى» بعد أن أبدت إنانا موافقتها:

ابتهج، وابتهج.

على ضفة النهر ابتهج.

على ضفة النهر، الراعى، على ضفة النهر، ابتهج

فى هذا الوقت يظهر الفلاح أنكىمدو على ضفة النهر، فيستعد الراعى دموزى للقتال، وهنا تتشابه الأسطورة إلى حد كبير مع قصة قابيل وهابيل، تقول النصوص.

الراعى رعى غنمة على ضفة النهر.

من الراعى الذى يرعى غنمه على ضفة النهر.

الفلاح اقترب، الفلاح أنكىمدو اقترب.

من دموزى ملك السدود والأفنية اقترب.

فى سهبه، الراعى، فى سهبه يبدأ القتال.

الراعى دموزى، فى سهبه يبدأ القتال.

غير أن الفلاح - لحسن الحظ - فتى حليم ينشد السلام والصدافة، يأبى أن يقاتل الراعى، بل يقدم له أرضاً للرى وماء لغنمه، يقول الفلاح لدموزى:

أنا معك أيها الراعى، معك أيها الراعى.

أنا معك فلماذا أكافح؟

لتأكل أغنامك فى أرضى المخروثة.

لتأكل حبى على سرقه.

لتأكل الحب فى حقول إبيريك اللامعة.

لثرب جدائك وحملاتك من قناتى، سور وحال.

وبذلك ينتهى هذا الجزء من الأسطورة نهاية سعيدة، إذ يدعو دموزى الصلاح إلى حملة العرس، ويسر الصلاح سروراً عظيماً ويعد بأن يأتى من نتاج حقوله بهدايا مناسبة للعروس:

أنا الراعى، عند زواجى.

أيها الفلاح، سوف أعدك صديقاً لى.

أيها الفلاح، أنكىمدو، صديقاً لى. سوف أعدك صديقاً لى.

يرد الفلاح:

سوف آتيك بحنطة، سوف آتيك بقول.

سوف آتيك بعدس.

أيتها العذراء، بكل ما يليق بك.

أى إنانا العذراء، حباً و... ولولاً، سوف آتيك.

أوضحت المناظرة السابقة منافسة بين الراعى والفلاح. هى فى حقيقة جوهرها تعكس الصراع بين البداوة والحضارة، فالإله الراعى «دموزى» يمثل البدوى فى اندفاعه وسرعة غضبه وشدة نغمته وفى نزعته للتسلط والسيطرة. عاد كلامه وبلاغته سلاحاً فعالاً لا يقل عن فعل السيف فى المعركة، بينما نجد الصلاح الذى يمثل الحضارة مسالماً، اعتاد على الهدوء والمجاملة، يعرف كيف ينسحب من المواقف الساخنة متجنباً النزاع.

وعى كل حال يملح «دموزى» نماماً فى إقناع عروسه المرتقبة بواسع ثرائه وأملاكه، لكنها مع ذلك ظل يخامرها الشك، فى نسبة، فهى ترى أنها أعرق منه نسباً وأرفع منه جاهاً، وادعت بأنه لولا أمها «نجال» وأختها «سيدة القصب المقدس» وأبوها إله القمر «سن» وأخوها إله الشمس «أوتو» لكان دموزى طريداً

هي الأزقة والسهوب بلا سقف بظله، لكن دموزي يطيب خاطرها .

أيتها السيدة الشابة لا تبدئي خصاماً .

أى إنانا، ليصل كلامنا فى هذا إلى نهايته .

أى إنانا، لا تبدئي خصاماً .

يا مليكة القصر، لتشاوري فيما بيننا .

أبى طيب مثل أيلك .

أمى طيبة مثل أمك .

أنا طيب مثل أوتو .

إنكى طيب مثل سن .

سرتو طيبة مثل ننجال .

يا مليكة القصر لتشاوري فيما بيننا .

وفى الواقع لم يؤد هذا الخصام إلا إلى اشتداد عاطفة العاشق، تقول  
نصوص الأسطورة:

الكلمة التى نطق بها

كلمة رعبة .

مع بدء الخصام .

تأتى رغبة القلب .

كانت إنانا فخورة بأبيها «سن» إله القمر العظيم فى مدينة أور، إحدى  
كبريات مدائن سومر، لذلك، ليس غريباً أن نجدها تشمر بالحاجة لأن تلتمس  
موافقة سن بأن ترسل له رسالة تتبئها فيها بنيتها الترويج من عاشقها «دموزى»

بهذه الكلمات البهيجة.

بيتي، بيتي، سوف يجعله طويلاً، لأجلى.

أنا الملكة، بيتي، بيتي، سوف يجعله طويلاً لأجلى.

بيت جيار، سوف يجعله طويلاً لأجلى.

الناس سوف يقيمون فراشي المثمر.

سوف يغطونه بشجيرات حجر اللازورد - الدورو.

سوف آخذ إلى هناك رجل قلبي.

سوف آخذ إلى هناك أو شوم جال أنا.

سوف يصع يده بيدي

ويصم قلبه إلى قلبي.

وصعه اليد باليد - يعيش الفؤاد.

صم القلب إلى القلب - لذته بالعة احلاوة.

غير أن إنانا كانت أقرب لأمها «ننجال» منها لأبيها، فإلى بيت أمها يجب أن يأتي العريس لطلب يدها، وإلى أمها يجب أن تذهب وتلتمس منها النصيح والمواشقة عندما يأتي دموزي ويقض بابها. وبالفضل يذهب دموزي إلى بيت أمها حاملاً معه هدايا اللبن والقشدة والجعة ملتصقاً بها القبول، لكن يبدو أن إنانا قد انتابها الخجل، فكانت أمها تحتها على الإذن له بالدخول:

هو ذا، الفتى، هو أبوك.

هو ذا، الفتى، هو أمك.

أمه تدلك كما تدلك أمك.

أبوه يدلك كما يدلك أبوك.

افتحي الباب، أي ملكتي، افتحي الباب.

وهكذا أعدت إنانا نفسها للقاء زوجها الموعود بما يليق بملكة سومرية.

إنانا، بناء على طلب أمها.

استحمت، وتطيبت بفاخر الزيت.

لفت على جسمها طيلسان - بالاً النبيل.

صفصفت حجر اللازورد حول عنقها.

وأمسكت الختم بيدها.

الملكة الجليلة انتظرت على ترفع.

دموزى افتحم الباب.

طلع في البيت مثل نور القمر.

وحدق فيها يغمره الفرح.

ضمها إلى صدره.

لكن رغم أن إنانا كانت تكن لأمها الحب لكثير. إلا أنها لم تكن منزهة عن مخادعتها، حدث هذا، بناء على إيهاء من عاشقها، لكي تمكث على ضوء القمر الفضى، ويبدأ هذا الجزء من الأسطورة بمناجاة إنانا لنفسها، إنانا التي كانت أيضاً إلهة الزهرة.

في الليلة الماضية، فيما كنت أنا، الملكة، أشع الضياء.

كنت أشع ضياء، كنت أرقص طرباً.

كنت أترنم بأنشودة على اقتراب الضوء الساطع.

التقى بى، التقى بى.

الرب كولى - أنا التقى بى.

الرب وضع يده فى يدي .

أوشوم جالى أنا ضمنى إلى صدره .

ادعت إنانا أنها كانت تحاول التملص من ذراعيه، لأنها لم تكن تعلم ما تقول لأمها :

تعال الآن ، أيها الثور البرى ، خلصنى ، يجب أن أذهب إلى البيت .

كولى - إنليل ، خلصنى ، يجب أن أذهب إلى البيت .

ماذا عسائ أن أقول لكى أخادع أمى ، ننجال .

كانت إنانا سعيدة جداً - وهى المعروفة بال المكر والخداع - حين سمعت الجواب بأتى من قبل عاشقها دموزى :

فلأحبرك ، فلأخبرك .

أى إنانا ، يا أكثر النساء خداعاً ، فلأحبرك .

كولى إن صديقتى اصطحتنى معها إلى الساحة العامة .

حيث سلتنى بالموسيقى والرقص .

وغت لى أغنياتها الحلوة .

فى الابتهاج الحلو قتلت الوقت هناك .

بذلك تراحهين أمك ، فى خداع .

بينما نحن كنا على ضوء القمر ننعس فى شهوتنا .

ساعد لك فراشاً طهوراً حلواً نبيلاً .

سوف أفضى معك وقتاً حلواً فى فرح عامر .

وكان واضحاً أن دموزى استذاق كمة حب إنانا حتى دفعه ذلك أن يقطع

لها عهداً بأن يجعل منها زوجته الشرعية، وينتهى هذا الجزء من الأسطورة بأغنية تغنيها إنانا فيها استشارة ونشوة.

أتيت إلى برابة نجال،

أنا، حذلانة أمشى،

إلى أمى سوف يقول الكلمة،

سوف يرش زيت «السرو» على الأرض،

هو الذى مسكه بفوح عطرأ،

هو الذى كلمته تبعث فى السرور العميق،

سيدى الذى يليق به الحصن المقدس،

أما وشوم جال أنا، صهر سن،

الرب دموزى يليق به الحصن المقدس،

أما وشوم جال أنا، صهر سن.

### نزول إنانا إلى العالم السفلى

بدأ النص الأسطورى باعتراف «إنانا» بالنزول إلى العالم السفلى، بيت الأموات المحيف المظلم، أما سبب نزول إنانا إلى العالم السفلى فلم يذكره النص، ويرى «كريم» أن السبب الأقوى هو طموح إنانا أن تصبح ملكة «الأسفل العظيم» بجانب كوبها ملكة «الأعلى العظيم»، ويتضح ذلك - كما سنرى - من تأنيب «إنليل» و«نانا» إلى «سننور» و«رير» - أو وريرة - إنانا، ورفضهما مد يد العون لإنانا، كما يؤكد ذلك الطموح اللامتناهى لإنانا بعض الأساطير الأخرى - والتي تعرضنا لها - مثل حصولها على النواميس المقدسة من إنكى بعد أن أسكرته.

هناك أيضاً حتمال بعيد نوعاً ما، وهو أن غزوها «الثورى» أو «التخريبي» للعالم الأسفل كانت مدفوعة إليه لرغبتها فى أن تقسيم الموتى، وبذلك تتجنب

الموت كلياً، ولا يمكن القول بأن نزولها كان هدفه إنقاذ «دموزي» الذي اقتيد أسيراً إلى العالم الأسفل، لأن الأسطورة لم تقل بذلك، فدموزي لم يكن في العالم الأسفل قط عندما وصلت إليه «العالم الأسفل» إنانا. لأن الأسطورة تقول إن إنانا نفسها هي التي أرسلته إلى هذا العالم بعد أن صعدت هي إلى الأرض، على كل حال، تتخلى إنانا - من أجل تحقيق طموحها - عن السماء والأرض، وعن جميع مدنها ومعابدها الشهيرة، فارتدت أجمل ملابسها، وتحلت بأحلى زينتها، وقبضت بشدة على شارات سلطانها وامتيازات المقدسة بعد أن عزمته على النزول إلى «بلاد اللاعودة». عالم الأموات والأشباح أرهيب، تقول نصوص الأسطورة:

من الأعلى العظيم قررت النزول إلى الأسفل العظيم.

الإلهة، من الأعلى العظيم قررت السؤل إلى الأسفل العظيم،

إنانا، من الأعلى العظيم قررت النزول إلى الأسفل العظيم،

سيدتي هجرت السماء، هجرت الأرض إلى العالم الأسفل نزلت،

تحلت عند «السيدية» و«السيدتية» إلى العالم الأسفل نزلت،

النواميس السبعة شعثها على وسطها،

جمعت كل النواميس، وضعتها في يدها،

أقامت الناموس العظيم عند قدمها المنتظرة،

«شوجرا». تاج السهل، وضعت على رأسها،

خصل شعرها ثبته على حينها،

قبضت بيدها على صوحيان القياس وحجر اللازورد،

ربطت حول عنقها حجر اللازورد الصغير.

شدت إلى صدرها حجرين بيضاوين،

طلقت معصمها بسوار ذهبي،

لفت جسمها بطيلسان بالا، طيلسان السيدتية،

دهت عينيها بالدهن.

لكن «أرشكيحال» - ملكة العالم الأسفل، وفي نفس الوقت أخت إنانا وعدوتها اللدود - من يقرر لها مجيؤها إلى الأقاليم السفلية، ويبدو أنها كانت على ثقة أن إنانا تريد أن تستولى على ملك العالم الأسفل، ولا شك أنها ستقتلها لجرأها على غتصاب عرشها، ولذلك استدعت إنانا وزيرتها ورسولتها «ننشوبور» التي كانت دائماً رهن إشارتها، وقالت:

أنت يا سندى الدائم،

يا وزيرتى ذات الكلمات المناسبة،

يا حاملة بريد كلماتي الصحيحة،

أنا الآن نازلة إلى العالم الأسفل،

أقيمى المناحة على عند الأطلال،

فى حرم المجمع اقرعى الطبول من أجلى،

مزقنى عينيك من أجلى،

وشقى فمك من أجلى،

مثل فقير ارتدى ثوباً واحداً من أجلى،

إلى الإيكور، بيت إنليل،

وحيدة صوبى حطاك.

وعند دخول الإيكور «بيت إنليل» انتحى أمام إنليل:

أبت إنليل، ولا تدع ابتك تموت في العالم الأسفل،  
لا تدع معدنك الثمين يعلوه غبار العالم الأسفل،  
لا تدع لأزوردك الثمين يتكسر كحجر الحجارين،  
لا تدع العذراء إنانا تموت في العالم الأسفل.

وتزيد إنانا في تأمين نفسها، فتطلب من وزيرتها «ننشوبور» أن تذهب إلى «نانا»، الاسم السومري لإله القمر «سن». الإله الحارس لمدينة «أور» وأب إنانا، وذلك في حالة عدم وقوف «إنليل» بحانها، كما طلبت منها أن تذهب إلى «إنكي» في حالة تغلّي أبيها «نانا» عنها:

إذا لم يقف إنليل بجانبك في هذا الأمر،

فاذهبي إلى أور،

في أور، عند دخولك البيت،

الذي هو بيت الرمية في البلاد،

«الأكيشنوجال»، بيت نانا،

استحبي أمام نانا:

أبت لا تدع ابتك تموت في العالم الأسفل،

لا تدع معدنك الثمين يعلوه غبار العالم الأسفل،

لا تدع لأزوردك الثمين يتكسر كحجر الحجارين،

لا تدع العذراء إنانا تموت في العالم الأسفل.

وإذا لم يقف نانا إلى جانبك في هذا الأمر،

فاذهبي إلى أريدو،

فى أريدو، عند دخولك بيت إنكى،

انصبى أمام إنكى:

أبت إنكى، لا تدع ابتك تموت فى العالم الأسفل،

لا تدع معدنك الشمين يعلوه غبار العالم الأسفل،

لا تدع لازوردك الشمين ينكسر كحجر الجوارين،

لا تدع العذراء إنانا تموت فى العالم الأسفل،

الأب إنكى، رب الحكمة،

الذى يعلم طعام الحياة، ويعلم ماء الحياة،

لا بد وأن يعيدنى إلى الحياة ثانية.

وبذلك تلمش إلى تجدد حياتها وبقائها حية، حتى ولو نزلت بها أهدح

الأخطار ثم تتابع سيرها نحو العالم الأسفل، وتصل إلى بلاط العالم الأسفل.

فتنطلق جريئة لدى الباب:

افتح البيت، أيها البواب، افتح، البيت،

افتح البيت، يا ماناى، افتح البيت،

وحدى بمفردى أريد الدخول.

وعندما يسألها البواب «ناتى: رجاء، من أنت؟»، تحييه باعتذار:

أنا ملكة السماء،

المكان الذى تطلع منه الشمس.

لكن البواب يشك فى أمرها:

إذا كنت ملكة السماء حقاً،

المكان الذي تطلع منه الشمس،  
 فلماذا أتيت، رحماك، إلى بلاد اللاعودة،  
 على الطريق الذي من يسافر عليه لا يعود أبداً،  
 كيف قادك إليه قلبك؟  
 عندئذ تتذرع بالقول:  
 أختي الكبرى أرشكيجال،  
 لأن زوجها، الرب «جوجال أنا» قد قتل،  
 لأشهد مراسم الدفن، فليكن ذلك.

لكن هذه الطريقة لم تبدد من ريبة «ناتى»، فطلب منها أن تتريث حتى يكلم  
 سيده أرشكيجال، ويدخل على مليكنه، ويصف لها ملبس إنانا وهيئتها،  
 الناموس، «الشوحرا»، خصل الشعر، صولحان القياس والسلوك... إلخ. وما إن  
 سمعت أرشكيجال هذه الأوصاف حتى علمت على الفور من هي هذه التي  
 حاولت أن تحطم نواة ممتلكاتها ولماذا، فاستبد بها الغضب. وضربت على  
 فخذه، وقالت: ليس ثمة إلا مخرج واحد. يجب أن تموت إنانا، لكن هذه لن  
 يصيبها شيء إلا أن ينزع عنها طيلسانها، وحواهرها، وزينتها وصولجائها،  
 ولذلك قامت للبواب:

تعال، يا ناتى، يا كبير حراسى على العالم الأسفل،  
 الكلمة التى أمرك بها، إياك أن تمقلها،  
 ارفع المزلاج، عن أبواب العالم السفلى السبعة،  
 وعن واجهة العالم الأسفل «جنزير» ارفع المزلاج،  
 أصغى باتى إلى كلمة مليكنه،

وقال إنانا : تعال ، أدخلني .

ولدى ولوجها البوابة الأولى ،

نزع عنها الدشوجراء تاج السهول ،

- رحماك ، ما هذا ؟

- صمتا ، إنانا ، نواميس العالم نواميس كاملة ،

إنانا ، إياك أن تناقشى قوانين العالم الأسفل .

لدى ولوجها البوابة الثانية :

نزع عنها صولجان القياس وسلك اللازورد .

- رحماك ، ما هذا ؟

- صمتا إنانا ، نواميس العالم الأسفل نواميس كاملة ،

إنانا ، إياك أن تناقشى نواميس العالم الأسفل .

وهي مقاطع متشابهة ، تصف الأسطورة كيف نزع عنها حجارة اللازورد الصغيرة ، والحجران البيضاويان ، والسوار الذهبي ، وصفيحة الصدر ، ثم تنتهى إلى القول : « انحنت خميضة ، جئ بها عارية أمامها » أما وأن إنانا عارية تماما . فقد حانت لحظة معاقبتها على خرق القوانين الإلهية .

اعتلت أرشكيجال المقدسة سدة العرش ،

الدانوناء ، القضاة السبعة ، نطقوا بالحكم أمامها ،

سلطوا عليها ، أنظار الموت ،

نطقوا بحفها ، كلمة الغضب ،

صدرت عنهم الصيحة بوجهها ، صيحة الإدانة ،

ضربت ، فاستعالت جثة هامدة ،

علقت الجنة بالمسامير،

فى هذه الأثناء كانت «ننشوبور» ووزير إنانا تنتظر على أحر من الجمر عودة سيدتها من العالم الأسفل، وبعد ثلاثة أيام وثلاث ليال، عندما لم تفلح فى العودة، تقوم «ننشوبور» بتنفيذ تعليمات سيدتها - على حسب الخطوات المرسومة سلفاً - فتطوف فى «بيت الآلهة» منتحبة، مجرحة الجسم، رثة الثياب، ثم تقصد معبد إيكور فى نيبور، وتبكي أمام إنليل.

أيت إنليل، لا تدع ابتك تموت فى العالم الأسفل،

لا تدع معدنك الثمين يعلوه الغبار فى العالم الأسفل،

لا تدع لازوردك الثمين ينكسر كحجر الحجارين،

لا تدع العذراء إنانا تموت فى العالم الأسفل.

لكن «ننشوبور» لا تجد من إنليل أى تعاطف مع إنانا، وذلك لأنها صربت بنواميس الآلهة عرض الحائط، ولم تكتف بحكم «الأعلى العظيم»، بل جرهما طموحها لحكم «الأسفل العظيم» أيضاً، ثم تمضى ننشوبور إلى نانا والد إنانا. ولكن كان موقفه - ولنفس الأسباب - مشابهاً لموقف إنليل، فلم تجد ننشوبور أمامها إلا الإله إنكى، فتذهب إلى مدينة أريدو حيث معبد الإله، وتتحب أمامه نفس النحيب، إلا أن موقفه كان مفaireاً لموقف سابقه:

الأب إنكى يجب ننشوبور:

ماذا جرى الآن لابنتى: إنى قلق،

ماذا جرى الآن لإنانا: إنى قلق،

ماذا جرى الآن لى السماء: إنى قلق.

كان الإله «إنكى» - طبقاً للمعتقد السومرى - موكلاً بهطعام الحياة»، و«ماء الحياة»، اللذين يعيدان الحياة مرة أخرى إلى الآلهة. لكن المشكلة من الذى

سيوصلهما إنانا بالعالم الأسفل، ويقوم برشهما عليها حتى تعود إليها الحياة؟ فحتى لو استطاعت تشوير أن تصل إليها فلن يتركها أحد في العالم الأسفل تقوم بهذه المهمة، لذا كان على إنكي - المعروف عنه الذكاء والدهاء - أن يقوم برسم خطة لإنقاذ إنانا، وبالفعل رسم خطة - فيها شيء من التعقيد - يبتنى منها إجبار أرشكيجال على تسليم جثة إنانا وإحيائها، فعمد على خلق كائنين اثنين لا جنس لهما من وسخ أظافره، اسم أحدهما «كلاتور» والثاني اسمه «كرجرا» وكان من الواضح أن هذين المخلوقين وحدهما يمكنهما أن يحظيا بالقبول في العالم الأسفل من دون أن ينتبه أحد إلى مرامييهما، ثم يعلمهما أنهما سوف يجدان هناك الإلهة أرشكيجال راعدة عارية، وتثن من المرض.

كانت التعليمات المسندة إليهما أن يبديا لأرشكيجال شفقة وعلفاً، وأن يتأوها ويثنا معها كما لو كانت آلامها هي آلامهما، فتتأثر بمشاركتهما لها فتكافئهما بوعدها بأن تنقذ لهما كل ما يطلبان منه. مهما كان طلبهما، لكن يجب عليهما - طبقاً لتعليمات إنكي - ألا يسلما بكلامهما، بل أن يستحلماهما بالسماء والأرض. وعندما تقدم لهما هديتان: الماء والحب، يجب عليهما ألا يقبلاهما، لأن الهدية المطلوبة جثة إنانا. ولما تسلم لهما يرشان عليها طعام الحياة وماء الحياة، فتعود الإلهة إلى الحياة، تقول نصوص الأسطورة:

أخرج «إنكي» من ظفر إصبعه وسخاً صنع منه كرجرا،

أخرج من ظفر إصبعه الخضيب بالأحمر وسخاً صنع منه كلاتور،

إلى كرجرا أعطى طعام الحياة،

إلى كلاتور أعطى ماء الحياة،

الأب إنكي يقول لكلاتور وكرجرا:

أذهب، مدا قدمكما نحو العالم الأسفل،

حوما على الباب كالدئاب،

دورا حول الباب كما يدور المحور،  
 الأم الواهية الحياة، بسبب أولادها،  
 أرشكيجال طريقة الفراش من مرض،  
 على جسمها القدسي لا يمد قماش،  
 صدرها القدسي مثل قارب شاجان،  
 شعرها كالعلق موضوع على رأسها.  
 عندما تصبح «ويلي آه أحشائي!»،  
 قولاً لها: أنت يا من تتأوهين، يا مليكتنا، آه أحشاؤك،  
 عندما تصبح «ويلي آه أطرافى»،  
 قولاً لها: أنت يا من تتأوهين، يا مليكتنا، آه أطرافك!،  
 «عندئذ نقول لكما»: «كونا ما تكونان»،  
 لأنكما قلتما: «من أحشائي إلى أحشائك»  
 من أطرافى إلى أطرافك،  
 إن كنتما إلهين، فسأطلق بكلمة كريمة من أجلكما،  
 وإن كنتما بشريين، فسأكتب قدرًا ملائمًا لكما،  
 فاستحلفاها بالسماء والأرض.  
 من النهر سوف يأتونكما بالماء، فلا تقبلا،  
 من الحقل سوف يأتونكما بالحب، فلا تقبلا،  
 قولاً لها: اعطنا الحشة المعلقة من المسمار،  
 واحداً منكما يرش لها طعام الحياة، والآخر ماء الحياة،  
 إنانا سوف تقوم.

## إنانا تبحث عن فداء لها

وبالفعل ينفذ المخلوقان تعليمات «إنكى» كما رسمها لهما، وتعود الحياة مرة أخرى لإنانا، فتصعد إلى الأرض، وتتدخل معابدها، لكن يبدو أن هناك عقبة لم يحسب الإله إنكى حسابها، فالناموس السماوى - طبقاً للمعتقد السومرى - لا يسمح لأحد - حتى ولو كان إلهاً - مغادرة العالم الأسفل سالماً إلا أن يحل محله آخر فداء له، ولعل هذا - ما رأيناه عند فداء الإله نانا إله القمر، فقد جرى نفس الناموس عليه، وقدم إخوته فداء له حتى يعود إلى العالم العلوى. تقول نصوص الأسطورة:

إنانا كانت تهم بالصعود من العالم الأسفل،

الدأوناكى، أمسكوا بها قائلين:

من من الدين نزلوا إلى العالم الأسفل واتفق لهم أن يصعدوا سالمين،

إن كانت إنانا تريد الصعود فى العالم الأسفل،

فعلينا أن تقدم شخصاً آخر بدلاً عنها.

وافقت إنانا على هذا الشرط - تقديم الفداء - وسُمح لها بمغادرة العالم الأسفل، ولكن للتأكد من أن هذه الإلهة - التى عرفت بالكر والخداع - سوف تقدم بديلاً عنها - يقوم الـ «جلا»، وهم «حرس بلاد اللاعودة» من الكائنات الصغيرة غير البشرية التى لا تعرف الرحمة يتعقبها، وذلك حتى يعيدها بالقوة إن هى لم تف بتعهداتها.

وهكذا نرى إنانا وقد صعدت إلى الأرض وبصحبتها عفاريت الدجلا، وكان جل مهمها هو تقديم إله من حاشيتها بديلاً عنها، وكان أول من صادفته «ننشوبور» المخلصة التى لم تكذب ترى سيدتها عائدة من العالم الأسفل، وإلى جانبها عفاريت الدجلا، حتى ارتدت ثياب الخيش وجثت على ركبتيها معمرة وجهها بالتراب. لذلك، عندما أمسك بها العفاريت المتلهفون للقبض عليها فداء

إنانا، أوقفتم إنانا قائلة:

هذه وزيرتي ذات الكلمات المناسبة،

رسلة كلماتي الصحيحة،

التي لم تخفق في تنفيذ تعليماتي،

ولم تغفل كلمة نطقت بها

بعد أن فشل الاختبار الأول، اصطحب الدجلا» إنانا إلى معبد سيكور -  
شجا في «أوما»، حيث يعبد الإله «شارا» ابن إنانا، الذي لم يكذب يرى أمه  
يتدافعها العفاريات العتاة حتى ارتدى هو أيضاً ثياب الخيش وخر ساجداً عند  
قدميها معضراً وجهه بالتراب. عندئذ أمسك به العتاة، ولكنها أوقفتم قائلة:

هذا ابني شارا الذي يرتل الترانيم لي،

الذي يقص أطافري، ويسرح شعري،

إياه لن أعطيكم مهما كان الثمن.

بعد ذلك يصطحبها الدجلا» إلى معبد «آموش حلاما» في «بدتيبيرا» حيث  
يعبد الإله «لولال» ابن إنانا، وهو أيضاً عند رؤية أمه على هذا الوضع، ارتدى  
ثياب الخيش وألقى بنفسه عند قدميها، وعندما أمسك به الدجلا» أوقفتم  
للمرة الثالثة قائلة:

هذا ابني لولال، القائد،

الذي يقف عن يميني وشالي.

**إنانا تقدم «دموزي» فداء لها**

يصل الدجلا» أخيراً إلى «إيريك» مدينة إنانا، وعندما وصلوا إلى هناك  
رأوا «دموزي» يجلس بجلال في مجلسه، مرتدياً ثياباً فاخرة، وكرسيه بتلألأ

كعرش رفيع، وكان يقيم حفلاً كبيراً توزع فيه الأطعمة والخمور، هذا المشهد هو الذى جعل إنانا تقرر إرسال دموزى إلى العالم الأسفل، وتقديمه إلى الموت، فقد كان طيلة فترة غياب زوجته إنانا فى العالم الأسفل غير مهبال، وقد رآته الآن يرتدى أحضر الثياب ويقيم الحفلات، فى حين كان باقى أتباعها ينوحون ويتأوهون لغيابها، ولمصيرها المظلم.

ذلك كله اغضب إنانا حتى:

سلطت عليه عينها، عين الموت،

نطقت الكلمة بحقه، كلمة الغضب،

أطلقت صيحة فى وجهه، صيحة التأليم.

يتم القبض على دموزى من قبل الدجلا، فيدرك دموزى أن مصيره قد أضحى مظلماً، فلم يجد أمامه إلا أن يستجبد بالإله «أوتو» إله الشمس الذى كان يحبه، والذى سبق له وأقنع أخته إنانا بالزواج من دموزى، تقول انصوص:

إيه أوتو، أنا صديقك، أنا الفتى الذى تعرفه،

اتخذت أختك زوجاً،

فنزلت إلى العالم الأسفل،

استبدلتنى بها لأكون عوضاً عنها فى العالم الأسفل،

إيه أوتو، أنت القاضى العدل، لا تدعنى أموت،

غير يدي، بدل صورتي،

دعنى أفلت من شياطيني، فلا يمسكوا بي،

مثل حية «ساحال» سوف أجتاز مروج الروابي،

سرف أنقل روحي إلى بيت الأخت جشتى نانا.

يستجيب أوتو لثوسلات دموزي، فيحوّله إلى حية أو كما تقول الأسطورة:

أوتو قبل دموعه،

غير له يديه، وبدل له صورته،

مثل حية «ساجال» اجتاز مروج الروابي،

دموزي - روحه غادرته مثل باز ينقض على عصفور.

انتقلت روحه إلى بيت جشتي نانا.

وما إن رآته أخته جشتي نانا حتى أخذت في النواح والنحيب:

جشتي نانا حدقت في أخيها،

خدشت وجنتيها، مزقت فمها،

نظرت إلى خاصرتيها، ثقت ثيابها،

صدر عنها نواح مر على السيد المذبذبة:

أواه يا أخي، أواه يا أخي، الفتى الذي لم تكن أيامه طويلة،

أواه يا أخي، الفتى الذي لا زوج له ولا ولد،

أواه يا أخي، الفتى الذي لا صديق له ولا رفيق،

أواه يا أخي، الفتى الذي لا يجلب العزاء لأمه.

يعلم عفاريث الدجلا» أن دموزي قد فر إلى بيت أخته، ولكن دموزي كان قد غادر البيت لأنه على يقين أن العفاريث سوف تتبعه إلى هناك، وبالفعل يصلون إلى بيت أخته ويأخذون في صب ألوان العذاب عليها لتدلهم على مكان أخيها، ولكن عبثاً حاولوا:

صفق العفاريث بأيديهم، وانطلقوا يبحثون عنه،

العفاريت مضوا إلى بيت جشتى نانا،  
 قالوا لها ودلينا أين يختبئ أخوك، لكنها لم تدلهم،  
 جاءوا بالسماء قريباً منها،  
 ووضعوا الأرض في حجرها،  
 لكنها لم تدلهم،  
 صبوا في حجرها قارا، لكنها لم تدلهم،  
 لم يجدوا دموزى في بيت جشتى نانا.

ويبدو أن دموزى كان يشعر بدنو أجله، هبيما هو مضطجع بين البراعم  
 نائماً رأى حلماً مخيفاً، ولم يكن من أحد يستطيع تفسير هذا الحلم إلا أخته  
 جشتى نانا، وبالفعل تجد دموزى يحكى منامه لأخته، ويبدو أنه قد رأى هذا  
 الحلم قبل أن يذهب إلى أخته هارباً بعد أن حوله أوتو إلى حية. أو رآه بعد ذلك  
 في إحدى مرات هروبه - والتي توالى - قبل أن يمسك به العفاريت:

عن الحلم، أخاه، عن الحلم، ... هذا لباب الحلم:

الأسل يطلع في كل ما حولي،  
 الأسل يتكاثف في كل ما حولي،  
 براعة طالعة وحدها تحنى رأسها إلى،  
 من براعة طالعة شعيتين، إحدهما تنزل،  
 في الغيضة المشتجرة، الروح الآتى من الأشجار السامقة يطلع في كل ما حولي،  
 على مشواى المقدس لا يسكب الماء،  
 من ماخضتى المباركة، قاعدتها تنزل،  
 الكوب المقدس المعلق إلى وتد، من الوند يسقط،

محجنى، محجن الراعى، اختفى،

يومتى تأخذ...

باز يمسك حملاً ببرائته،

جدائى الصغار تخرج رجاها اللازوردية على الغبار،

أغنام حظيرتى تدب على الأرض بقوائم ملتوية،

الماخضة على الأرض محطمة، ما من لبن يسكب،

الكوب على الأرض محطم، دموزى لن يعيش بعد هذا،

حظيرة العسم فى مهب الريح.

ثم تمضى جشتى نانا فى تأويل هذا الحلم الذى ينذر بشر مستطير فقرة

فى إثر فقرة:

أى أخى، غير ملائم هو حلمك، فلا تحكه لى؛

دموزى، غير ملائم فى حلمك، فلا تحكه لى،

الأسل يطلع فى كل ما حولك، الأسل يتكائف فى كل ما حولك.

سفاحون سرف يقضون عليك.

البراعة الطالعة وحدها تحنى رأسها إليك،

أملك التى حملتك سوف تحنى رأسها إليك.

من البراعة الطالعة شعيتين، إحداهما تزول،

أنا وأنت - واحد ما سوف يزول.

فى الغيصه المشتجرة، الروح الآتى من الأشجار السامقة.

يطلع فى كل ما حولك - الأشرار سرف يربعونك.

على مثواك المقدس ما من ماء يسكب ،  
 حظيرة الغنم سوف تغدو بيتاً خراباً .  
 من ماحضتك المبارك ، قاعدتها تزول ،  
 الأشرار سوف يشاهدون قبضتهم عليك .  
 الكوب المقدس المعلق إلى ولد . من الوند سقط ،  
 سوف تقع من ركبته الرشيقة ، ركة أملك التي حملتك .  
 محببتك ، محبب الراعى ، احتفى ،  
 الشرير سوف يفعل كل ما من شأنه أن يضعفك .  
 يومتك تأخذ . .  
 الشرير سوف يأخذ .  
 البازي الذى يمسك الحمل ببرائه ،  
 هو العقرت الكبير الذى سوف يطردك  
 حدائك الصغار التي تجرجر لحاها اللازوردية على الغبار ، . . سوف يدوم فى السماء  
 مثل الزوينة  
 بعد ذلك يخبر دموذى أخته أنه سوف يختبئ ، وينبه عليها ألا تخبر أحداً  
 بمكانه . وكان يخاطبها هنا بصصة الصديقة دون الشقيقة:  
 صديقتى سوف اختبئ بين الزرع ، لا تقولى أين أنا ،  
 سوف أخبئ بين النباتات الصغيرة ، لا تقولى أين أنا ،  
 سوف أخبئ بين النباتات الكبيرة ، لا تقولى أين أنا ،  
 سوف أخبئ بين أخاديد «أدالى» ، لا تقولى أين أنا .

تعدّه أخته جشنتى نانا وتحلف له  
إذا قلت أين مخبؤك، فلناكنى كلامك،  
الكلاب السود، كلاب راعيتك،  
الكلاب البرية، كلاب سيدتك،  
ألا، فلناكنى كلامك.

يبدو أن أحد أصدقاء دموزى يعرف مكان احتبائه بالإضافة إلى أخته،  
وعندما يحاول عفاريت الدجلا «إغراء أخته ورشوتها حتى تخبرهم بمكان  
دموزى لا يفلحون فى ذلك، أما صديقه فكان إغراؤه سهلاً، فيمشى سره  
ويرشداهم عن مكان دموزى:

من النهر جاءوها باناء، فلم تقبل.  
من الحقل، جاءوها بالحلب، فلم تقبل  
ذهبوا إلى صديقه وأعطوه حبواً،  
فقال لهم: دموزى اختبأ فى العشب،  
لكنى لا أعرف المكان،  
دموزى اختبأ فى قنوات «أدالى».

قبضوا على دموزى الذى صرخ  
شقيقتى أنقذت حياتى.. صديقى سب مرتى.

يفلح عفاريت الدجلا «هى الإمساك بدموزى، هيعدبونه ويوثقونه، ولم يكن  
أمامه إلا التضرع للإله «أوتو» الذى يستجيب له، فيحوله إلى غزال، فيهرب  
دموزى، إلا أن العفاريت يمسكون به مرة أخرى، فيتدخل «أوتو» ويحوله مرة  
أخرى إلى غزال، ويهرب دموزى مرة أخرى، ويختبئ بحظيرة أغنام أخته، ولكن

هذه المرة يمسك به «جلا» ولا يستطيع الهرب منهم، تقول نصوص الأسطورة في وصف هذا المشهد المريع:

العفريت الأول، وهو يدخل الحظيرة والإصطبل،

طعنه على خده بمسمار ثاقب،

والثاني، ضربه على خده بمحجن الراعى،

والثالث، أزال القاعدة من الماخضة المباركة،

والرابع، رمى من على المشجب الكأس المعلق على المشجب،

الخامس، حطم الماخضة، لا لبن يسكب منها،

حطم الكأس، دموزى لن يعيش بعد هذا،

حظيرة الغنم في مهب الريح،

لقد مات دموزى.

لكن أخته لا تدعه يواجه هذا المصير وحده، فتلتحق به وتنزل معه إلى العالم الأسفل لعلها تفعل له شيئاً بدلاً من العويل والنحيب، وما إن رآته حتى صرخت:

من أختك؟ إنى إختك.

من أمك؟ إنى أمك.

اليوم الذى سيطلع لك سيطلع لى،

اليوم الذى تراه سأراه أنا أيضاً،

وكل ما قدر عليك سيقدر على.

دهش دموزى المدمى الممزق الثياب، وقال لأخته:

أواه يا أختي التي ستكون أُملي،

إنني أفرف الدمع كالطفل،

وأجهش بالبكاء أمامك كالطفل.

حين رأت الإلهة «أرشكيجال» - ملكة العالم الأسفل - دموزي وأخته على هذا الحال - بديلاً عن إنانا التي تكرهها - رق قلبها على هذا المسكين وعلى أخته، فأمرت أتباعها وقالت:

«أكرموا دموزي في عاله هذا، أكرموا الإله الراعي،

وامسحوا دماءه وطيبوا جسده بالزيت».

ثم التفتت إلى «جشتي نانا» المفجوعة بأخيها وقالت.

«لتعمل جشتي نانا سيدة الكروم كاتبة للعالم الأسفل، ولتكرم هي مكانها هذا، فهني العارفة الكاهنة سيدة قصرى، ولتتزوج من ولدي - نكشزبدا - الرسول الأبدى لعالم الأسفل».

ثم التفتت «أرشكيجال»، وقالت لأتباعها:

«ليكرم هذا الأحوان اللذان ساقتهما رعونة - إنانا - التي لن تفلت من قبضتي، ليكرما فيقضي دموزي نصف السنة الصيفي هنا، وستجذب الأرض والعالم الأعلى، وليقضي نصف السنة الشتوي على الأرض، وليرجع هناك فتخصب الإنات وتتكاثر الحطائر ويزدهر الشجر، ولتكن - جشتي نانا - رهيئتي عندما يكون دموزي على الأرض، وليكن دموزي رهيئتي عندما تكون - جشتي نانا - على الأرض».

وبذلك تنتهي الأسطورة ببقاء «دموزي» نصف السنة الصيفي ميتاً في العالم السفلي، حيث تجذب الأرض أما نصف السنة الشتوي فيسيكون حياً في العالم العلوي، حيث تنمو الأرض وتزدهر وفي هذا النصف ستكون أخته - والتي ضحت

من أجله - موجودة بدلاً منه بالعالم السفلي.

### دموزى والسيد المسيح

فى مجال عقد المقارنة بين قصة الإله دموزى وحياة السيد المسيح - كما جاءت بالأناجيل، يقول كريمر:

«من بلاد الرافدين انتقل موضوع موت دموزى وقيامه إلى فلسطين، وليس عجباً بعد هذا أن تجد نسوة أورشليم يقولن على «تموز» «دموزى» فى إحدى بوابات معبد أورشليم، ولا يستبعد أبداً أن تترك أسطورة موت دموزى وقيامته بصمتها على قصة «المسيح»، بالرغم من الفجوة الروحية العميقة بينهما.

ولقد كانت عدة أفكار رئيسية فى قصة المسيح، مما يمكن إرجاعه إلى أصول «سومرية»، مثل قيامة الإله بعد ثلاثة أيام وليال فى العالم الأسفل، ومفهوم الثلاثين شاقلاً، وهو المبلغ الذى قبضه يهوذا ثمن خيانة سيده، دلالة على الاحتقار والزراية، وكذلك لقب الراعى «وهو لقب دموزى»، والمسيح الذى يعنى الممسوح بالزيت رأسه عند تتويجه ملكاً، وربما لنجار.

وهناك واقعة لا تقل أهمية وهى أن أحد الآلهة، الذين سوف يتحداهم دموزى، هو الإله دامو «الطيب»، الذى عهدت إليه أمه بمهمة الشفاء بواسطة طرد العفاريت. إلى هذه جميعاً لعلنا نستطيع أن نضيف الآن «والكلام لكريمر، العذاب الذى لقيه دموزى على أيدي العفاريت العتاة، مما يذكرنا إلى حد ما بآلام المسيح: شد وثاقه بالمسامير، أجبر على خلع ثيابه والركض عارياً، جلد وضرب.

وقد صرنا - فوق كل هذا - نعلم أن دموزى، وهو فى هذا لا يختلف عن المسيح، لعب دور البديل الذى تعذب نيابة عن البشرية، فلو لم يحل محل إنانا، إلهة الحب والتكاثر والخصوبة فى العالم - طبقاً للأسطورة السومرية - لكانت جميع أشكال الحياة على الأرض قد أوفت على نهايتها. لكننا نعلم بأن نقاط

الافتراق بين الاثنين أكبر وأظهر من نقاط الالتقاء، فدموزى لم يكن «مسيا»  
يبشر بقيام ملكوت الله على الأرض.

غير أن قصة المسيح لم تنشأ وتتطور في فراغ، فلا بد أن يكون لها سوابق  
وأصول، أهمها وأبعدها أثراً، لقصة المبكية لدموزى، الإله الراعى وما آل إليه  
من مصير محزن، وهى أسطورة كانت شائعة فى جميع أنحاء الشرق القديم  
على مدى ألفين من السنين» أ. هـ



## أسطورة إنكى

### مولد إنكى وزواجه بتنخرساج

إنكى أخو الإله «إنليل»، وهو الابن الثانى للإله «آن» إله السماء، وأمه «كى» إلهة الأرض. وإنكى هو إله الماء، ويوصف بأنه إله الحياة لأنه أب لكل شىء حى. وهو لذلك إله الطب والشفاء وهو إله الحكمة وإله السحر، ويشكل مع أبيه «آن» وأخيه «إنليل» الثالوث السومرى الأول. ومدينة إنكى المقدسة هى «أريدو» (أيو شهرين الحالية)، وهو سليل «أبسو» مياه الأعماق، ورمز الإله إنكى السومرى هو الجرة الكمثرية الشكل التى تتبع منها خطوط المياه، ويقال له فى الأكديّة الإله «إياه» الذى كان اسمه الأكدي يلفظ فى الأصل «آ»، وربما لفظ فى الأصل كـ«حيا» الذى يدل على الحياة، ويعتقد أن اسم الإله العثى «آش» والاسم اليونانى «آوس» مشتقان منه.

يقول إنكى عن نفسه:

أنا الرب، من إذا أمر لا يسأل عن أمره.

أنا الأول من بين جميع الأشياء.

بأمرى، الاصطبلات شيدت، وحظائر الغنم سورت.

عندما قاربت الأرض، فاضت ينابيع.

وعندما قاربت مروجها الخضراء.

تكدمت الحبوب أكواماً وتلالاً بكلمتى.

لكن إنكى لا يأتى بالمطر من السماء لإخصاب الأرض وحسب، وإنما هو

يملاً الأنهار بالماء العذب الرقراق، تقول النصوص:

عندما رفع الأب إنكى عينه على نهر الفرات.

وقف بخيلاء كالثور الهائج.

رفع قضيبه، وقذف بالمني.

فملاً دجلة بالماء الرقراق.

البقرة البرية تخور من أجل صفارها في المراعى.

استسلم له دجلة كما لثور هائج.

رفع قضيبه ومعه هدية الزفاف.

جاء بالفرح إلى دجلة مثل ثور برى كبير عند الإخصاب.

الماء الذى جاء به ماء رقراق، نبذه حلو المذاق.

الحبوب التى جاء بها، حبوبه غنية، يأكلها الناس.

ملأ «أيكور» بيت إنليل، بالمقتنيات.

بأنكى إنليل يتهج، وتسرنيبور.

بعد ذلك - ويأمر من الأرياب - يسكن إنكى مدينة «دلون» وهى الأرض التى اعتبرها السومريون خالية من الشرور، ومسكونة من قبل الآلهة والخاندين من البشر، ويعتقد أن دلون هى بلاد البحرين حالياً، وهى تشكل الفردوس السومرى، ولكنها لا تقابل مفهوم وحقيقة الجنة عند المسلمين، وذلك لأن العقائد الدينية السومرية لا تتضمن فكرة أثواب والعقاب، ومن ثم دهاب المثاب إلى الجنة، بل نرى أن دلون هى مكان الآلهة أولاً، ثم هى مكان الخاندين من البشر مثل «زيوسدرا» السومرى و«أوتوباشتيم» البابلى الذى يرد اسمه فى ملحمة جلجامش، فهو حين ينال الخلود من قبل الآلهة - بعد أن أنقذ الجنس

البشرى والحياة من الطوفان - يوضع فى دلمون مكافأة له.

وفى أرض «دلمون» يتقدم إنكى إلى «ننخرساج» ليتزوجها، فترفض فى بادئ الأمر، لأنها رأت أن إنكى إله لعوب محتال ذكى، فالح إنكى ليتزوجها فرفضت مرارا ثم قبلت الزواج منه.

وننخرساج تعتبر إلهة الأرض كلها، وإلهة الخصب والحياة على الأرض، ولها أكثر من اثنى عشر اسم دال عليها، كل اسم فى حقيقة الأمر يمثل صورة أو شكلاً جديداً من أشكالها مثل:

«دامكال نونا: زوجة الأمير الكبيرة» و«نكى: سيدة الأرض»، و«نماخ: السيدة الكبيرة»، و«نتو: السيدة الكبيرة»، و«مامى: الأم»، و«كاتوم دوك: إلهة الأطفال» و«بيليتى: سيدة الإنجاب»، و«دنكيرما: الإلهة الأم»، و«نميننا: سيدة القبعات الإلهية».

بعد ذلك يتصل إنكى «الماء» جسياً بننخرساج «الأرض» ومن الطبيعى أن ينتج من هذا الاتصال بين الماء والأرض ظهور النبات، لهذا تلد الإلهة ننخرساج الإلهة «ننसार» إلهة النباتات.

### إنكى يضاجع بناته

بعد أن كبرت «ننसार» ابنة إنكى وننخرساج، يراها إنكى على ضفاف النهر - وهو لا يعرفها - فيود مضاجعتها، ويعرض الأمر على وزيره «إيسمد» فيبدي له الموافقة، فيدعوها إنكى إلى قاربه ويضاجعها فتحمل منه وتلد الإلهة «ننمو» إلهة الألياف، وهذا يرمز للتماس بين المياه والنباتات بشكل متصل والذي ينتج عنه ظهور الألياف.

وبنفس الطريقة يشاهد إنكى الإلهة «ننمو» إلهة الألياف، ويرغب فى مضاجعتها، ويسهل له وزيره «إيسمد» الأمر، ويضاجعها إنكى، فتحمل وتلد الإلهة «ننكور» إلهة الأصباغ، التى تأتى من اتصال النباتات والألياف بالمياه،

وترمز أيضاً إلى سلسلة من التفاعلات بين الماء والنباتات.

وبعد ذلك يضاجع إنكى الإلهة «نكور» لتلد بعدها ابنتها «آتو» إلهة النسيج، وهو امر منطقي أن يأتى النسيج بعد الأصباغ، وكانت «آتو» رائعة الجمال. فتراها «ننخرساج» فتحذرهما من إنكى: «أيتها العذراء الغالية، سيكون طريقك مليئاً بالنور وحياتك مرهفة هائلة عليك أن تبتعدى عن هذا المتقلب المحتال إنكى».

وبالفعل، عندما يطلب إنكى من «آتو» مضاجعتها ترفض، وتطلب منه أن يقدم لها الهدايا وأن يتقدم للزواج منها، ويفعل إنكى كل ما طلبته منه، ويتزوجها، وتلد له ثمانى أشجار.

ونجد أن هذا الجزء من الأسطورة يقترب إلى أشد الاقتراب من مضاجعة نبي الله «لوط» لبنتيه دون أن يدرى، وذلك بعدما سقته ابتلاه الخمر طبقاً لما ورد بالإصحاح التاسع عشر من سفر التكوين.

### إنكى يأكل النباتات السامة

هذه الأشجار أو النباتات الثمانية والتي ولدتها «آتو» كان منها ما هو محرم، ومنها ما هو سام، إلا أن «إنكى» وجدها نباتات زاهية فأخذ يأكل منها، ولهذه الفعلة لعنته ننخرساج، فسرت اللعنة فى ثمانية أماكن من جسده، وسقط إنكى بئس من مرضه، ولذلك دب الخراب فى الأرض - فإنكى هو إله الماء - فاجتمع الآلهة وهرروا البحث عن «ننخرساج» والتي اختفت بعد لعنتها لإنكى - حتى تدأويه من العلل الثمانى التى حلت به وإلا لن تقوم للأرض قائمة.

ترق ننخرساج لحال إنكى. وقامت بولادة الآلهة الثمانية ليقوم كل إله منها بشفاء علة من علل إنكى، فولدت «أبو» إله النباتات ليشفى عينيه، والإله «ننتلا» من أجل فكه، والإلهة «ننسوتو» زوجة «ننازو» أحد آلهة العالم السفلى من أجل ضرسه، والإلهة «نكاسى» التى تشفى آلام الفم والتى تشبع شهوة القلب من

أجل فمه، والإله «نازى» من أجل رقبته، والإلهة «أزيموا» من أجل ذراعه، والإلهة «ننتى» سيد الضلع من أجل ضلعه، والإله «اينشاج» من أجل ساقه، ويعد ذلك يتعافى إنكى ويصبح قادراً على القيام بعمله.

### إنكى يدعو «إنانا» ويمنحها النواميس المقدسة

الإلهة «إنانا» هى إلهة الحب والجمال والخصوبة والتناسل والمتكفلة بحراسة مدينة «إيريك أو أوروك» ويعنى اسمها حرفياً «ملكة السماء، ولها عدة رموز أهمها القصبتان المعقوفتان المذيلتان والقصبة ذات الحلقات الست والنجمة الثمانية ذات الستة عشر شعاعاً، وهى ابنة الإله «ننار» إله القمر، وتلمب دوراً شعبياً كبيراً فى نشر ممارسات الحب والجنس، وأصبحت إنانا نواة لأهم إلهة فى العالم القديم، فهى عند الساميين «إشتار أو عشتار»، وهى البطلة الرئيسية فى طقس الزواج المقدس.

تقول الأسطورة إن الإلهة إنانا قدمت إلى «الأبسو» مقر الإله إنكى، فأمر إنكى، وزيره «إيسمد» أن يرحب بها أشد الترحيب، وأن يقدم لها ما لذ وطاب، ثم قابلها «إنكى» وأخذ يشرب الخمر، ويرفع أنخابه للعذراء إنانا.

وفى غمرة سكرته يمنح إنكى لـ«إنانا» النواميس لمقدسة «مى» وهى مشتقة من كلمة سومرية غامضة المعنى، وربما تعنى الوجود، وتشمل مؤسسات الوجود ونظام الكون الدنيوى والسماوى الذى تسيره قوى إلهية خيراً أو شراً، ويعرف البعض هذه النواميس الإلهية بأنها جملة الوظائف المرتبطة بالطقوس أو العادات أو العبادات والأعراف، ويعرفها البعض الآخر بأنها الوجود الإلهى فى الهيولى الميتة أو الحية بشكل أرلى، وهى غير مشخصة بجد ولكن بواسطتها تتحكم الآلهة بأمور العالم.

أخذت إنانا هذه النواميس فى قاربها السماوى تعود إلى مدينتها المقدسة «أوروك» وتودع «أريدو»، وهذا يشير إلى انتقال السلطة والملوكية من «أريدو»

إلى «أوروك».

وبعد أن صحا إنكى من سكرته سأل عن نواميسه المقدسة وزيره إيسمد، فأخبره أنه وهبها لابنته إنانا وهو فى حالة سكره، فיאمر إنكى وزيره إيسمد أن يمنع قارب إنانا السماوى من الوصول إلى أوروك، وذلك بأن يذهب ومعه وحوش البحر ويقتفون أثر إنانا.

وبالفضل يصل إيسمد ومعه وحوش البحر إلى قارب إنانا، ويخبرها أن إنكى أمرها أن تذهب إلى أوروك ولكن عليها أن تعيد قارب السماء – والنواميس المقدسة إلى أريدو، فتستجد إنانا بوزيرها «نشوير» لينقذ القارب السماوى ونواميس إنانا الإلهية من أيدي وحوش البحر، فيهجم «نشوير» عليهم وينقذ المركب والنواميس الإلهية، ويتكرر هجوم وحوش البحر على المركب عدة مرات، وفى كل مرة يهزمهم «نشوير» حتى وصل القارب بسلام إلى مدينة أوروك مدينة إنانا.



## أساطير الخلق السومرية

### بداية الخلق

تقول الأسطورة إن كل شيء كان في «نمو»، ونمو هي الإلهة السومرية الأم الأولى، والمعنى الحرفي لاسمها «ماء الأم»، وهذا تشبيه صريح لولادة الكون بالولادة البشرية. واسمها يشير إلى المياه الأزلية - مثل «نون» عند الفراعنة - التي ظهر منها الكون والآلهة.

كانت «نمو» ساكنة، لكنها تحركت، وبدافع الحركة والسكون كان ظهور السماء والأرض، وكانا في حالة التصاق وعناق، والسماء في الأساطير السومرية ذكر يمثل الإله «آن»، وقد تزوج إلهة الأرض «كي» وسكنت الأمطار من السماء على الأرض - وكأنها المنى، فملطر هنا يأخذ مدلولاً جنسياً - فينتج عن ذلك ظهور النباتات، ويسيل الخمر والعسل، وولد لهما الإله «إنليل» إله الهواء، وكلمة إنليل مكونة من مقطعين «إن» التي تعنى السيد و«ليل» التي تعنى الهواء أو الريح ويلقب بجبل الريح. بعد أن كبر إنليل فصل بين أمه وأبيه، فرفع أباء السماء «آن» إلى أعلى، وبسط أمه الأرض «كي».

بعد ذلك جلس «آن» على عرش السماء، وترأس مجلس «الأنوناكي»، وهو مصطلح سومري يشير إلى جموع الآلهة في السماء والأرض، ومعناه الحرفي باللغة السومرية «أرض بذور الحياة الأميرية»، وكان السومريون يعتقدون أن هذا المجلس أو هذه الهيئة عبارة عن طائفة من الكائنات الحية، لهم هيئة كهيئة الإنسان إلا أنهم يفوقونه ولا ينال منهم الموت، وهم يديرون دفة العالم ويتحكمون به وفقاً لخطط رسمت بعناية، ونواميس قدرت حسب الأصول، فهناك آلهة موكلون إليهم أمر السموات والأرض والهواء والبحار، وآلهة موكلون

إليهم أمر الشمس والقمر والكواكب... إلخ، وكان أكبر الآلهة الذين يتحكمون بالعناصر الأربعة الرئيسية التي يتألف منها الكون: السماء والأرض والهواء والبحر، ويمثلهم الآلهة: آن، كى، إنليل، إنكى. وكانت وسيلة الخلق عندهم تقوم على استخدام الكلمة الإلهية، فكان كل ما على الإله الخالق - حسب معتقدهم - هو أن يرسم الخطوط ويتفوه بالكلمة وينطق الاسم.

### خلق الإنسان

تقول الأسطورة إن الآلهة بدأت تشمر بالتعب، فقد وجدوا أنهم تحولوا إلى عبيد الأرض التي صنعوها، وأن الحمل قد صار ثقيلاً، فاجتمعوا وقرروا أن يذهبوا إلى «إنكى» إله الماء والحكمة، ليشتكوا له وليخلق لهم خدماً يقومون مقامهم في حرث وسقى الأرض ورعى الماشية.

كان إنكى مضطجماً بعيداً في «الأبسو»، وكان نائماً قرب «نمو» سيدة المياه الأزلية - وهى تظهر هنا كام للإله إنكى - فاشتكوا إليها، فوضعت على راحة يديها دموع الآلهة وذهبت إلى إنكى له: «انهض يا بنى من فراشك... من مضجعتك واصنع كل ما هو حكيم». خلق خدماً للآلهة يحملون عنهم عناء العيش وقسوة الحياة».

وبعد أن فكر «إنكى» قرر القيام بخلق كائن لا إلهى يقوم مقام الخادم للآلهة، ثم أخذ يعلم «نمو» كيفية خلق هذا الكائن: «امزجى الصلصال. لب الطين الموجود فى مياه «الأبسو» العميقة التى أقيم فيها وسأدعو الصنّاع الإلهيين المهرة ليكشفوا الطين ويعجنوه، أما أنت فعليك أن توجدى له الأعضاء وستعمل الإلهة نمنّاخ «تنخرساج»، معك يدٌ بيد وستقف ربات الولادة الثماني إلى جانبك لكى يتكون ويولد من الطين، قدرى مصيره يا زماء وستطبع عليه «نمنّاخ» صورة الآلهة. يكون شبيهاً بنا فى خلقه لكى يكون قريباً منا فى العمل والراحة ولكى لا يشعر بأنه غريب تماماً عنا وسيكون هذا المخلوق هو: الإنسان».

تفتخر الإلهة «نماخ» أمام الآلهة بأنها هي التي ستخلق الإنسان، وهي التي ستحدد الطيب من نصيبه أو السوء، فيقول لها إنكى «سواء جعلت نصيبه الطيب أو السوء فإننى سأوازنه، وليشاهد الآلهة خلقك وخلقى وليحكموا بعد ذلك على ما نصنعه».

أخذت نماخ حفنة من الصلصال الموجود فوق «الأبسو» وصنعت ستة أشخاص، الأول غريب، والثانى فيه عاهة، والثالث لا يستطيع إيقاف بوله، والرابع امرأة مشوهة، والخامس امرأة عاقر، والسادس الرجل الخصى. فأراد إنكى أن يختبر ما صنعتة نماخ، فقدم لهم الطعام، فتناولت المرأة العاقر طعامها وكذلك فعل الرجل الخصى، فقرر إنكى أن يحدد بهما مصيرهما فقال: «المرأة العاقر تكون وصيفة للملكة فى دار النساء، والرجل الخصى يكون فى خدمة الملك».

ويجىء الدور على إنكى لى يقوم هو بعملية الخلق، فصنع إنساناً بائساً أطلق عليه اسم «أومول» وهو الشيخ الطاعن فى السن والذى عيناه ذابلتان وحياته فانية.. وكبده وقلبه ويداه ترتحضان وقدم إنكى مخلوقه إلى نماخ، فتحاول الأخيرة إطعام هذا الإنسان ولكن لم يقو حتى أن يمد له يداه، فنهزت نماخ إنكى لأنه خلق بائساً، فجلب لبؤس إلى العالم، وخلق مريضاً فجلب المرض - الذى سيلازم الشيوخ - إلى اعالم، وتتدخل الآلهة لفض الاشتباك بين إنكى ونماخ، وقاموا جميعاً بخلق الإنسان الصحيح من طين المياه العميقة، ويثوا فيه الروح، وخلقوا ذكراً وأنثى حتى يتكاثر من تلقاء نفسه فلا تتعب الآلهة من تكرار الخلق، فولد الذكر والأنثى أبناء كثيرين، وتكاثر هؤلاء بدورهم، وخدموا الآلهة، وكان الإنسان الضعيف يخدم الآلهة ويخدم الأقوياء من البشر، فزادت الشرور فى الأرض وكثر الظلم.

وردت فى بعض النصوص السومرية إشارات تجعل من الإنسان إلهاً، ولكنه إله ضعيف أو مآله إلى الموت والفناء وقد سُمى «لولو» الذى يعنى الإنسان

البعيد، وكذلك وردت إشارات توحى أن هذا الكائن هو بمثابة ابن الإله «إنكى» ومن هذا المنطق أثير الاعتقاد أن فكرة الأب الإلهى انطلقت من هذه الإشارة، حيث يظهر الإنسان وكأنه ابن الله، وهو ما ظهر فى العقيدة المسيحية.

ولمحت بعض النصوص الأسطورية الخاصة بخلق الإنسان فى الدين السومرى إلى خلق الإنسان بطريقة تشبه زرع البذور فى الأرض، وظهور البشر على الأرض نتيجة لهذا الزرع، وكان الإله إنليل هو الذى يقوم بهذا العمل، وذكرت أسطورة أخرى أن الإنسان كان حيواناً يمشى على أربعة ويشرب ويأكل كالخراف ولا يلبس الملابس.

### مأساة الإنسان الصابر «أيوب السومرى»

وهذه القصة مثال على القيم الروحية فى الأدب السومرى، وهى عبارة عن قصيدة لحكيم سومرى تتم عن ألم نفسى قاس، وصبر إنسانى، وهى تتشابه فى كثير من جوانبها مع قصة أيوب النبى، وصبره على ما انتابه من الآلام. وهى تروى قصة رجل كان غنياً وحكيماً وصالحاً، ابتلى بالمصائب والآلام فاجتازها بصبر وثبات، وسكب قلبه ودموعه أمام إبهه متذللاً طالباً إليه إنقاذه من ضيقه وتعاسته، فرق له الإله وحول شقاءه إلى سعادة، وبدل ترحه إلى فرح.

فى البداية يعلن الحكيم عن وجوب تعظيم الإله، واللجوء إليه، فيقول:

لينشد الإنسان بحمد ربه، بعظمة إلهه.

ليسبح الشاب بحمد ربه بكلمات صادقة.

كيف ين من يعيش فى بلاد عادلة؟

ثم يشكى الحكيم مرارة ما يعانیه للإله، فيقول:

أنا الرجل، أنا الحكيم، إن من يذكرنى باحترام لن يفلح.

إن كلمتى الصادقة أصبحت كذباً.

إنك غمرتني بالأم تتجدد كل يوم.  
وصديقي لم يقل عني كلمة صدق.  
إن صديقي كذب كلمتي الصادقة.  
الأفك تآمر ضدي.  
وأنت يا إلهي لم تمنعه.  
أنا .. أنا الحكيم .. لماذا أكون مرتبطاً بشباب جهال؟  
أنا .. أنا الفطين .. لماذا أحصى بين الجهال؟  
وطعامي .. إن طعامي انقلب إلى جوع.  
وفي يوم التوزيع . وزعت الأنصبة للجميع وكان نصيبي الألم.  
ثم يتذلل إلى إلهه حتى يفرج عنه الكرب:  
يا إلهي، إني واقف.  
هل أخاطبك؟ إن كلامي لأنين.  
إني أخبرك عنه، هل تشير في طريقى مرارة الأنين.  
هل ينقلب النشيد إلى عويل؟  
يا إلهي .. إن النهار يسطع بأضوائه على الغرباء، أما أنا فنهارى ظلام.  
إن النهار يسطع، إن النهار الجميل يتألق كالشعاع.  
وأما أنا، فدموع وعويل وأنين وشكوى.  
الآلام تغمرني، كأنى لم أخلق إلا للدموع.  
إن الشؤم، طوقى بذراعيه وأطبق على أنفاسى.  
الأوجاع والأمراض قد نظمت جسدى.

يا إلهي .. أنت أبى الذى ولدتنى .. ارفع رأسى .  
 إلى متى تهملنى ؟ دعنى بدون حمى .  
 وأخيراً يستجيب الإله لدعاء الحكيم وتذله:  
 إن الرجل .. سمع إلهه إلى دمرعه وبكائه المر .  
 إن ذلك الفتى .. وصل أنينه وعويله إلى قلب إلهه .  
 وقبل الإله الكلمات الصادقة الطاهرة التى قدمها الفتى .  
 إن الكلمات التى رفعها الفتى صلاة ، سرت إلهه وهزت مشاعره .  
 فسحب إلهه كلمة الشر عنه  
 القلب الذى سلمه للعذاب عاد فعانقه .  
 ودفع آلامه وأوجاعه وأسقامه بعيداً عنه بعد أن تعالت .  
 الأوجاع التى ابتلاه بها أبعدها عنه .  
 وأبدل حظه الماطر الذى كان قد نطق به عليه .  
 إنه أبدل آلام الرجل بسرور .  
 وأرسل إليه يد العطف وأرواحاً صالحة لتقوده .  
 وحباه روحاً صديقة لتسير معه .  
 لذلك عاد الرجل يشيد بعظمة إلهه .

ويرى كثير من الباحثين - ويحق - أنه بمقابلة أبيات هذه القصيدة بما ورد  
 فى سفر أيوب. وبعض ما جاء بسفر الزامير، لوجدنا تشابهاً قوياً ومطابقة  
 واضحة للعيان.

## خلق أشنان ولا حار

أشنان هي إلهة الحبوب، وهي تشبه إلى حد ما الإلهة الرومانية «سيزر» إلهة الحبوب والزراعة، وهي تقبل كذلك الإله «دميتر» إلهة الحبوب والحصاد عند الإغريق. وكانت عبادتها مرتبطة - في سومر - بعبادة إلهة الأرض. أما «لا حار» فهي إلهة الماشية والحظائر وانغم، وهما شقيقتان خلقهما الإلهان إنليل و«إنكى».

وتصف الأسطورة حال العالم قبل خلق هاتين الإلهتين الشقيقتين.. فتقول

لم يكن هناك نعجة، ولا قُذِفَ بحمل.

لم يكن هناك عنزة، ولا قُذِفَ بجدي.

النعجة لم تلد حملين.

العنزة لم تلد أجداها الثلاثة.

حبة الشش ذات الثلاثين يوماً لم تكن وجدت.

حبة الشش ذات الأربعين يوماً لم تكن وجدت.

الحبة الصغيرة، حبة الجبل، حبة المخلوقات الطاهرة لم تكن وجدت.

لم يعرف الأنوناكي أكل الخبز.

ولم يعرفوا لباس الحلل.

كانوا يأكلون النبات بأفواههم كالأغنام.

ويشربون الماء من الجداول.

وفي تلك الأيام في حجرة الخلق الخاصة بالآلهة.

وفي بيتهم المسمى دوكو خلق لا حار وأشنان.

وما أنتج لا حار وأشنان أكله الأنوناكي ولكنهم لم يشبعوا.

ومن حظائرها شرب الأنوناكى لبن وشم الطيب .

شرب الأنوناكى ، ولكنهم لم يرتووا .

فمن أجل حظائرها الطيبة الطاهرة .

أعطى الإنسان نفس الحياة .

وكما ذكرنا سابقاً - عند الحديث عن خلق الإنسان - فإن الآلهة قد شعروا

بالتعب، لذا قرروا خلق الإنسان ليعمل بدلاً منهم ويوفر لهم الزاد، لذا كان من

الضرورى - والحال كذلك - أن تنزل الإلهتين إلى الأرض. تقول الأسطورة:

فى تلك الأزمان قال الإله إنكى للإلهة إنليل .

يا أبنتى إنليل إنهما لاحار وأشنان

اللنان خلقناهما فى بيت الآلهة «الدوكو» .

دعنا ننزلهما من بيت الآلهة .

وبكلمة إنكى وإنليل المقدسة .

هبط لاحار وأشنان من بيت الآلهة «الدوكو» .

لقد أنشأ «إنليل وإنكى» للإلهة لاحار الحظيرة .

وجعل لها النباتات والأعشاب الوفيرة .

أما أشنان فقد أقام لها بيتاً .

وقدما المحراث والنير هدية لها .

لاحار واقفة فى حظيرتها .

راعية تزيد نتاج حظيرتها هى .

أشنان واقفة بين اغاصيل .

عذراء لطيفة وجميلة هى .

ثم تعمل الإلهتان على نشر الخير والرخاء بين البشر حتى أنعم فيهما كل بيت، تقول الأسطورة:

لا حار واقفة في حظيرتها .

راعية تزيد نتاج حظيرتها هي .

أشنانا واقفة بين المحاصيل .

عذراء لطيفة وجميلة هي .

الرزق الذي يأتي من السماء .

لا حار وأشنان كانتا من ورائه .

إلى المجتمع جلبتا رزقاً .

وإلى البلاد جلبتا نسمة الحياة .

ناموس الآلهة توجهان .

ما ضمت المخازن تكثران .

المخازن تملأنها إلى التمام .

إلى بيت الفقراء الذي يعانقه الغبار .

تدخلان وتحلبان الرزق .

كلتا هما، حيثما وقفنا .

جلبتا زيادة غزيرة إلى البيت .

المكان الذي تقفان تشبعان، والمكان الذي فيه تجلسان تمرّنان .

تدخلان السرور على قلب آن وإنليل .

كان الإلهتان تشربان الكثير من الخمر، وكثيراً ما كانتا تتشاحنان، فكل

منهما تحاول أن تثبت للأخرى أنها الأفضل، وأنها الأجدى، فتقول لآحار إنها التى تطعم الآلهة اللبن والزبدة، وأن غلة أشنان تنمو فى الأرض بدون جهد، فتدّ أشنان أنها هى التى تزرع وتسقى وتحصد الطعام للآلهة. وأنها لولا علتها ما أنتجت لآحار، وهنا تحكم بينهما الآلهة، فتعطى الحق لأشنان لأنها الأسبق فى العمل من لآحار، فتقنع لآحار بحكم الآلهة وتمضى الحياة متدفقة خصبة.

### خلق إيمش وإنتن

بعد أن قرر الإله «إنليل» أن تثمر جميع أنواع الشجر وأن يهب البلاد رزقاً ورخاء عمد إلى خلق أخوين هما «إيمش» وهو الصيف، و«إنتن» وهو الشتاء، وقرر أن يعهد إلى كل منهما مهمته الخاصة به، تقول نصوص الأسطورة:

إنتن جعل السحرة تلد الحمل، والعزرة تلد المجدى.

جعل البقرة والعجل يتكاثران، والقشدة واللبن يزيدان.

فى القفار أدخل السرور على قلب الماعز البرى والغنم والحمار البرى

طيور السماء جعلها تبنى أعشاشها على الأرض الرحبية.

سمك البحر جعله يضع بيضه فى دغل القصب.

فى غياض النخيل والكرمة جعل العسل والنبيذ وفيرين.

الأشجار، حيثما زرعت، جعلها تحمل ثماراً.

البساتين كساها بالأخضر، أخصب نباتاتها.

جعل الحب يتكاثر فى الأحاديث.

مثل أشنان العنقاء اللطيفة، جعله يطلق قويا.

إيمش أيضاً قام بمهمته خير قيام.

إيمش أوجد الأشجار والحقول، وسع الاصطبلات والخطائر.

المنزاع كثر غلاتها، كسا أرضها.

جعل المحصول الرفير يدخل البيوت، وملا العنابر إلى تمامها.

جعل المدائن والمساكن نشاد، والبيوت تبنى في البلاد.

والمعابد تطاول الجبل.

يستنتج من النص السابق أن الأخوين «إنتن» و«إيمش» استطاعا فعلاً أن ينجزا مهمتهما من أجل مد الأرض بأسباب الإنماء والرخاء والخير، لذا قررا الذهاب إلى «نفر»، حيث مقام الإله إنليل لتقديم واهر الشكر والثناء وتقديم القرابين، فقد قام إيمش بجلب أنواع عديدة من الحيوانات، وأصناف من الطيور والنباتات كهدية وندور، بينما قدم «إنتن» نماذج مختارة من المعادن الثمينة والأحجار والأشجار والأسماء كقربان منه إلى الإله إنليل.

وقبل أن يصلا إلى إنليل اشتد الجدل بينهما، فكل منهما يريد أن يبرهن أنه الأفضل، وأن هداياه أفضل من الآخر، وعندما يدخلان على إنليل يبدأ إنتن بالشكوى فيقول:

يا أبتي إنليل قد عهدت إلى بشون القنوات.

فجلبت مياه الخير.

وملأت حراصع الحبوب.

وأكثرت الغلة في المنزاع.

ومثل أشنان العذراء الرحمة، جعلتها تنمر بغزارة.

لكن إيمش الذي لا يفهم شيئاً في زراعة الحقول.

قد زاحمني بالمرفق والمنكب وفي قصر الملك.

ويقول إيمش رداً على ما قاله إنتن:

أى إنليل العظيم.

إننى عبدك وصنيعك.

وأنا الموكل على أشجارك وحقولك واصطبلاتك.

ولكن إنتن أنكر على ما فعلت.

ويصدر إنليل حكمه فيقول:

يسيطر الشتاء «إنتن» على المياه التى تجلب الحياة على الأرض، وهو فلاح الآلهة الذى يكسب الغلال، إيمش يا بنى كيف تقارن نفسك بأخيك إنتن.

وفى هذا تفصيل لفصل الشتاء على فصل الصيف، وهذا يرجع إلى المناخ الزراعى فى سومر، حيث كان فصل الشتاء هو فصل الزراعة الأساسى، وكان ينتهى هذا الفصل مع مقدم الربيع الذى يعتبر فصل الحصاد ويحتفل به فى احتفالات واسعة كراس سنة جديدة.

وتقول الأسطورة فى نهايتها «إن كلمات إنليل السامية العميقة تنفذ إلى قرار كل شىء، حينها ركع إيمش أمام إنتن وجاء إلى بيته بالنبيذ والعنب والتمر. ومثلما نصروا الإلهة «أشنان» نصروا إنتن لجهده العظيم فى زراعة الأرض. وهكذا قدم إيمش لإنتن الذهب والفضة وحجر اللازورد وفى نشوة الإخوة الصادقة سكب الخمر بكل سرور تمجيداً للإله وعقدا العزم على خدمته».



## أسطورة إنليل وتنايل

ذكرنا في الفصل السابق أن إله السماء «آن» تزوج من إلهة الأرض «كي» وأنجبا «إنليل»، الذي يعنى اسمه سيد الهواء، ويلقب بجبل الريح، ورأينا كيف قام إنليل بالفصل بين أبيه السماء وأمه الأرض بعد أن كانا ملتصقين.

وبكى نتعرف على هذا الإله بصورة أوضح، وعى مقامه بين آلهة سومر علينا أن نطالع هذه الترنيمة السومرية المرفوعة إلى الإله إنليل:

بدون إنليل، الجبل العظيم.

لا المدائن شيدت، ولا المقار أست.

لا الإصطبلات شيدت، ولا حظائر الغنم أقيمت.

ولا الأنهار مياهها العالية جلبت الفيض.

ولا البحر أعطانا مختاراً كنوزه الوفيرة.

ولا سمك البحر وضع بيضه فى الأحواض.

ولا طيور السماء نشرت أعشاشها على الأرض الرحيبة.

لا الغيوم المحملة بالغيث فى السماء فتحت أفواهها.

ولا الحقول والمروج امتلأت بالحلب الكثير.

ولا الأعشاب والحشائش فى السهول نبتت.

ولا أشجار الجبل الكبيرة فى البستان حملت ثمارها.

ولا البقرة وضعت عجلها فى الاصطبل.

ولا الغمة ولدت حملها في الحظيرة.  
ولا الحمرة الغفيرة من بنى البشر اضطجعت آمنة.  
ولا البهيمة من ذوات الأربع ولدت صغارها.  
ولا رغب في التناسل.  
وتقول النصوص السومرية عن كلمة إنليل التي لا تتبدل:  
كلمة إنليل..

تقارب السماء - فيكون الفيض.  
من السماء ينزل الفيض إلى الأرض.  
كلمة إنليل - تلامس الأرض، فتكون الوفرة  
من الأرض تصدر براعم الخصب.  
حكمتك - هي الزرع، حكمتك هي المحبوب.  
حكمتك هي الماء العامر، حياة جميع البلاد.

والكلمة هنا هي م عبر عنه الإغريق فيما بعد بـ«اللوجوس» وأخذها عنهم  
القديس يوحنا في إنجيل يوحنا، حيث يقول: «في البدء كان الكلمة والكلمة كان  
عند الله وكان الكلمة الله».

وتظهر هنا الإشارة إلى أن كلمة إنليل هي الماء العمر، وهذا يعني أن الكلمة  
هي المطر الذي يعتبر أحد مظاهر الهواء، فالسحب يحركها لهواء ويمطرها.  
وهنا نجد أن الكلمة غير مجردة، فهي لها معنى محدد هو منى إنليل «آى  
مطره» وفي ذلك ما يشير إلى تحول قوة الإخصاب الذكورية من إله السماء  
«آن» إلى إنليل.

وارتباط إنليل بالمطر والخصب يأتي من ارتباط المطر بالهواء والغيوم التي

كان يمثلها إنليل، ومن المؤكد أن كهنته أضفوا عليه صفات الحياة والخصب لكي يجعلوا منه خالقاً شمولياً. ويظهر أقدم رموز إنليل في نهاية الألف الخامس قبل الميلاد على شكل مثلثين متقابلين من الرأس، ثم تطور إلى الفأس المزدوج الذي يشير إلى العمل والبناء وإلى القوة والسلطة أيضاً.

وربما كان الإله «ان» إله السماء، يأتي على رأس الآلهة في مطلع الألفية الثالثة قبل الميلاد، وربما ظل حتى ذلك الحين الإله الوحيد الذي يربى شؤون مدينة إيريك، وفي حوالي ٢٥٠٠ ق. م حل محلة إنليل «إله مدينة نيبور أونضر»، وترجع على عرش كبير الآلهة، وربما كان هذا نتيجة لصراع سياسي فقدت فيه مدينة «إيريك» تفوقها على المدائن السومرية المجاورة.

ويقيم الإله إنليل في مدينة نضر «نيبور» التي تقع إلى الجنوب من بغداد حوالي مائة ميل، وهي تعتبر أول مدينة على الأرض في أساطير سومر، كونها مدينة الإله إنليل، الإله القومي للسومريين، وفي هذه المدينة يشيد الإله معبده الكبير «إيكور» أي بيت الجبل. وتعتبر «نضر» العاصمة الدينية لسومر، وكان ينظر إليها وكأنها فاتيكان أسومريين، إذ يحجون لها من كل المدن السومرية، ويصلون لإلهها وإلههم إنليل، وكان وزير وحاجب إنليل هو «نسكو» الذي هو «كلمة قلب إنليل وكاشف سره والمحيط بأوامره وعامل بواميسه المقدسة».

ويعتبر نسكو «نوسكو» في لأساطير السومرية ابناً ووزيراً للإله إنليل، وتذكر بعض النصوص أنه ابن الإله «أن»، ويظهر في النصوص السومرية والأكدية على أنه إله الضوء والنار وكان ذكره حاضراً في التعاويذ الأكدية بشكل خاص باعتباره إلهاً مضاداً لسحر الأسود، أي أنه كان يقوم بحرق السحرة والمشعوذين.

وكان يرمز بالمصباح الموضوع على منضدة مرتفعة، وكان هذا الرمز يستعمل للتعبير عن إله سومري آخر هو «اليجبيل» أو «كيل» الذي هو إله النار أيضاً وأحد آلهة العالم السفلى وكان اسمه الأكدي «جيراً».

## زواج إنليل ونليل

اسم نليل الحقيقي هو سود أى الطويلة، وهذا هو اسمها قبل أن يتزوجها إنليل، أما بعد أن تزوجها فقد أطلق عليها اسم نليل أى «سيد الهواء». وتتحدث الإلهة «سود» من «نيسابا» إلهة الحبوب وكتابة، ومن الإله «خايا» أو «حايا» وهو إله الصوامع، وهذان الإلهان من شجرة الإله «إنكى» إله الماء والحياة.

وتقول الأسطورة إن نليل كانت فائقة الجمال، وعندما رآها إنليل لم يستطع أن يتمالك نفسه من جمالها، فعرض عليها الزواج، وحاول أن يقبلها، فرفضت وأوصدت الباب فى وجهه، إلا أنه لم ييأس، فأرسل وزيره وحاجبه «نسكو» - ومعه هدايا كثيرة - كي يخطب له نليل، وبالفعل يذهب نسكو إلى إيريش، ودخل «الإيزاجين» معبد الإلهة نليل، وبالفعل توافق نليل على الحطبة، ويمتلئ قلب إنليل بالسرور. تمت مراسم زواج إنليل ونليل، بعد أن أهداها هديا لا يحصى عددها ونوعها، وبعد الزواج مباشرة منحها لقب «أشنان»، وأشنان كما ذكرنا فى الفصل الأول هى إلهة الحبوب فى سومر، وقد منح إنليل هذا اللقب لزوجته «سود» لأنه يريد منها أن تسيطر على حقول القمح أو حصاده، ولذلك كنت «سود أو نليل» توصف بأنها سيدة حب الحطة عندما تذروه الرياح، أى عندما ينقى من القشور، ورمزها المعروف هو سنبلة القمح ذات الستة فروع، وذات الثلاث وريقات.

وبعد ذلك منحها إنليل لقب «نيسابا» أو نيدابا وهى والدة «سود» وهى - كما ذكرنا - إلهة البذور والحبوب، ثم إلهة الأعداد، وإلهة الكتابة، وإلهة الفلك، وإلهة الذكاء التى تفكر وتفتح آفاق التفكير لمن تحبه، وتظهر كإلهة للكتابة وهى تمسك القلم وإلهة للفلك وهى تحمل لوحة النجمة. ويعطى السومريون لنيسابا أهمية استثنائية، إذ يرون أنها نقلت الإنسان من اتوحش إلى المدنية، وكانت تعبد فى مدينة «أوما».

أما زوجها - كما ذكرنا - فهو الإله «خايا» أو «خانى» رب الكتابة وسيد

الأختام، وكان يوصف بأنه إله الصوامع، وهو يقابل «نبو» البابلى، ولذلك وصفت نيسابا فى العصور البابلية بأنها رفيقة الإله «نبو».

وقد منح إنليل زوجته لقب أمها نيسابا أو «نتبار شكونو» ليجعلها عارفة بالمحاصيل والحقول والمقاييس، وهذا يدل على أن الكتابة نشأت فى الأساس كحاجة من حاجات المعبد لعد المحاصيل وإحصائها.

وأخيراً توج «إنليل» زوجته بلقب «ننليل» الذى يعنى الاقتران المطلق به، فهو سيد الهواء والرياح وهى - بهذا اللقب - سيدة الهواء والرياح. وكلمة «لنلا» عند لسومريين تعنى المادة التى بين السماء والأرض، وكان هذا الجزء مظلماً - من وجهة نظرهم - يضاء بالنهار بواسطة الشمس، وبالليل بواسطة النجوم والكواكب، وقد عبرت كلمة «ليل» أيضاً عن الروح. باعتبار الروح هى النفس أو الريح التى تسخل وتخرج من أنفه. فكان الإنسان يأخذ روحه من الريح أو من إنليل ولهذا فالكون حى بفعل «ليل» وسيد إنليل وسيدته ننليل.

### فداء إله القمر والنزول إلى العالم السفلى

تقول الأسطورة إن إنليل حامع زوجته ننليل داخل قارب، فحملت منه الإله «نانا» له القمر، إلا أننا نجد أن الآلهة نهر إنليل وتوصمه بالفسق، على الرغم أن ننليل زوجته، وبكن يبدو أن هذا الجماع قد تم بينهما قبل أن تتم مراسم الزواج، على كل حال يصدر مجمع الآلهة قراره بنفى إنليل إلى العالم الأسفل، ويقوم إنليل بتنفيذ القرار، وتتبعه ننليل ولكنه يرفض أن ترافقه إلى العالم الأسفل، خاصة وهى تحمل فى أحشائها بذرة إله القمر، ولكن تصر ننليل وتتبعه إلى العالم السفلى.

وهكذا، نجد أن إنليل وهى تحمل «نانا» إله القمر، أصبح ثلاثتهم فى العالم السفلى، ولكى يكتب لهم النجاة كان لابد أن يعمل معلم ثلاثة آلهة، وبإاء على هذا الأساس يبدأ إنليل فى وضع خطة لنجاة ثلاثتهم من العالم السفلى، وعودتهم مرة أخرى إلى العالم العلوى.

يعلم إنليل أن ننليل تبعته إلى العالم السفلى. وكان دافعها في ذلك حبها له. فبدأ إنليل في تنفيذ مخططه، فيتكرر في صورة حارس بوابة العالم السفلى. فتسأله ننليل عن إنليل، فيعلمها أنه لم يره، وعرض عليها أن يجامعها حتى تلد إلهاً يكون فداءً لـ «نانا» إله القمر ابن إنليل، وبالفعل تستجيب له ننليل وتلد «مسلام تاي» وهو الإله «نركال أو نرجال»، وهو إله شمس في بدء حياته، إلا أنه أصبح بعد ذلك إله العالم الأسفل عندما تزوج أرشكيكال، وسيكون هذا الإله أحد بدائل الآلهة العلويين الثلاثة - إنليل وننليل ونانا - في العالم الأسفل.

يستمر إنليل في تنفيذ خطته للخروج من العالم الأسفل هو وننليل ونانا. فيتكرر في صورة صاحب نهر الجحيم، وبالطبع لم تعرفه ننليل، فتسأله عن إنليل فيخبرها أنه أوصاه بها، ويقصها للمرة الثانية أن يجامعها حتى ينجب إلهاً يبقى في العالم السفلى بدلاً من «نانا» إله القمر، وبالفعل تنجب إنليل الإله الثاني، «ننازو» وهو إله مدينة «إنغير» على لشرات الأسفل بين لارسا وأور ومدينة أشنونا في منطقة ديال، وزوجته هي نغريدا ابنة إنكي. وننازو إله مائي سفلى كان إله الطب والشفاء. وهو أحد آلهة العالم الأسفل، ويوصف أيضاً بأنه ابن نركال وأرشكيكال. وكانت عبادته منتشرة في مدينة ديال «مملكة أشنونا» حتى عصر أور الثالث، وحل محله فيما بعد الإله تشابل.

وأخيراً - وبنفس الطريقة - يتكرر إنليل في هيئة عيار نهر الجحيم، ويجامع ننليل وتلد له «اليجيبيل» لكي يفدى به أحد الآلهة الثلاثة العلويين، وهذا الإله الثالث هو إله النار في العالم الأسفل، وينظر إله النار «نسكو» في العالم العلوي، وهذا الإله إله شمس أيضاً في أصله وقد أعيدت عبادته بطريقة تثير العجب والتساؤل كإله عظيم تحت نفس الاسم عند الرومان «١٢٨ - ٢٢٢ م»؛ ويرى البعض أن هذا الإله السومري هو نفسه الإله السوري الذي بدا وكأنه إله حمص وسوريا، وارتبط بالمجون والمعتقدات الشرقية القديمة، وكان مظهراً من مظاهر التوحيد في الديانة الرومانية بوجهها السومري، وكان يسمى «اليجبال» أو «اليجيبيل».

فى نهاية الأسطورة يولد إله القمر «نانا» ويعتق إلى العالم الأعلى ومعه أمه وأبوه، ويقع الآلهة الثلاثة «ملام ناي، ونازو، واليجبيل» فى العالم السفلى هداءً للآلهة الثلاثة.

ويبدو كل هذا الغموض فى تكرر إنليل والحمل المتواصل للآلهة ننليل بسبب الاعتقاد السومرى بأن الإله القمر يقضى النهار فى العالم الأسفل والليل فى العالم الأعلى، أى أنه إله علوى وسفلى، وأنه فى نهاية الشهر القمري يحبس ثلاثة أيام ثم يطلق إلى الأعلى، وكان السومريون يقومون بطقوس خاصة وأدعية وتعاويذ لإخراجه من ذلك العالم، فهم يعتقدون أن الأشباح والشياطين تهجم على زورقه وتسجنه فى العالم الأسفل لثلاثة أيام.

وللإله «نانا» فى السومرية لقب معروف هو «أشيم بابار» أو «أشكر بابر» وفى الأكديّة «نمرصيت» ويعنى صاحب الشروق المشع. وكان فى سومر يمرّف أيضاً بـ«سواين» وهو الاسم الذى صار مصدر اسمه السامى فيما بعد «سين».

وكان الإله «نانا» يزور أبيه «إنليل» من وقت لآخر محملاً بالهدايا ليطلب مباركته، فكان يرحل من «أور» مدينة القمر إلى «نفر» مدينة الهواء قاطعاً بينهما عدة مدن، وهذا الجزء من الأسطورة يشير إلى العلاقة بين القمر والهواء أو النور والظلام، فالنور يزور الظلام بين وقت وآخر أو كل ليلة.

وكان للإله «نانا» معبد فخيم فى «أور» هو معبد «إكشينوجال»، وله معبد آخر فى حران شمال وادى الرافدين، وفى حران كان يعبد هذا الإله مع الإله «نسكو» إله الضوء والنار على اعتبار أن نسكو هو ابن القمر، وقد حافظت حران على عبادة الإله القمر حتى العصور العربية الإسلامية.



## ملحمة جلجامش

### التعريف بجلجامش

كان جلجامش، أو «كلكامش» بطلاً سومرياً، لكن ملحمة السومرية لم تصل إلينا، بل وصلت إلينا الملحمة المكتوبة باللغة الأكديّة في نسخ عديدة غير مكتملة، أما الذي ورد في اللغة السومرية عنه فمجموعة قصص قصيرة لا تغني عن المدون باللغة الأكديّة «البابلية».

فجلجامش من ناحية اتاريخ الأدبي لو، دى الرافدين يعد من أشهر أبطال القصص والملاحم، أما بالنسبة للحقائق التاريخية فما جاء عنه قليل، ومن ذلك أن اسمه ورد في إثبات الملوك السومريين من سلالة مدينة «أوروك» الوركاء، وهى السلالة الثانية التى حكمت بعد الطوفان.

وتروى القصص «كما فى ملحمة جلجامش» أن أمه كانت الإلهة «ننسون» وهى إحدى بنات الإله إنكى، وعلى ذلك، فهو يظهر لنا بصورة إنسان متأله دفعته الأساطير لمقام الآلهة، أما أبوه فهو الإله «لوكال بندا».

وخلاصة القول، ومن جماع الأدلة الكتابية والأثرية أن جلجامش كان أحد حكام دول المدن السومرية فى العصر المسمى «عصر فجر السلالات»، «٢٨٠٠ - ٢٤٠٠ ق. م» وأنه حكم مدينة الوركاء، ونسبت إليه أعمال البطولة المختلفة فى الأساطير والقصص السومرية ومنها قصة «أجا» ملك «كيش» ونزاع مع جلجامش، والمرجح أن جلجامش كان معاصراً لمؤسس سلالة أور الأولى، الملك «مس - أنييدا»، وأن الملحمة بنصها الأكدي أى البابلي «السامى» بدأت تتبلور فى عهد سيطرة السلالة الأكديّة التى أسسها سرجون الأكدي الشهير «فى حدود ٢٣٧٠ ق. م» ودونت كاملة فى العهد البابلي القديم «مطلع الألف الثانى ق. م».

## الأفكار الفلسفية التي تدور حولها الملحمة

عالجت هذه الملحمة قضايا إنسانية عامة، مثل فكرة الحياة والموت، وحال الإنسان بعد الموت، والخلود، ومثلت تمثيلاً بارعاً مؤثراً ذلك الصراع الأزلي بين الموت والفناء المقدرين، وبين إرادة الإنسان المغلوبة المهورة في محاولتها التشبث بالوجود والبقاء والسعى وراء وسيلة للخلود.

والموضوع الأساسي الذي شغلت به الملحمة هو البرهان على حتمية الموت على البشر، حتى بالنسبة إلى بطل مثل جلجامش الذي ثلثاه من مادة الآلهة الخالدة وثلثه الباقي من مادة البشر الفانية، لأن الآلهة - كما جاء في الملحمة - قد استأثرت بالحياة وقدرت الموت من نصيب البشرية.

وإذا كان الموت والفناء مقدرين على الإنسان، فماذا يفعل الإنسان حتى يظل خالداً أبدياً الدهر؟ تجيب الملحمة عن هذا التساؤل، فتخبرنا أن الإنسان ممكن أن ينال الخلود، ولكن الخلود هنا ليس خلوداً جسدياً، وإنما هو خلود معنوي يتمثل في قيامه بالأعمال العظيمة التي تخلد ذكره لدى الأجيال، وتجعل روحه تنال الراحة والطمأنينة في عالم الأرواح «العالم الأسفل» بحسب عقيدة العراقيين القدماء.

## البداية «وصف جلجامش وطريقة خلقه»

تقول النصوص الأكديّة عن جلجامش:

هو الذي رأى كل شيء فغنى بذكره يا بلادي.

وهو الذي عرف جميع الأشياء وألفاد من عبرها.

وهو الحكيم العارف بكل شيء:

لقد أبصر الأسرار وكشف عن الخفايا المكتومة.

وجاء بأنباء ما قبل الطوفان.

لقد سلك طرقاً بعيدة متقلباً ما بين التعب والراحة .  
 فنقش في نصب من الحجر كل ما عاناه وخبره .  
 بنى أسواراً وأوروكاً محصنة .  
 وحرم دأى - أناه المقدس والمعبد الظاهر .  
 أبحث عن اللوح المحفوظ في صناديق الألواح النحاسية .  
 وافتح مغلاقه المصنوع من البرونز .  
 واكتشفت فتحته السرية .  
 تناول لوح حجر اللازورد واجهر بتلاوته .  
 وستجد كما عانى جلجامش من المناء والنصب .  
 وفاق جميع الحكام، إنه ذو الهيئة البهية السامية .  
 إنه البطل سليل أوروك، والثور النطاح .  
 إنه موجة طوفان عاتية تحطم حتى جذران الحجر .  
 نسل دلو كال - بنداء - إنه جلجامش المكتمل القوة .  
 ابن البقرة الجلييلة ورمات - ننسود .  
 جلجامش المكتمل في الجلال والألوهية .  
 إنه هو الذي فتح مجازات الجبال .  
 وحفر الآبار في مجازات الجبال .  
 وعبر البحر المحيط، إلى حيث مطلع الشمس .  
 لقد جاب جهات العالم الأربع .  
 وهو الذي سعى لينال الحياة الخالدة

من ذا الذى يصارعه فى الملوكية؟  
 من غير جلجامش من يستطيع أن يقول : أنا الملك ؟  
 ومن غيره من سمى جلجامش ساعة ولادته ؟  
 نشأه إله ، وثلاثة الباقي بشر .  
 لقد صممت هيئة جسمه الآلهة العظيمة .  
 بعد أن خلق جلجامش ، وأحسن الإله العظيم خلفه .  
 حباه « شمش » ، السماوى بالحسن وخصه « أدو » بالبطولة .  
 جعل الآلهة العظام صورة جلجامش كاملة تامة .  
 كان طوله إحدى عشر ذراعاً وعرض صدره تسعة أشبار .  
 ثلثان منه إله ، وثلثه الآخر بشر .  
 وهيئة جسمه مخيفة كالثور الوحشى .  
 وفنك سلاحه لا يصده شئ .

### جلجامش و« أجا »

يدور هذا الجزء من الملحمة حول النزاع بين جلجامش الذى يعد من اساحية التاريخية خامس ملوك الوركاء الأول و« أجا » آخر ملوك سلالة كيش الأولى ، وكلاهما حكم فى أواخر عصر السلالات الثانية فى حدود ٢٥٠٠ ق . م .  
 وخلاصة القصة أن أجا ملك كيش أراد أن يسيطر سلطانه على دولة مدينة « أوروك » وكان يحكمها - كما ذكرنا - جلجامش ، وقبل أن يشن الحرب أرسل رسله إلى جلجامش تحمل إنذاراً له بأن يخضع له ويعترف بسيادة كيش على « أوروك » الوركاء ، وتوضح القصة الحكم الديمقراطى الذى كانت تتمتع به مدينة « أوروك » ، فقد كان يقوم على تصريف شؤونها مجلسان : أحدهما مجلس شيوخ

المدينة، وثنانيهما مجلس الرجال المحاربين. ولما كان قرار الحرب قراراً خطيراً، فكان لزاماً على جلجامش أن يعرضه على مجلس الشيوخ، وكان رأى جلجامش عدم الرضوخ لإنذار «أجا» إلا أن مجلس الشيوخ رفض هذا الاقتراح وفضل عدم الحرب، فامتنع جلجامش لهذا القرار، لذا عرض الأمر ثانية على المجلس الآخر - مجلس الرجال المحاربين - لئلا وافق بدوره على خوض الحرب وعدم الاستسلام.

ولكن تأتى الرياح بما لا تشتهي السفن، فنجد أن «أجا» يضرب حصاراً قوياً على أوروك يجبر بعدها جلجامش على قبول التبعة مقابل رفع الحصار، تقول النصوص:

رسل أجا بن النعمبارا جيزى،

انطلقوا من كيش إلى جلجامش فى أوروك.

السيد جلجامش عرض الأمر على كبار المدينة.

يلتمس كلمة منهم.

أن نجز الآبار، أن سجز آبار جميع البلاد.

أن ننجز الآبار، «الأقداح» الصغيرة فى البلاد.

أن نحفر الآبار، أن ننجز جبال الأحزمة

ألا فلنفرص الخضوع لبيت كيش، ولنعمل فيهم السلاح.

مجلس كبار المدينة اجتمع أجاب جلجامش:

أن ننجز الآبار، أن ننجز آبار جميع البلاد،

أن ننجز الآبار، «الأقداح» الصغيرة فى البلاد،

أن نحفر الآبار، أن ننجز جبال القيود،

ألا فلنخضع لبيت كيش، ولا نعمل فيهم السلاح.

مع إذعان مجلس الشيوخ لمطالب أجا حاكم كيش، ورفضهم الحرب، يضطر  
جلجامش إلى عرض الأمر على مجلس المحاربين:

ثم عرض جلجامش، سيد كلاب الأمر.

على شباب أهل مدينته، يلتبس الكلمة منهم:

«أن ننجز الآبار، أن ننجز آبار جميع البلاد،

أن ننجز الآبار، «الأقداح» الصغيرة في البلاد،

أن نحفر الآبار، أن ننجز حبال القيود،

إياكم والخضوع إلى بيت كيش، ولنعمل فيهم السلاح».

مجلس شباب المدينة المجتمع يعيب جلجامش:

من الذين يقعون، من الذين يجلسون،

من الذين تربوا مع أبناء الملوك،

من الذين يضغطون فخذ الحمار.

الذين منهم، من له روح!

لا يخضعون إلى بيت كيش، ألا فلنعمل فيهم السلاح.

«إن أوروك، صنعة أيدي الآلهة.

وإيانا، البيت الذي يصاعد في السماء.

الآلهة العظمى التي قدت أجزاءها.

وأسوارها العظيمة التي تلامس السحاب،

محل سكانها الرفيع شيدته «آن»،

أنت تتكفل به، أيها الملك البطل،

أيها الفاتح، الأمير الذي يحبه آن،  
 من الذي يخشى مقدم «أجا» .  
 وجيشه صغير، ومؤخرته تتربح،  
 ورجاله لا يرفعون عيونهم إلى الأعلى .  
 وعندئذ سر قلب جلجامش .  
 ومن كلمات شباب أهل مدينته .  
 ابتهجت نفسه .

وعندئذ يحزم جلجامش أمره، ويستعد للحرب، وطارت أخباره إلى الملك «أجا»، فحيش الجيوش. وقام بمحاصرة أوروك. فتصدى له جلجامش وأهل أوروك، ولكنهم هزموا وعادوا داخل أسوار أوروك الحصينة، وحينها أدرك جلجامش بأنه لا يستطيع مواجهة «أحا» وحيشه، وهنا يبدو أن مجلس الشيوخ أو كبار المدينة كان محقاً في رفضه طلب الحرب، لأنه - وكما يبدو - كان على علم بقوة «أحا» العسكرية وحذقه، وعلى كل حال، يرسل جلجامش رسولاً إلى «أجا» يطلب منه الصلح، لكن «أجا» قتله، فأرسل جلجامش رسولاً آخر يدعوه فيه إلى رفع الحصار عن أوروك على أن تدين له أوروك بالطاعة، فقبل «أحا» رفع الحصار، وعاد إلى كيش منتصراً.

### جلجامش وإنانا والثور السماوي

طبقاً للنصوص السومرية لهذه الأسطورة، نجد جلجامش - بعدما أدع له «أجا» ملك كيش أخذ بتضرع إلى الإله «إنليل» لأنه هو الذي أعان الأعداء عليه، فيخبره «إنليل» أن أمر الحرب والسيادة بيد إنانا «عشتار» البابلية وإنها الوحيدة القادرة على تقرير مصائر البلدان ونتائج الحروب، فيطلب جلجامش من إنليل أن يحدث «إنانا» في هذا الأمر، فيفعل إنليل، لكن إنانا ما إن رأت

جلجامش حتى مالت إليه، وأعجبت به، وحاولت إغراءه، إلا أن جلجامش - العالم بتاريخ الأسود، فلا تجد أمامها إلا أن ترسل إليه «ثور السماء» كي يدمر جلجامش، بل وأوروك بأجمعها، ولكن جلجامش بهزمه شر هزيمة.

أما في النص البابلي، فتجد أن «إنانا» أو «عشتار» قد أعجبت بجلجامش بعدما عاد منتصراً من غابة الأرز بعد أن قتل الوحش «خمبايا» أهواوا أو خواوا، بالسومرية، فبعد هذا النصر المدوي ارتدى جلجامش أفخر ثيابه، فلم تستطع إنانا «عشتار» المتعطشة دائماً لمثل هؤلاء لرجال مقاومته، فعرضت عليه الزواج ولكن - ولنفس الأسباب السالف ذكرها - يرفض جلجامش هذا العرض بعدما يذكرها بفضائلها، تقول نصوص الأسطورة البابلية:

غسل جلجامش شعره الطويل وحصل سلاحه.

وأرسل جدائل شعره على كتفيه.

وخلع لباسه الوسخ واكتسى حلاً نظيفاً.

ارتدى حلة مزركشة وربطها بزنار.

ولما أن تكمل جلجامش بتاجه.

رفعت عشتار «إنانا» الجذيلة عينها.

ورمقت جمال جلجامش فنادت:

«تعال يا جلجامش وكن عريسى الذى احترت.

امنحنى بذرتك أتمتع بها.

ستكون أنت زوجى وأكون زوجك.

ساعد لك مركبات من حجر اللازورد والذهب.

عجلاتها من الذهب وقرونها من البرونز.

وستربط لجرها «شباطين الصاعقة» بدلاً من البغال الضخمة .  
 وفي بيتنا ستجد شذا الأرز يعبق فيه إذا ما دخلته .  
 إذا ما دخلت بيتا فستقبل قدميك العتبة والدكة .  
 سينحى حضوراً لك الملوك والحكام والأمراء .  
 وسيقدمون لك الإتاوة من نتاج الجبل والسهل .  
 وستله عنراتك «ثلاثاً ثلاثاً» وتلد نعاك «التوائم» .  
 وحميرك ستفوق البغال في الحمل .  
 وسيكون لخيول مركباتك الصيت العلى في السبق .  
 وثورك لن يكون له مثيل وهو في سيرة» .

إلا أن حلجامش قد جاء ردوده ضد كل هذه الإغراءات، لأنه على نقيض أن  
 نهايته ستكون على يديها إذا هو وافقها . يجيب جلجامش:

«ماذا على أن أعطيك لو أخذتك زوجة؟  
 هل سأعطيكَ السمن والكساء لجسدك؟  
 هل سأقدم لك الخبز والطعام؟  
 وأى أكل وشراب سأعطيكَ مما يليق بسمة الألهة؟  
 أى خير سأنا له لو أخذتك زوجة؟  
 أنت ! ما أنت إلا المرقد الذى تخدم ناره في البرد .  
 أنت كالباب الخلفى لا يحفظ من ريح ولا عاصفة .  
 أنت قصر يتحطم فى داخله الأبطال .  
 أنت قبل يمزق رحله .

أنت قير يلوث من يحملة .  
 أنت قرية تليل حاملها .  
 أنت حجر مرمر يسهار جنداره .  
 أنت ماكنة حصار تخرب بلد الأعداء .  
 وأنت نعل يقرص قدم متعله .  
 أى من عشاقك من أحبته على الدوام؟  
 وأى من رعاك من أراضك دائماً؟  
 تعالى أقص عليك مآسى عشاقك .  
 من أجل تمز «دموزى» حبيب مبال .  
 قضيت بالبكاء والنواح عليه سنة بعد سنة .  
 لقد رمت طير الراعى .  
 ولكنك ضربته وكسرت جناحيه .  
 وها هو الآن حاط فى البساتين يصرخ نادياً :  
 «جناحى ! جناحى» .  
 ورمت بحبك الأسد الكامل القوة .  
 ولكنك حطرت للإيقاع به سبع وسبع وجرات .  
 ورمت الحصان الجلبى فى البراز والسياب .  
 ولكنك سلطت عليه بالعدو شوط سبع ساعات مضاعفة .  
 وقصيت عليه ألا يرد الماء إلا بعد أن يعكروه .  
 وقضيت على أمه «سليلى» أن تواصل البكاء والندب عليه .

وأحببت راعى القطيع .  
 الذى لم ينقطع بقدم إليك أكداًس الخبز .  
 وينحر الجداء ويطيخها لك كل يوم .  
 ولكبك ضربته وحولته ذباً .  
 وصار يطارده الآن أله من حماة القطيع .  
 وكلايه تعض ساقيه .  
 وأحببت «إيشولنو» ، بستانى أبيك .  
 الذى حمل إليك سلال التمر بلا انقطاع .  
 وجعل مائدتك عامرة بالوفير من الزاد كل يوم .  
 ولكنك رفعت إليه عينيك فراودته وقلت له :  
 «تعال يا حبسبى «إيشولنو» ، ودعنى أمتنع برجولتك .  
 مد يدك والمس مفاتن جسمى» .  
 فقال لك «إيشولنو» .  
 ماذا ترومين منى ؟  
 ألم تحبىز أسمى فأكل من خبرها .  
 حتى أكل خبز الخنا والعار ؟  
 وهل يدرأ كرخ القصب الزمهرير ؟  
 وأنت لما سمعت كلامه هذا ضربته بعصاك ومسخته ضفدعاً .  
 ووضعتة وسط «طين البرك» فى عذاب .  
 فلا يستطيع أن يعلو مرتفعاً ولا ينزل منحدرأ .  
 فإذا أحببتنى فستجعلين مصيرى مثل هؤلاء» .

بعد سماع إنانا لهذا الرد الذى حمل كل معانى الإهانة، لا تجد مفراً من اللجوء إلى أبيها «آنو» ليخلق لها «ثوراً سماوياً» يهزم جلجامش ويحل الخراب على «أوروك»:

ولما سمعت عشتار «إنانا» هذا .  
استشاطت غيظاً وعرجت إلى السماء .  
صعدت عشتار وبكت أمام أبيها «آنو» وقالت :  
يا أبى إن جلجامش سبنى وأهانى .  
لقد عدد جلجامش مثالبى وعارى وفحشائى .  
ففتح آنو فاه وقال لعشتار الجميلة .  
وأنت التى محرشت فجنيث الثمرة .  
فعدد جلجامش فحشاءك وعارك ومثالبك .  
ففتحت عشتار فاهها وقالت لآنو، أبيها  
واخلق لى يا أبى ثوراً سماوياً ليغلب جلجامش ويهلكه .  
وإذا لم تعطنى الثور السماوى .  
فلأحطم باب العالم الأسفل .  
وأفتح على مصراعيه .  
وأدع الموتى يقومون فيأكلون الأحياء .  
ويصبح الأموات أكثر عدداً من الأحياء .  
ففتح «آنو» فاه وأجاب عشتار الجميلة وقال :  
ولو فعلت ما تريدني منى وزودتك بالثور السماوى  
لحلت فى أرض «أوروك» سبع سنين عجاف .

بعد سماع إنانا لهذا الرد الذى حمل كل معانى الإهانة، لا تجد مفراً من اللجوء إلى أبيها «آنو» ليخلق لها «ثوراً سماوياً» يهزم جلجامش ويحل الخراب على «أوروك»:

ولما سمعت عشتار وإنانا هذا .  
استشاطت غيظاً وعرجت إلى السماء .  
صعدت عشتار وبكت أمام أبيها «آنو» وقالت :  
يا أبى إن جلجامش سبنى وأهاننى .  
لقد عدد جلجامش مثالى وعارى وفحشائى .  
ففتح آنو فاه وقال لعشتار الجميلة :  
وأنت التى تحرشت فجنيث الثمرة .  
فعدد جلجامش فحشاءك وعارك ومثالك .  
ففتحت عشتار فاهها وقالت لآنو، أبيها :  
داخلق لى يا أبث ثوراً سماوياً ليغلب جلجامش ويهلكه .  
وإذا لم تعطنى الثور السماوى .  
فلأحطم باب العالم الأسفل .  
وأفتح على مصراعيه .  
وأدع المونى يقومون فيأكلون الأحياء .  
ويصبح الأسوات أكثر عدداً من الأحياء .  
ففتح «آنو» فاه وأجاب عشتار الجميلة وقال :  
ولو فعلت ما تريدنه منى وزودتك بالثور السماوى .  
لحلت فى أرض «أوروك» سبع سنين عجاف .

فهل جمعت غلالاً لهذه السنين العحاف .  
 وهل خزنت العلف للماشية .  
 فتحت «عشتار» فاما وأجابت أباه «أنو» قائلة :  
 «لقد جمعت «يسادر» الحبوب للناس .  
 وخزنت العلف للماشية .  
 فلو حلت سبع سنين عجاف .  
 فقد خزنت غلالاً وعلفاً .  
 تكفى الناس والحيوان» .  
 ولما أن سمع كلامها سلم عشتار .  
 سلسلة مقود الثور السماوى فأخذته وقادته إلى الأرض ،  
 أنزلته فى أرض «أوروك» .  
 هبط الثور السماوى وأخذ ينشر الرعب والفرع .  
 وقضى فى أول خواره له على مائة رجل ثم مائتين وثلاثمائة .  
 وقتل فى خواره الثانى مائة ومائتين وثلاثمائة .  
 وفى خواره الثالث هجم على «إنكىدو» .  
 ولكن «إنكىدو» صد هجومه .  
 ففزع «إنكىدو» ومسك الثور السماوى من قرنيه .  
 فرشق الثور السماوى وجهه بزيده ورغائه .  
 وقذفه بالروث بذيله .  
 ففتح «إنكىدو» فاه ، وقال للجلجامش :  
 «ينبغى أن نقتسم العمل فيما بيننا .

أنا سأمسك بالثور من ذيله .  
 ويسمى أن يكون الطعن بالسيف ما بين السنام والقرنين .  
 فطارد «إنكيدو» ثور السماء ليمسك به .  
 ومسك به من ذيله وضبطه بكأنا يديه .  
 وجلجامش ، مثل فصاب ماهر ،  
 طعن الثور السماوى طعنة قاتلة .  
 وغرس حسامه ما بين السنام والقرنين .  
 وبعد أن أجهزاً على الثور السماوى اقتلعا قلبه .  
 وقرياه إلى الإله «شمش» ، وسجدا له .  
 وقعد الأخوان وجلجامش وإنكيدو واستراحا .  
 أما «عشتار» «إنانا» فإنها اعتلت فوق أسوار «أوروك» العالية  
 فغزت فوق الشرفات وقذفت بلعناتها صارخة :  
 «الويل لجلجامش - الذى دنسنى وأهاننى بقتله الثور السماوى» .  
 ولما أن سمع «إنكيدو» هذا القول من عشتار .  
 قطع فخذ الثور السماوى وقذفه فى وجهها وقال :  
 «لو أمسكت بك لفعلت بك مثل ما فعلت به .  
 ولربطت أحشاءه بأطرافك» .  
 فصبحت عشتار التبتلات وبغايا المعبد والموسمات .  
 وأقامت المناحة والبكاء على فخذ الثور السماوى الأيمن .  
 أما جلجامش فإنه دعا الصناع ، وصانعى السلاح كلهم .  
 فانبهر الصناع من كبر قرنيه ونخنها .

فإن كلا منهما من حجر اللازورد بزنة ثلاثين منا .

وتُخَن طلاء كل منهما اصبعان

ومقدار ستة «كرات» من السمن سعة كليهما .

فقرب بمقدار ذلك زينا للمسح إلى إلهه «الحامى» «لوكال نندا» .

أخذهما وعلقتهما فى حجرة بومه الزاهية .

ثم عسلا أيديهما فى نهر العرات .

وعانق كل منهما الآخر وهما سائران فى الطريق

سار راكبين فى دروب «أوروك» .

فاجتمع أهل «أوروك» ليشاهدوهما .

وصار جلجامش يخاطب مغنيات أوروك ويردد :

«من الأُمجد بين الأبطال ؟

ومن أزمى الرجال ؟

فجابهه : «جلجامش الأُمجد بين الأبطال .

جلجامش زين الرجال» .

ولم تجد عشتار «إنانا» فى الدرب من يواسيها ويفرح قلبها .

كانت «إنانا» غاضبة أشد الغضب لأن ما حدث - من وجهه نظرها - كان

فيه ضياع لهيبتها، ولما رأى «جلجامش» هذا الغضب ناشدها أن تعود على

مدينتها المقدسة «أوروك»، ويتدخل أحوها «وتو» ويقعها بالعودة إلى مدينتها،

فهى حارستها، وكان الأولى بها أن تعينها على أعدائها وليس العكس، فتعيق

«إنانا» من ثورة غضبها، فتمسك بصولجانها وتصيح «أنا أتوح جلجامش بطلاً

على أوروك وسومر كلها، وسأرعى جلجامش وأوروك وأقيم فيها» .

قفزت إنانا من سور «أوروك» وعانقت جلجامش وتوخته بطلاً وملكاً وسارت

معه وسط «أوروك» وفي ساحاتها ورأى الناس عظمة ملكهم وقوته فهتفوا له طويلاً، ويوم طارت أخبار «أوروك» إلى الأصقاع أدانت المدن الأخرى له بالطاعة والغلبة، واعتذر «أجا» ملك «كيش» عن طيئته وساد «أوروك» الفرح لوقت طويل.

### جلجامش وإنكيديو

لم توضح لنا النصوص السومرية الكثير عن شخصية «إنكيديو» وكيفية ظهوره، وكيف صار صديقاً لجلجامش وخلا له، أما الملحمة البابلية فقد أفصحت لنا عن كل هذه الأمور، حتى أن البعض يشك في أن إنكيديو السومري هو نفسه إنكيديو الذي ظهر في الملحمة الأكديّة «البابلية»، وعلى ذلك سنعرض لهذا الجزء من الملحمة كما جاءت به النصوص البابلية.

تبدأ نصوص هذا الجزء من الأسطورة بشكوى أهل مدينة «أوروك» للإله «أنو» من اضطهاد «جلجامش» وظلمه لهم، حيث إنه:

لم يترك «جلجامش» عذراء طليقة لأماها

ولا ابنة المقاتل ولا خطيبة البطل.

وعندئذ يستجيب الإله «أنو» لشكواهم، ويطلب من الإلهة «أرورو» والتي خلقت جلجامش - طبقاً لهذا الجزء من الأسطورة - طلب منها أن تخلق له غريباً له، حتى ينشغل جلجامش بمصارعته عن أهل «أوروك»:

حالماً سمعت «أرورو» ذلك.

تصورت في لبها صورة لآنو.

وغسلت «أرورو» يديها.

وأخذت قبضة من طين ورمتها في البرية.

وفي البرية خلقت «إنكيديو» الصنديد مثل «نورتا» القوي.

يكسو جسمه الشعر الكث، وشعر رأسه كشعر المرأة.

ونمت فروع شعر رأسه جدائل كشعر نصابا .  
لا يعرف الناس ولا البلاد ويلبس لباساً مثل «سموقان» .  
ومع الظباء يأكل العشب .  
ويتدافع مع الوحش عند موارد الماء .  
ويطيب له عند ازدحام الحيوان في مورد الماء .

بعد ذلك يراه أحد الصيادين، بهذه الهيئة القوية، وهو يشرب مع الوحوش، ويسكن معهم بيوتهم، بل ويقطع شباك الصياد ويمسد أشراكه، فهو يحمي الحيوانات لأنه يعتقد أنه واحد منهما، والحيوانات بدورهما تحبه، لأنهما تعتقد ذلك، وكيف لا، وقد تربى بينهما، وأكل طعامهم، وشرب شربهما، وبإيعاز من والد الصياد، يذهب الصياد إلى «جلجامش» ليخبره ما رأى من قوة هذا الرجل. وكيف أنه لا يستطيع الصيد بسببه، فيرسل معه «جلجامش» إحدى البقايا حتى تغرى «إنكيكو» بمفاتنتها وبجامعها، وعندها سينصرف «إنكيكو» بطريقة بشرية. فتبتعد عنه الوحوش وجميع الحيوانات، ويستطيع الصياد أن يقوم بعمله الذي اعتاده، وبالفعل يقوم الصياد بتنفيذ المخطط المرسوم، تقول النصوص:

قصدت وحوش البر الماء ففرحت وطابت قلوبها .

أما «إنكيكو» الذي كان مولده في التلال .

والذي يأكل العشب مع الظباء، ويرد الماء مع الحيوان .

ويقرح له مع حيوان البر عند مسقى الماء

فإن «البنى» رآته، رأت الرجل الوحش .

أنصرت البعى المارد، الآتى من قلب الصحارى .

فأسر إليها الصياد .

وهذا هو أيتها البغى فاكشفى عن نهديك .

اكتشفى عن عورتك لينال من مفاتن جسمك .  
 لا تحجسى ، بل راوديه وابعثى فيه الهيام .  
 فإبه متى أنك المجذب إليك .  
 اضئى عك ثيابك ليقع عليك .  
 علمى الوحش الغر وظيفة المرأة .  
 ستتكوره حيواناته التى ربيت معه فى صحرائه .  
 إذا حفى بك واعطف حبه إليك .  
 فأسفرت البغى عن نهديها وكشفت عن عورتها .  
 فتمتع بمفاتن جسمها .  
 لم تحجم بل راودته وبعثت فيه الشوق  
 بضت عنها ثيابها فوقع عليها .  
 وعلمت الوحش الغر وظيفة المرأة .  
 فاجذب إليها وتعلق بها .  
 لبث «إنكىدو» يتصل بالبعى ستة أيام وسبع ليال .  
 وبعد أن شبع من مفاتنها .  
 وجه وجهه إلى ألفه من حيوان الصحراء .  
 فما إن رأت الطباء «إنكىدو» حتى ولت عنه هاربة .  
 وهربت من قربه وحوش الصحراء .  
 ذعر «إنكىدو» ووهنت قواه .  
 حذلته ركبته لما أراد اللحاق بحيواناته .  
 أضحى «إنكىدو» حائر القوى .

لا يطيق العدو كما كان يفعل من قبل.

ولكنه صار فطناً واسع الحس والفهم.

رجع وقعد عند قدمي البغي.

وصار يطيل النظر إلى وجهها.

لم ينته دور البغي عند هذا الحد، فلا بكفى أن يبتعد «إنكيدو» عن الحيوانات التي تربي معها، ولكن عليها أن تحفزه على تحدى جلعامش ومصارعته، وذلك حتى ينشغل عما يفعله في أهل أوروك أو كما تقول النصوص:

كلمت البغي «إنكيدو» وقالت له:

«صرت تحوز على الحكمة يا «إنكيدو» وأصبحت مثل إله.

فعلام تجول في الصحراء مع الحيوان؟

تعال آخذك إلى «أوروك» ذات الأسوار.

إلى «البيت» المقدس، مسكن «آنو» و«عشتار».

حيث يعيش جلعامش الكامل الحول والقوة.

المتسلط على الناس كالثور الوحشي».

لما أن كلمته تبيل منها قولها.

وفرح قلبه لأنه كان ينشد صاحباً له.

فأجاب «إنكيدو» البغي وقال لها:

«هلمي أيتها البغي، خذيني إلى البيت الطاهر،

مسكن آنو وعشتار حيث يحكم جلعامش الكامل الحول والقوة

والمتسلط على الناس كالثور الوحشي».

وأنا سأتحداه وأغلظ له في القول .  
 وسأصرخ في قلب «أوروك» : أنا الأقوى .  
 أجل ! أنا الذي سأبدل المصائر .  
 أنا الذي ولد في الصحراء هو الأشد والأقوى .  
 وبالفعل تصاحبه البغي إلى «أوروك» وقبل أن يصل إلى جلعامش يرى  
 الأخير رؤيا يقصها على أمه «ننسون» حتى تقوم بتأويلها :  
 ديا أُمي لقد رأيت الليلة الماضية حلماً .  
 رأيت أنني أسير مختلاً بين الأبطال .  
 فظهرت كواكب السماء .  
 وقد سقط أحدها إلى وكأنه شهاب السماء «آنو» .  
 أردت أن أرفعه ولكنه ثقل على .  
 وأردت أن أزحزحه فلم أستطع أن أحركه .  
 تجمع حوله أهل بلاد «أوروك» .  
 ازدحم الناس حوله وتدافعوا عليه .  
 واجتمع عليه الأبطال .  
 وقبل أصحابي قدميه .  
 أحبيته وانحنيت عليه كما أنحني على امرأة .  
 ورفعته ووضعتني عند قدميك .  
 فجعلته نظيراً لي .  
 قالت «ننسون» العارفة بكل شيء لجلعامش :  
 «إن رؤيتك نظيرك كوكب السماء .

والذى سقط إليك وكأنه شهاب السماء وآتو .

والذى أردت أن ترفعه فثقل عليك .

والذى أردت أن ترحزه فلم تستطع .

وأحبته واحنيت عليه كما تحنى على امرأة .

والذى وضعته عند قدمي .

فجعلته أنا نظيراً لك .

إنه صاحب قوى ، يعين الصديق عند الضيق سيأتى إليك .

إنه أقوى من فى البلاد وذو عزم شديد .

وعزمه مثل عزم «آتو» وذو بأس شديد .

وأما إنك أحبته فاحسيت عليه كما تحسى على امرأة .

فمعناه أنه سيلازمك ولن يتغلى عنك .

وهذا هو تفسير رؤياك .

ففتح جلجامش فاه وقال مخاطباً أمه .

«عسى أن يتحقق هذا القول بمشيئة «إنليل» العظيم .

فيكون لى صاحب وصديق ناصح .

وساكون له صاحباً وصديقاً وفياً .

فى هذه الأثناء تقوم البغى بشق ثوبها شقين، ألبست «إنكىدو» أحدهما، وليسست هى الآخر، ثم أخذته إلى كوخ الرعاة، فعاشرهم، وعلموه كيف يأكل الطعام ويشرب الشراب، وكيف ينظف جسده، فأصبح إنساناً بكل ما تحمله الكلمة من معان، وساعد الرعاة بأن قتل لهم الوحوش حتى يرعوا فى اطمئنان، فصار حارسهم وناصرهم. وذات يوم جاء إلى «إنكىدو» رجل من أهل «أوروك»

يشكو له من جلجامش وأفعاله:

«لقد اقتحم «جلجامش» بيت الاجتماع،

الذى خصص للناس والأعراس،

لقد أحل في المدينة العار والدنس.

وفرض على المدينة المسكودة المنكرات وأعمال السخرة.

لقد خصصوا الطبل إلى ملك «أوروك»، ذات الأسواق.

يخصصون الطبل ليختار المرائس قبل أزواجهن.

فيكون هو العريس الأول قبل زوجها.

وهم يقولون: لقد أراد الآلهة هذا الأمر.

وقدروه له منذ أن قطع حبل سرتة».

وما إن سمع «إنكيدو» كلام الرجل حتى امتنع وجهه، ويقرر أن يواجه

«جلجامش» ويتحداه.

سار «إنكيدو» إلى الأمام وخلفه البغي ولما دخل «أوروك» ذات الأسواق الواسعة.

تجمع الناس حوله.

حين وقف في شارع «أوروك»، في موضع السوق،

تجمهر الناس حوله وقالوا عنه:

«إنه مثيل لجلجامش في البنية.

ولكنه أقصر قامة وأقوى عظاماً.

إنه أقوى من البهية، وذو بأس شديد.

لقد رضع لبن حيوان البر في البادية.

وفي أوروك لن تنقطع قعقة السلاح».

فى ذلك الوقت كان جلجامش يستعد للقيام بشعائر دينية - كانت تمارس فى العراق القديم - من الممكن أن يطلق عليها «الزواج الإلهى المقدس»، وهو رمز لاتصال الملك بالإلهة، وكانت كاهنة تقوم بدور الإلهة للاتصال الجنسى بالملك ضمناً لإحلال الخصب والرخاء فى البلاد.

ولما كان جلجامش يتهيأ للقيام بهذه الشعائر صادف مجيء «إنكىدو» فتصدى له، ومنعه من دخول المعبد، ولعل إنكىدو أراد أن يقوم هو بتلك لشعائر. فنشبت المعركة بين البطلين، وكانت بطريقة المصارعة:

رأى جلجامش «إنكىدو» الهائج.

الذى ولد فى البادية ويحلل رأسه الشعر الطويل.

فانقض عليه وهاجمه.

تلاقيا فى موضع سرق البلاد.

سد إنكىدو باب «بيت الاجتماع» بقدميه.

ومنع جلجامش من الدخول إلى الفراش

أمسك أحدهما بالآخر وهما ممرسان بالصراع.

وتصارعا وخارا خوار ثورين وحشيين.

حطما عمود الباب وارتج الجدار.

وظل جلجامش وإنكىدو متماسكين يتصارعان كالثورين الوحشيين.

وحينما انثنى جلجامش وقدمه ثابتة فى الأرض «ليرفع إنكىدو».

واستدار ليمضى. هدأت ثورة عضبه.

ولما هدأ عضبه كلمه إنكىدو وقال له.

«إبك الرجل الأوحده، أنت الذى ولدتك أمك.

ولدتك أمك «ننسون»، البقرة الوحشية المقدسة.

ورفع إنليل رأسك عالياً على الناس.

وقدر إليك الملوكية على البشر.

وبعد ذلك يصبح البطلان صديقين حميمين، لا يفارق أحدهما الآخر، وقد ذكرنا أن جلجامش كان على علم بصيرورة هذه الصداقة، بعد أن قص رؤيته على والدته «ننسون» وقامت بتأويلها له.

### رحلة جلجامش إلى أرض الحياة

في هذا الجزء من الملحمة يقرر جلجامش السفر مع صديقه إنكيديو إلى أرض الحياة أو «غابة الأرز» وقتل العفريت «خاوا» باللغة السومرية، أو «خمبايا» بالأكدية، وهذا الجزء من الأسطورة يمكن القول إنه أحد الأصول السومرية للمحمة جلجامش البابلية.

ويبدو أن الهدف من سفر جلجامش إلى هذه الأرض أو الغابة هو تخليد اسمه بين البشر، بعد أن أيقن أن الخلود الجسدي للبشر هو أمر غير وارد، وأن الموت سيكون نهايته المحتومة، أما خلود البشر فإنما يتمثل فيما يحزره المرء من أعمال جليلة تخلد اسمه على مدى العصور، وهذا المفهوم عن الخلود في الملحمة السومرية نجد عكسه تماماً في الملحمة البابلية، فجلجامش - طبقاً للنص الأكدي - يذهب إلى «أوتو - نبشتم» بطل الطوفان البابلي ليعرف منه سر الخلود الحقيقي، أي الخلود الجسدي المتمثل في عدم الموت واجتراح سكراته.

يبدأ هذا الجزء من الملحمة - جلجامش وأرض الحياة - باعتزام جلجامش السفر إلى أرض الحياة، وإخباره صديقه إنكيديو بهذا القرار:

السيد أرسل فكره نحو أرض الأحياء.

السيد جلجامش أرسل فكرة نحو أرض الأحياء.

وقال لتابعه إنكيدو:

«إنكيدو، الحتم لم يأت بعد بالنهاية المضمومة.

بودى دخول البلاد «أرض الحياة»، بودى رفع اسمى،

فى مكانه حيث الأسماء مرفوعة،

بودى رفع اسمى.

فى مكانه حيث الأسماء غير مرفوعة.

بودى رفع اسم الآلهة».

أجابه إنكيدو:

«سيدى، إذا اعتزمت دخول هذه البلاد.

فاعلم الإله أوتو الشجاع.

هذه البلاد «أرض الحياة»، برعاية أوتو.

بلاد الأرز المقطوع، برعاية أوتو الشجاع.

أعلم أوتو».

جلجامش وضع يديه على جدى أبيض.

وضم إلى صدره جدياً منقطعاً كقربان.

ووضع فى يده صولجان القيادة الفضى.

وقال الأوتو السماوى:

«أوتو، بودى أن أدخل البلاد، فكن حليفى،

بودى أن أدخل بلاد الأرز المقطوع، فكن حليفى».

فأجاب أوتو السماوى:

«ولكن ما شأنك بأرض الحياة؟»

أجابه جلعامش:

«أوتو، بودى أن أكلمك كلمة.

فصاغ إلى كلماتي، بودى أن تصل إليك.

فى مدينتى يموت الإنسان وهو مسحوق القلب.

يهلك الإنسان وهو مثقل بالآلام.

حدقت من فوق السور.

رأيت جثث الموتى تطفو على مياه النهر.

وأنا أيضاً، فلسوف أطفو كذلك، الحق إنه كذلك.

الإنسان، أطول إنسان، لا يستطيع أن يرقى إلى السماء.

الإنسان، أعرض إنسان، لا يستطيع أن يغطى الأرض.

ونهايتى المحتومة لم تأت بعد.

بودى أن أدخل «أرض الحياة» وأرفع اسمي.

فى أمكنته حيث الأسماء المرفوعة، بودى أن أرفع اسمي.

فى الأماكن التى لم تسجل فيها الأسماء، بودى أن أرفع أسماء الآلهة.

يستجيب «أوتو» لتضرع جلعامش، وقام جلعامش باختيار خمسين متطوعاً

من شباب المدينة، ولما كانت المغامرة غير محسوبة العواقب، فقد اشترط عليهم

أن يكونوا عزاباً، لا أم لهم ولا بيت:

السيد جلعامش كان بالغ الفرحه.

عباً مدينته كرجل واحد.

جند رجالها كفرقيص انيس:

«من له بيت، فإلى بيته.

من له أم، فإلى أمه.

أما العزّاب الذكور الذين يودون أن يفعلوا ما أفعل.

فليقفوا إلى جانبي، وهم خمسون، فليقفوا على حدة».

صار الآن عند جلجامش أسلحة من برونز وخشب أعدها لنفسه ولصحبه، وانطلقوا إلى «أرض الحياة»، فقطعوا سبعة جبال، وما كادوا يجتازون السابع حتى وجد جلجامش «أرزة قلبه». قطعها وأمر أصحابه فجعلوا منها حزماً من حطب وعادوا ظاهرين إلى مدينته، لكن كان يرقبهم عن بعد العفريت «خاوا»، حارس شجر الأرز، الذي ألقي على البطل نوماً سحرياً عميقاً. استبد القلق والخوف بأصحابه فجعلوا يوهظونه من هذا النوم العميق:

يلمسه فلا يفيق.

يخاطبه فلا يجيب:

«يا من أنت نائم، يا من أنت نائم.

جلجامش، أنت سيد كلاب وابنها.

ألا ما طول نومك.

البلاد أمست ظلاماً، صارت ملأى بالظلال.

الفسق أرسل شعاعه الخافت.

أوتو ذهب مرفوع الرأس إلى أمه ننجال.

جلجامش، ألا ما أطول نومك

لا تدع أبناء مدينتك الذين اصطحبوك

واقفين بانتظارك عند سفح الجبل

لا تدع الأم التي ولدتك

تقذف إلى ساح المدينة.

يستيقظ جلعامش، وينهض كالثور، ويقسم بأبيه وأمه السماويين ألا يعود إلى مدينته حتى يقهر «خاوا»، إنساناً كان أم إنهما، لكن تابعه وصديقه «إنكيدو» كان قد امتلاً خوفاً لأنه هو الذى رأى ذلك العفريت، فأخذ يصفه له، وحاول أن يثنيه عما هو عازم عليه:

«سيدى، لم يحل بك الرعب، لأنك ما رأيت ذلك الرجل.

أما أنا فرأيت، لذا فقد حل بى الرعب.

المحارب، أسنانه أسنان تين،

له وجه أسد،

وزئيره هدير فيض الماء الدافق.

ومن جبينه الكثيف المقترس لا ينبو أحد.

وسيدى سافر أنت إلى أرض الحياة.

وأنا سوف أسافر إلى المدينة.

سوف أنبئ والدتك بمجئك.

ولیکن صراخها ضحكاً.

عندئذ أنبتها بموتك.

ولتدرف دموعاً مرة.

يحاول جلعامش أن يلقي بشيء من الطمانينة فى قلب إنكيدو:

«هلم نتقدم معاً ودعنا نظل إليه.

وسيحل بنا الرعب والخوف ولكن لتغلب عليه.

وسجد حواوا في بيته بين أشجار الأرز.

ويبدو أن بيت حواوا كان عبارة عن سبع أشجار من أشجار الأرز الضخمة:

ثم إن «جلجامش» قطع الشجرة الأولى بنفسه.

وقطع أبناء مدينته الذين رافقوه تاجها.

وربطوه ووضعوه في سفح الجبل.

وبعد أن قطع «جلجامش» الشجرة السابعة.

اقترب من مخدع «حواوا» ولطمه على خده لكمة شديدة.

فاصطكت أسنانه.

فأراد حواوا أن يوقف اعتداء جلجامش.

فتضرع «حواوا» إلى أوتو قائلاً:

«يا أوتو إنني لا أعرف الأم التي ولدتنى،

ولا الأب الذي أجبني،

فأنت الذي ولدتنى في «الأرض» وربيتني.

وتعوذ من جلجامش بحياة السماء والأرض السفلى.

فرق له قلب جلجامش وقال لتابعه «إنكيدو»:

«لندع الطائر الذي أمسكنا به يعود إلى موضعه.

وندع الرجل الذي أسرناه يرجع إلى حضن أمه».

فاجاب «إنكيدو» جلجامش:

«إن الطائر الذي أمسكنا به لو عاد إلى عشه.

إذا عاد الرجل الذي أسرناه إلى حضن أمه.

فسوف لن ترجع أنت إلى مدينة أملك التي ولدتك».

فقال «خاوا، إنكيدو»:

«لقد نطقت بالشر على يا إنكيدو».

وحين تفره هكذا بادراه وقطعا رقبته

وقدماه قرباناً إلى إنليل ونليل.

ثم تقدم جلعامش إلى الحجر الذى تشهق به أرض الحياة وهناك حفر اسمه وأسماء صديقه «إنكيدو» وفرسان أوروك الذين قدموا معه، وحضر أسماء الآلهة العظام، وسجد لهم، وأدرك أن ما سيتبقى منه هو اسمه هذا المحفور على حجر الخلود، وأن جسده سيبلى ولا بد له أن يستقبل أمر موته بشجاعة.

### رحلة جلعامش للبحث عن الخلود الحقيقي

رأينا أن جلعامش - طبقاً للنصوص السومرية - قد عرف أن الإنسان لا بد له أن يموت، وأن الخلود لن يكون إلا بالأعمال العظيمة، أما بقاء الإنسان حياً أبدا الدهر فهو أمر غير وارد تماماً.

إلا أن النصوص الأكديّة للملحمة تعلمنا أن جلعامش - بعد موت صديقه إنكيدو - هاله الموت، وأخذ يبحث عن الخلود الحقيقي، الخلود الذى لا يدنو منه الموت، ولا يستطيع أن يقهره، وكان سيله لبلوغ هذا الخلود يتمثل فى لقاء «أوتو - نبشتم» بطل الطوفان - فى الأسطورة البابلية - والذى نجا هو ومن معه فى السفينة، ثم أنعمت عليه الآلهة بنعمة الخلود فى أرض «دلمون» المقدسة، فأراد «جلعامش» أن يطلعه «أوتو - نبشتم» على سر الخلود، حتى يخلد ولا يتجرع كأس الموت ويقاسى أهواله.

وكانت نقطة البداية هى الوصول إلى «أور - شنابى» ملاح «أوتو - نبشتم»، وبالفعل يصل إلى «أور - شنابى» الذى قاده حيث يقيم «أوتو - نبشتم»، الذى يطلعه على أخبار الطوفان الذى دمر العالم، وكيف نجا هو ومن معه على طهر السفينة ونال الخلود الأبدى، ذلك الخلود الذى أسبغه عليه الآلهة هو وزوجه، ثم

أخبره أن ذلك الخلود لن يستطيع أن يناله؛ لأنه من الصعب تجميع الآلهة من أحله، لذا لابد من أن يجتاز جلجامش اختباراً، حتى يمكن التعرف إلى أى حد يستطيع أن يقترب من التركيبة «الإلهية»، ويعتمد عن الفطرة والحوار ابشيرية، يقول «أوتو - نيشتم».

والآن من سيجمع الآلهة من أجلك «ي جلجامش».

لكى تمال حياة الخلود التى تبغى؟

تعال «أختبرك» / «لا تنم سنة أيام وسبع أمسيات».

ولكن وهو لا يزال قاعداً على عجزه إذا بسنة من النوم.

تأخذه وتسلط عليه كالضباب

فالتفت «أوتو - نيشتم» إلى امرأته وخاطبها قائلاً

«انظرى، هذا الرجل البطل الذى ينشد الحياة!

لقد أخذته سنة من النوم وتسلطت عليه كالضباب».

فأجابت زوج «زوتو - نيشتم» زوجها وقالت له:

«المس الرجل كيما يستيقظ».

ويعود أدراجه سالماً فى الطريق الذى جاء منه.

ليعد إلى وطنه من الباب الذى خرج منه».

فأجاب «أوتو - نيشتم» امرأته وقال لها:

«لما كان الخداع من طبيعة البشرية فإنه سيخدعك».

فهلمى اخيزى له أرعفة من الخبز وضعها عند رأسه.

والأيام التى ينام فيها أشربها فى الجدار».

فخبزت له أرعفة من الخبز ووضعتها عند رأسه.

وأشرت في الجدار الأيام التي نامها .  
 فصار الرغبة الأول يابساً ، وتلف الرغبة الثاني .  
 والثالث لم يزل رطباً .  
 وابتضت قشرة الرغبة الرابع .  
 والخامس لم يزل طرياً ، والسادس قد تم خبزه في الحال .  
 ولما كان الرغبة السابع لا يزال على الجمر .  
 لمسه «أوتو - نبشتم» فاستيقظ .  
 ولما استيقظ جليجامش قال لدزوتو - نبشتم ، القصص :  
 ولم تكذ تأخذني سنة من النوم حتى لمستس فأيقظتني .  
 فأجاب «أوتو - نبشتم» جليجامش قائلاً له  
 «يا جليجامش عد أرغفتك .  
 فينبئك المؤشر على الحائط عدد الأيام التي نمت فيها .  
 فقد ييس رغيفك الأول ، والثاني لم يعد صالحاً .  
 والثالث لا يزال رطباً وابتضت قشرة الرابع .  
 والخامس لا يزال طرياً ، والسادس خبز في الحال .  
 والسابع إذا بك تستيقظ في الحال » .  
 فقال جليجامش لدزوتو - نبشتم ، القصص :  
 «ماذا على أن أفعل ، وإلى أين أوجه وجهي ؟  
 وها أن «الكل» قد تمكن من لبي وجوارحي .  
 أجل ! في مضجعي يقيم الموت .  
 وحيثما أضع قدمي يربض الموت » .

ثم قال «أوتو - نيشتم» إلى «أور - شنابى» الملاح:  
يا «أور - شنابى»، عسى ألا يرحب بمقدمك المرفأ.  
ويبرأ منك موضع العبور!  
ولتذهب مطروداً من الشاطئ.  
والرجل الذى قدته إلى هنا،  
والذى يغطى جسمه الوسخ.  
وشوهت جمال أعضائه أردية الجلود.  
خذه يا «أور - شنابى»، وقده إلى موضع الاغتسال.  
ليعمل فى الماء أوساخه حتى يصبح نظيفاً كالثلج.  
لينزع عنه جلود الحيوانات وليرمها فى البحر.  
حتى يتحلى جمال جسمه.  
ودعه يجدد عصاة رأسه.  
وليلبس حلة تستر عريه.  
وإلى أن يصل إلى مدينته،  
وحتى ينهى طريق سفره.  
لا تدع آثار العتق تبدو على جلته.  
بل لتحافظ على جدتها».  
وبالفعل يقوم «أور - شنابى» بتنفيذ أوامر «أوتو - نيشتم» بحذافيرها.  
ثم ركب جلعامش وه «أور - شنابى» فى السفينة.  
وأنزلا السفينة فى الأمواج وتهيأ للإبحار.  
وإذ ذاك خاطبت امرأة «أوتو - نيشتم» زوجها وقالت له:

«لقد جاء جلعامش إلى هناك وقاسى التعب واشتطت به النوى .  
 فماذا عساك أن تعطيه وهو عائد إلى بلاده؟  
 وكان جلعامش فى تلك اللحظات قد رفع المردى .  
 ليرقب السفينة إلى الشاطئ .  
 فأدركه «أوتو - نيشتم» وحاطبه قائلاً:  
 «لقد جئت يا جلعامش إلى هنا وقاسيت التعب .  
 فما عسانى أن أعطيك حتى تعود إلى بلادك؟  
 سأفتح لك ، يا جلعامش ، سرّاً خفياً .  
 أجل ! سأكشف لك عن سر من أسرار الآلهة !  
 يوجد نبات مثل الشوك يبت فى المياه .  
 وشوكه يخز يدك كما يفعل الورد .  
 فإذا ما حصلت يداك على هذا النبات وجدت الحياة الجديدة ،  
 وما إن سمع جلعامش هذا القول ،  
 حتى فتح المجرى الذى وصله إلى المياه العميقة  
 وربط بقدميه أحجاراً ثقيلة .  
 ونزل إلى أعماق المياه حيث أبصر النبات .  
 فلأخذ النبات الذى يخز يديه .  
 وقطع الأحجار الثقيلة من قدميه .  
 فخرج من عمق البحر إلى الشاطئ .  
 ثم قال جلعامش لـ «أور - شنابى» الملاح:  
 يا «أور - شنابى» ، إن هذا النبات عجيب .

يستطيع المرء أن يستعيد به نشاط الحياة  
 لأحمله معه إلى «أوروك» ذات الأسوار.  
 وأشرك معى الناس ليأكلوا منه.  
 وسيكون اسمه: «يعود الشيخ إلى صباه كالشباب».  
 وأن سأكله فى آخر أيامى حتى يعود شبابى».  
 ثم سارا، وبعد أن قطعنا عشرين ساعة مضاعفة.  
 تناولنا لقمة من الزاد.  
 وبعد ثلاثين ساعة مضاعفة توقفنا لبيتنا الليل.  
 وأبصر جلجامش بئراً باردة الماء.  
 فنزل فيها ليعتسل فى مائها.  
 فشمّت الحية شذى النبات.  
 فتسللت واختطفت النبات.  
 ثم نزعّت عنها غلاف جلدها.  
 وعند ذلك جلس جلجامش وأخذ يبكى.  
 حتى جرت دموعه على وجنتيه.  
 وكلم «أور» - شنبسى، الملاح قائلاً:  
 «من أجل من يا «أور» - شنبسى، كلت يداى؟  
 ومن أجل من استنزفت دم قلبى؟  
 لم أحقق لنفسى مفئداً.  
 أجل: لقد حققت المغنم إلى «أسد التراب».  
 أتبعد خمسين ساعة مضاعفة.

يأتى هذا الخلق فيخطف النبات مى .

وقد سبق لى أنى لما فتحت منافذ الماء .

وجدت أن هذا نذير لى أن أتخلى عن مطلبى .

وأترك السفينة فى الساحل .

وبعد مسيرة عشرين ساعة مضاعفة

تناولوا لقمة من الزاد .

ثم وصلا إلى «أوروك» ذات الأسوار .

وبذلك ينتهى هذا الجزء من الملحمة بفشل «جلجامش» فى الحصول على

الخلود الذى كان ينشده، وكأن الناموس الإلهى لا يقبل إلا أن يموت الإنسان،

وأن الخلود الدائم ما هو إلا أكلوبة كبرى.

### جلجامش وإنكىدو والعالم الأسفل

هذا الجزء من الملحمة جاءت به إلينا النصوص السومرية، وهو ترجمة

حرفية لما جاء به اللوح الثانى عشر من الملحمة البابلية، ويبدأ النص بالحديث

عن شجرة «إنانا» التى استقدمتها من نهر الفرات إلى مدينتها «أوروك»،

وزرعته وأخذت ترعاها لتصنع من أخشابها كرسيًا وسريراً .

وعندما كبرت الشجرة حاولت إنانا أن تقطعها، إلا أنها فشلت فى ذلك -

بعد عدة محاولات، وذلك لأن ثعباناً ضخماً اتخذ أسفلها مأوى له، كما اتخذ

طائر «الصاعقة» «زو» من أغصانها عشا له ولصغار، وفى وسطها اتخذت

الشیطانة «ليث» مأوى لها، ولم تجد «إنانا» أمامها إلا الاستمانة بجلجامش

البطل الذى قام بقتل الحية، فهرب الطائر «زو» إلى الجبال، وعادت الشيطانة

«ليث» إلى القفار، عند ذلك قطعت الشجرة، وصنعت «إنانا» الكرسي والسرير،

وصنعت لجلجامش - مكافأة له على صنيعه - من جذع الشجرة طيلاً اسمه

«بكو» ومن أغصانها مضرب طبل اسمه «مكو» ويبدو أن هذه الآلة كانت مسجورة، فعندما كان جلجامش يبدأ بقرعها، كانت تحن له قلوب العذارى، وكن يأتين إلى داره ويفتصبهن، حتى أن الآباء قد بدأوا يتضجرون من أفعاله، لأنه كان ينتهك بنات أوروك.

إلا أن هذا الوضع لم يستمر طويلاً، فإن «البكو» و«المكو» - وربما يفعل إنانا كما تخبرنا النصوص السومرية - قد سقطا إلى العالم الأسفل من خلال ثقب في الأرض، وأراد جلجامش أن يستردهما بأن أدخل يده من الثقب لكنه لم يفلح في هذا، فجلس على حافة العالم الأسفل وهو يندب وينوح.

ايا «بكى» من سعيك إلى من العالم الأسفل؟

ويا «مكى» من سرجع بك من العالم الأسفل؟

يسمع «إنكىدو» بكاء صديقه وخله «جلجامش»، فيخبره أنه على استعداد - حتى يسعد صديقه - أن ينزل بنفسه إلى العالم الأسفل حتى يعود له بالـ«مكو» والـ«بكو»، وهنا يبدأ جلجامش في تمرير «إنكىدو» بقوانين العالم الأسفل، وما يجب عليه فعله، ويتحتم عليه تجنبه حتى يعود سالماً من هذا العالم الذى قلما عاد منه من ذهب إليه:

إذا اعتزمت النزول إلى العالم الأسفل،

فسأقول لك كلمة فاتبع كلمتى.

سأرشدك فسر وفق إرشادى.

لا تلبس ملابس نظيفة زاهية.

فتبدو نزيباً غريباً عنهم.

لا تمسح جسمك بالزيت الفاخر.

لئلا يجتمعوا حولك بسبب عطره.

لا ترم عصاك فى العالم الأسفل .  
 حتى لا تصيب أحدهم فيحيطوا بك .  
 لا تأخذ بيدك عصا .  
 وإلا فإن الأرواح سترجف منك .  
 لا تلبس نعلًا فى قدميك .  
 ولا تحدث صوتاً فى العالم الأسفل  
 وإذا وجدت الزوجة التى تحبها فلا تقبلها .  
 والزوجة التى تبغضها لا تضربها .  
 ولا تقبل الابن الذى تحب .  
 ولا تضرب الابن الذى تكره .  
 وإلا فإن صراخ العالم الأسفل سيغلبك .

إلا أننا - ولأسباب غير معلومة - نجد أن إنكيديو قد قام بمخالفة كل ما نصحه به «جلجامش»، فقد لبس حلة نظيفة، ومسح جسمه بالزيت، وأخذ بيده عصا، فتراقصت أمامه الأشباح، ولبس النعل فى قدمه. فأحدث جلية بالعالم الأسفل، وقبل زوجته التى يحب، وضرب زوجته التى يكره، وقبل ابنه الذى يحب، وضرب ابنه الذى يكره، فأمسك به صراخ العالم الأسفل، ولذا منعتة «أرشكيجال» من الصعود من عالم الأموات، وعندما تأخر «إنكيديو» أيقن «جلجامش» ما حدث له فمخالفة «إنكيديو» لهذه النصائح جعلت من بالعالم الأسفل يشعرون به، ومن ينزل إلى هذا العالم من الآلهة، فإنه لا يرجع منه - كما رأينا عند عرض قصة إنانا ودموزى - إلا إذا قدم بديلا، فما بالك بالبشر، فهم لا رجعة لهم منه أبداً.

لذلك يلجأ جلجامش إلى الإله «إنليل» لينقذ «إنكيديو» ولكنه لم يسعفه، ثم

تضرع إلى الإله «سين» وكان موقفه كموقف إنليل، وأخيراً تضرع إلى الإله «إيا»  
وقدم له شكواه:

وعندما سمع الأب «إيا» ذلك.

قال لرجال:

نرجال، أيها البطل الصنديد.

فلتفتح الآن ثقباً في العالم الأسفل.

تستطيع منه روح «إنكيدو» الصعود من العالم الأسفل.

فامثل نرجال لطلب «إيا».

وعلى الفور فتح ثقباً في العالم الأسفل.

فانسلت من خلاله روح «إنكيدو» وكأنها هواء.

فتعانق الصديقان وقبل بعضهما.

فسأل جلجامش «شبح» إنكيدو:

«أخبرني يا صديقي عن أحوال العالم الأسفل الذي رأيت».

فأجابه صديقه:

«لن أقص عليك أخبار العالم الأسفل يا صديقي.

وإذا كان لابد من إخبارك فعليك أن تجلس وتبكي».

فأجابه جلجامش: «سأجلس وأبكي».

فأخذ شبح «إنكيدو» يشرح له الصورة القائمة التي وجدها في  
العالم الأسفل:

«إن جسمي الذي كنت تلمسه يوم كان قلبك تغمره الأفراح،

يلتهمه الدود الآن كما لو كان خرقة.

فصرخ جلعامش: يا ويلتاه، وتمرغ في التراب.

صرخ جلعامش، ورمى نفسه في التراب وخاطب شبح إنكيديو:

هل رأيت الذى قتل فى المعركة؟

أجل، لقد رأيت، أبوه وأمه يرفعان رأسه.

وتنوح عليه زوجته.

وهل رأيت من ترك جثمانه فى البرية؟

أجل لقد رأيت. إن روحه لا تجد الراحة فى العالم الأسفل.

هل رأيت من لا يوجد أحد يقرب لروحه؟

أجل لقد رأيت إن روحه تأكل من حشالة الأوعية.

وكسرات الخبز وفضلات الشوارع.

هل رأيت الذى لا ولد له؟

أجل رأيت.

«سطران مفقودان».

هل رأيت الذى خلف وراءه ابناً واحداً؟

أجل لقد رأيت وهو ممدد أسفل الجدار ويبكى بكاء مرأى،

والذى خلفه ابنين هل رأيت؟

أجل لقد رأيت، إنه يضطلع فى بناء من الآجر ويأكل الخبز.

هل رأيت الذى خلف ثلاثة أبناء؟

أجل رأيت. إنه يسقى الماء من زقاق ماء العمق.

والذى له أربعة أبناء هل رأيت ؟

أجل شاهدته وهو فرح القلب .

وهل رأيت الذى خلف خمسة أبناء ؟

نعم رأيت . وهو كالكاتب الطيب ويده مبسوطة ،

ويسمح له بدخول القصر .

ويظل «جلجامش» يعدد له الأسئلة كيما يعلم كل شيء عن هذا العالم المجهول، وعلى كل حال، فإن «إنكي دو» - طلقاً لهذا الجزء من الملحمة - قد مات من أجل صديقه جلجامش، وهو يحضر له البكو والمكو من العالم الأسفل.

أما فى الملحمة البابلية، فقد اجتمعت الآلهة - كما رأى إنكي دو فى حلمه - وقرروا موت «إنكي دو» لأنه قتل خمبايا «خاوا» وثور السماء مع جلجامش، مما كان سبباً فى بحث جلجامش - على إثر موت صديقه - عن الخلود الدائم حتى لا يعانى من الموت وسكراته كما عانى صديقه العزيز «إنكي دو».

### موت جلجامش

أصبح «جلجامش» الآن على يقين أنه لا سبيل إلى الحصول على الخلود الذى كان يتفاه، والذى أضنى نفسه فى البحث عنه، ويقصد هذا الخلود الجسدى الذى لا يناله الموت، فقد أضحى على يقين أن الموت ملاقيه حتماً، وأنه لا مفر منه، وكفّيه شرف أن الآلهة قد حبه بالملوكية، وساعدته على القيام بالأعمال الجليلة التى خلدت ذكره بين بنى الإنسان.

ويبدأ هذا الجزء من الملحمة برؤية جلجامش حلماً كان نذيراً بموته، حيث رأى أنه يدخل فى موضع ظلمة عتية، وأن أهلة كثيرة بددت هذه الظلمة، وأن أشباحاً تخرج فى شهر آب من هذا الموضع، فقص «جلجامش» حلمه هذا على الإله «إنليل» والذى قام بتفسيره له، وأخبره أنه حاز على الملوكية، أما الخلود فلم يقدر له :

العالم الأسفل، موضع الظلمة، سيضيء حقاً .  
 والبشر مهما كثرت أسماؤهم وأنواعهم .  
 فمن غيره من سيكن مثل هيئته إلى قابل الأيام؟  
 والأبطال العظام، والعرافون . إنهم كالهلال حقاً .  
 من غيره من وجد القوة والقدرة قلبهم .  
 وفي شهر آب، الأرواح  
 لا يكون ضوء أمامهم بدونه .  
 إن «إنليل» الجبل العظيم، أبو الآلهة .  
 إن مغزى حلمك أيها السيد جلجامش .  
 لقد قدر مصيرك أن تحوز على الملوكية يا جلجامش .  
 أما الحياة الخالدة فلم تقدر لك .  
 ولكن لا يحزن قلبك من أجل تلك الحياة .  
 ولا تبتس ولا تقنط وتحزن .  
 ومن ارتكب الخطيئة من بنى الإنسان .  
 ومن اغمرات أطلق قيدك .  
 لقد وهبك نور البشر وظلمتهم .  
 ووهبك السيادة على البشر .  
 وقدر لك النصر في المعركة التي لا يسلم منها أحد .  
 وقدر لك النصر في الهجوم الذي لا يسلم منه أحد .  
 ومن «دحر» الشر يضطجع ولا يقوم

ومن مكن العدل فى البلاد يضطجع ولا يقوم.

والشديد القوى يضطجع ولا يقوم.

إن سيد «كلاب» يضطجع ولا يقوم.

والحكيم الوسيم يضطجع ولا يقوم.

ومن ارتقى الجبال معه يضطجع ولا يقوم.

على فراش المنية المقدرة يضطجع ولا يقوم.

وعلى السرير المزركش يضطجع ولا يقوم.

القائمون غير صامتين والقاعدون غير صامتين.

لقد أقاموا ندياً ومناحة.

ومن يتناول طعاماً لم يسكت ومن يشرب الماء لم يسكت.

لقد أقاموا مناحة.

و«غمتاره» غير صامت.

وكالسمكة قد مد «يده» واختطف روح جلجامش».

«وكان جلجامش» كالغزال الذى وقع فريسة السلاح «كثيروه».

«غمتاره» الذى لا أيدى له ولا أرجل ولا يشرب الماء.

ولا يأكل الطعام.

«حمل جلجامش إلى العالم الأسفل».

وينتهى الأمر - طبقاً لما جاء فى النصوص - برحيل عائلة وحاشية جلجامش معه إلى العالم الأسفل، وقد فسر «ليونارد وولى» هذا الأمر بأن هؤلاء الذين صاحبوه هم أضحى بشرية كانت ترافق الملوك فى موتهم، وقد دفنوا معه أحياء، وذلك طبقاً لطقس دفن أتباع الأمير أو الملك معه.

## المصادر والمراجع

- ١ - مجدى كامل: أشهر الأساطير فى التاريخ، دار الكتاب العربى، دمشق - القاهرة ٢٠٠٣ .
- ٢ - خزعل الماجدى: الدين السومرى، دار الشروق، عمان - الأردن ١٩٩٨ .
- ٣ - فراس السواح: موسوعة تاريخ الأديان، الكتاب الثانى، دار علاء الدين ٢٠٠٧ .
- ٤ - صلاح أبو السعود: أساطير سومر وبابل، دار مشارق ٢٠٠٩ .
- ٥ - كارم محمود عزيز: أساطير التوراة الكبرى، مكتبة النافذة ٢٠٠٦ .
- مواقع عربية وأجنبية على شبكة الإنترنت الدولية.

## الفهرس

5	مقدمة
7	المعتقدات الدينية السومرية
70	الآلهة السومرية
73	شجرة الآلهة السومرية
87	رموز الآلهة السومرية
94	الأساطير السومرية
96	١ - أساطير الخليفة
104	٢ - أساطير تنظيم الكون
108	٣ - أساطير تدمير الكون
114	٤ - أساطير إنانا
130	من الأساطير السومرية - أساطير الطوفان
153	أسطورة إنانا ودموزي
187	أسطورة إنكي
193	أساطير الخلق السومرية
205	أسطورة إنليل ونليل
212	ملحمة جلجامش
255	المصادر والمراجع

# الأساطير السومرية

**أساطير الطوفان - أسطورة إنكي - أساطير الخلق  
السومرية - ملحمة جلجامش - أسطورة إنانا ودموزي**

إن الصورة الحسية للآلهة السومرية نشأت من الطبيعة في جنوب العراق. وورث الإنسان السومري تقاليد عبادة الإلهة الأم، وهي إلهة طبيعية من شمال العراق. ولذلك جاءت أول تصوراتهم الحسية عن الآلهة ملتصقة بالطبيعة لأنهم كانوا يرون في ذلك استمرار بقاء زرعهم وقطعائهم ومياهم التي كانت مصدر عيشهم الأول.

ولذلك كانت صور الآلهة وخصوصاً قبل ٣٠٠٠ قبل الميلاد لها علاقة بالدرجة الأساس بالطبيعة حيث كان كبار الآلهة السومريين هم الطبيعة نفسها، فالإله أن هو السماء وإلهها، والإله إنليل هو الهواء وإلهه، والإله إنكي هو الماء وإلهه، والإلهة كي هي الأرض وإلهتها. وتم تصور الآلهة أيضاً على شكل حيوانات مثل الإلهة باو إلهة الزراعة والشفاء..

وتطور تصور الآلهة بعد ٣٠٠٠ قبل الميلاد وأصبح أقرب إلى الشكل الإنساني. أما الصورة المجردة أو الذهنية أو التأملية للآلهة فقد أخذت تنمو مع ازدياد مداركات الإنسان العقلية والروحية، وصارت فكرة الألوهة حاضرة بشكل دائم في ذهن القديم.

وأتركك عزيزي القارئ.. لتطالع مجموعة من الأساطير السومرية عسى أن تجد فيها المتعة الفنية والخيال الإنساني الرائع.